عطر الشتاء

- كفر أولاد راضي -

فاطمة الزهراء السلاوي

دار العلوم
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : عطر الشتاء ـ كفر أولاد راضي ـ
فاطمة الزهراء السلاوي
طبعة أولى : ٢٠١٨
التنسيق الداخلي : رفعت حسن سيد
تصميم الغلاف :
دار العلوم للنشر والتوزيع
ص . ب : ٢٠٢ محمد فريد ١١٥١٨
هاتف : ٠١١٤٤٧٦٤٠٠٠ ـ ٠١٠٦١١٦٠٩٨٨
الموقع الإلكتروني : www. darelolоom. com
البريد الإلكتروني : daralaloom@hotmail. com
Facebook. com/darelolоom
Twiter: @darelolоom
دار العلوم للنشر والتوزيع
جميع الحقوق محفوظة
رقـــم الإيداع : ١٨٤٣ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : ٤ـ٥٤٩ـ٣٨٠ـ٩٧٧ـ٩٧٨

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأى **دار العلوم للنشر والتوزيع**

يمنع نسخ أو استعمال أى جزء من هـذا الكتـاب بأيـة وسـيلة تصـويرية أو إلكترونيـة أو ميكـانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافى والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقـروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

١

عطر الشتاء

وقفت سارة أمام النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على أكبر شوارع وميادين العاصمة الألمانية على ارتفاع شاهق، واستنشقت بعض الهواء بعمق، و استجمعت نفسها بكل ما أوتيت من قوة، ذخات المطر الثلجى يهبط أمام عينيها وتهبط معه قطرات من ماضيها، حاولت أن ترتشف بعض الماء من الكوب الممسكه به وأغمضت عينيها، لتلاحقها ومضات من ذكرياتها، مضت سريعة ومتلاحقة، زادت من توترها ومن ضيق قلبها، وضعت يدها على صدرها وهمست لنفسها (يارب ساعدنى) ولكنها استجمعت نفسها مع كلمات مديرة مكتبها بلهجة عربية خليجية.

دكتورة سارة: الجميع في انتظارك.

وضعت سارة الكوب على مكتبها واعتدلت ورفعت رأسها واستدارت بخطوات ثابته لتنظر للمرآة على الحائط، عدلت من شعرها الحريرى البنى اللون المسدل على كتفها، ووضعت بعض البرفان ومررت أحمر الشفاه برقة على شفتيها، وعدلت التيير الكحلى اللون الفاخر ذو الجيب الضيق الذى يضيف قوة و وقاراً وأنوثة إليها وتممت من هيئتها.

خرجت من المكتب بخطوات قوية، رنين خطوات حذائها ذي الكعب العالى كأنها دقات طبول حرب على وشك البداية وخلفها سكرتيرتها متجهه إلى مكتب فريقها المكون من فردين ثم إلى قاعة الاجتماعات، وجعلت نفسها آخر الداخلين.

وقف صلاح وفريقه في استقبال المجموعة وبدأ يعدل من جاكت بدلته، وبدأ المترجم في تعريف المجموعتين لبعض:

هير ألكسندر – المدير المالى وعضو مجلس الإدارة.

هير ليون – المدير القانونى وعضو مجلس الإدارة.

فراو سارة المصرى – المدير التنفيذى لفروع الشرق الأوسط وعضو مجلس الإدارة ورئيس اللجنة.

تسمر صلاح في موقعة ولم يكد يستطيع الوقوف على قدمية وتحجرت عينية على سارة، على حين بدؤوا في تبادل السلام باليد، ولم يمد صلاح يده حتى وخزة زميله.

صلاح صلاح.. سلم إنه يمد يده إليك.

مد صلاح يده وسلم على ألكسندر وليون ثم جاء دور سارة ولمس كف يده كفها، سحبت يدها بسرعة و استدارت ساره واعتدلت لتجلس على كرسيها في منضدة الاجتماعات، وتوجهت بنظرها سريعاً إلى الملف الذى أمامها، وتجنبت النظر ناحيته نهائيا.

وبدأ (رامز) أحد رجال صلاح الحوار، وعرض مقترحات الدمج ثم سلم الحديث لصلاح لكى يبدأ في الشرح وإذا به يحاول أن يخرج الكلمات، فلم تكد تخرج، وبدأ يتصبب في العرق، وترتفع دقات قلبه فاعتذر ونهض من الكرسى وطلب الحمام.

توترت سارة أكثر ومدت يدها لترشف بعض الماء ورفعت رأسها ونظرت في فضاء الغرفة وإذا (بطارق) رجل صلاح الآخر يهمس لرامز ولا تفهمهم إلا سارة: ماذا به، لقد كان بخير، لماذا توتر هكذا إنها ليس أول مرة يقابل شركات ويتفاوض، ولا هذه أول مرة يأتى فيها هنا في ألمانيا أو يتعامل مع هذه الشركة فمنذ سنوات وهو رجل المجموعة هنا.

رامز بضيق: لا أعرف.

دخل صلاح إلى الحمام وأمام المرآة فتح الصنبور، وظل يأخذ في الماء ويقذف به وجهه غير عابئ بأن ملابسه تتبلل من كثرة توتره ونظر في المرآة وهو لا يكاد يصدق ويهمس في نفسه إنها سارة.. إنها سارة... إنها سارة...

حاول أن يستجمع نفسه وأخذ كومة من المناديل الورقية يجفف يديه ووجه، وعدل من ملابسه وخرج.

جلس صلاح وهو لا يحول نظره من على سارة، وسارة موجهة وجهها للملف وتقلب به في صمت.

استأنف رامز الحوار: لنكمل حديثنا تفضل يا أستاذ صلاح

صلاح بصوت متحشرج ومتقطع : إن الدمج سيوفر لكم سوق تجارية كبيرة في مصر وأنتم تعلمون القوة الشرائية لها كما هو موضح بالملف .

قاطعة ألكسندر باللغة الألمانية والمترجم ييسر الحوار بينهم : إن ما تقوله معروف ولكن موقفكم المالى غير مطمئن .

وهنا قاطعتهم سارة بهدوء وبرود شديد وابتسامة مرسومة كالثلج وهى تتجنب النظر لوجه صلاح ومربطة كفيها في بعضهم فوق الملف ، وكأنها تعطى لنفسها قوة مصطنعة .

سارة : أستاذ صلاح أنت تتحدث عن مكانتكم وموقفكم وما سيعود علينا من نفع ، كل هذا الكلام ليس له قيمة فأسهمكم تقريباً في قاع السوق ، وسمعتكم انتهت لا يوجد مريض يذهب لإحدى الصيدليات ليشترى حقنة بلاستيكية أو جهاز وريد عليه اسمكم .

لقد طفت على أكبر الشركات العالمية والكل رفض الاندماج معكم أو التعامل معكم .

رئيس مجلس الإدارة في السجن ، وأنت عليك قضية مازالت تحت النظر ، ومروان وأحمد ورفعت في السجن ، باختصار أنت تطلب منا أن تختبئ تحت اسمنا وتحتمى بنا دون مقابل يذكر .

رامز : الأمر ليس بهذا السوء ، ولا تنس أننا نمر بحالة ثورة والقضايا معظمها سياسية .

ضحكت سارة ضحكة عاليه بسخرية: لا يا سيدى إننى لا أتحدث عن قضايا الثورة، ربما قضايا الثورة هى التى زلزلت القوقعة الواقية التى كان يصنعها سامى بك ليغطى على أعماله.

طارق: طالما أنكم ترون الأمر بهذا السوء، لماذا وافقتم على المقابلة؟

فنهره رامز بصوت خافت ووخذه في ذراعه: ما الذى تقوله؟

وصلاح ارتسمت على وجهه علامات اليأس، وأيقن أنها أحضرته لتتشفى به.

سارة بابتسامة باهتة: إذا أردت أن ننهى الحوار عند هذا الحد فليس هناك مشكلة.

رامز: سارة هانم نحن متفائلون خيراً بك، وفرحنا أنك من سيتفاوض معنا، فنحن مصريون مثل بعض، ولدينا عشم في وقوفك بجانبنا.

سارة اعتدلت في جلستها وخلعت نظارتها الطبية الرقيقة: الأمور هنا ليست بهذه البساطة، لا يمكن أن أغامر بشركتى واسمى من أجل (بلدياتى). أنتم تريدون أن تنظفوا قذارتكم تحت اسمنا وتختبئوا خلف شركة كبيرة مثلنا أنتم لن تضيفوا لنا بل ستأخذون.

صلاح بنظرة قوية: لماذا أحضرتينا يا دكتورة إن كان هذا رأيك؟

ألكسندر وهو يسمع الحوار من المترجم: سيد رامز نحن ندرس الموقف من جميع جوانبه ثم إن السيدة سارة هى المسؤولة عن شركتكم منذ أكثر من عشر سنوات، وهى التى توقع على اعتماداتكم، وكم من المرات التى

كانت تدافع عنكم أمام مجلس الإدارة، وتوافق على اعتماداتكم المالية، وأى كميات تطلبونها وتخفض أسعاركم ولكن الأمر ليس بالسهولة أن تتخذ هى القرار وحدها.

قاطعته سارة سريعاً: الأمر الآن مختلف، فأنتم تطلبون حمايتنا لكى تختبئ مخالفتكم واسمكم الملوث تحت اسمنا النقى.

تأثر صلاح بكلمتها وأغمض عينيه لحديثها المؤلم، وانطلق رامز في الحديث: إذاً ماذا تقررين الآن مدام سارة.

ليون: من فضلكم أن تنتظرونا عشر دقائق وسنتشاور قليلاً ونعطيكم الرد.

نهضت سارة والمجموعة إلى القاعة المجاورة، وجلس صلاح على نفس هيئته من الوجوم والصمت لا يصدق ماحدث، و الكلمات تدور في زهنه(عشر سنوات وهى التى تسير أعمالى وتوقع على كل ورقة خاصة بى ولم أرها ولو مرة واحدة، بالفعل كنت دائماً مع وكيلها ومدير العلاقات العامة، وكنت أسمع اسم SM ولم ألتفت إليه أبداً، كل هذه السنوات وهى تتلاعب معى من خلف الستار. . . كم أنا غبى).

وبعد مرور عشر دقائق كأنهم عشرة أيام دخل المترجم ليخبرهم: لقد وافقة اللجنة مبدئيًّا على عرض الأمر في الغد لجلسة مجلس الإدارة الاستثنائة واتخاذ القرار.

تنفست المجموعة الصعداء، وبدأ يشعرون ببعض الأمل.

رامز: الحمد لله هذا يعطينا أملاً.

طارق : لم أتخيل أن تكون دكتورة سارة بهذه الصعوبة رغم توقعى أن تساعدنا وتقف بجانبنا .

صلاح وهو ينهض من كرسية ويفك بعضاً من ربطة عنقه : أريد أن أتحدث مع د/ سارة على انفراد ، أين مكتبها؟

رامز : لا اعرف ولكن نسال .

وصل صلاح إلى مكتب سارة ، ودخل إلى مدير مكتبها ، وتحدث بالإنجليزية : أريد أن اقابل د / سارة .

السكرتيرة : سأبلغها بالأمر تفضل .

انتظر صلاح خارج المكتب وهو يحرك خطواته .

خرجت السكرتير : آسفة . . . لقد رفضت الدكتورة مقابلتك ، وتبلغك أنه ممنوع مقابلة العميل لأى من أعضاء اللجنة على انفراد .

صلاح : أبلغيها أنى أريد مقابلتها في أمر شخصى .

دخلت السكرتيرة مرة أخرى وعادت : آسفة يا سيدى لقد رفضت الدكتورة مقابلتك .

انصرف صلاح وقد أدرك أنها لم تسامحه بعد ، وظل يحدث نفسه : لقد كنت كل ما أتمناه أن أقول لها :

آسف . . سامحينى . . اشتقت إليك . . لم أنسك لحظة . . . .

وفى العاشرة صباحاً من اليوم التالى وكلهم ينتظرون في قاعة الاستقبال منتظرين إنهاء المجلس خرج لهم المترجم مبتسماً: ألف مبروك لقد تم الموافقة المبدئية على الدمج، ولكن كان قرار مجلس الإدارة أن يتم دراسة كل تفاصيل الشركة والوضع على الطبيعة في القاهرة، وسوف تسافر معكم لجنة من ثلاثة أفراد لدراسة الموقف، مبروك مقدماً.

وتباينت تعليقاتهم فيما بين سعيد مثل رامز، ومتوجس مثل صلاح، ورافض مثل طارق.

طارق: هل نحن ناقصون تضييع وقت.

رامز: سيكونون تحت أيدينا في القاهرة، ونستطيع التأثير عليهم.

صلاح: المهم من هى اللجنة؟

مر اليومان على صلاح وهو لم يذق النوم حبيس الفندق، حاول بكل الطرق أن يحصل على رقم هاتفها الخاص ولكنه فشل، حاول الاتصال عبر مكتبها لترد عليه مديرتها ليصل لنفس الرد.

دكتورة سارة لا تستطيع الرد عليك.

لم يمر يومان إلا وسارة واثنان من فريقها ينتظرون في صالة المطار في انتظار الطائرة المتجة إلى القاهرة وصلاح وفريقه في المقاعد المجاورة، وسارة ترتدى حُلة فاخرة جالسة في كبرياء مبالغ فيها ترفع شعرها البنى للأعلى قليلاً وتضع نظارة سوداء الكبيرة على عينيها لتخفى نصف وجهها لتتجنب

النظر لعيني صلاح، وتتجنب الحديث معه، تضع وجهها في بعض أوراق الدعاية من شركة الطيران على حين هو لم ينزل عينيه عنها، ولاحظت أنها كلما استدارت أو رفعت رأسها تجده ينظر نحوها.

وهمس صلاح في نفسه:

شعرها كما هو، قوامها كما هو، وكأنه لم يمر أكثر من ثمانية عشر عاماً على فراقنا، جميلة كما هى، ولكن ما هذه القسوة والقوة! من أين أتت بها؟ لقد أصبحت سيدة أعمال ومليونيرة بل ملياردية كما يقولون، من أين لها بكل هذا، كيف اختفت عنى كل هذه السنين، وكيف كانت بكل هذا القرب منى ولم أستطع أن أراها.

كم أتمنى أن أنظر إلى عينيها البنيتين التى طالما أحببت النظر إليهما.

رن جرس موبايل سارة فترد عليه وتتحدث باللغة العربية.

نعم يا حبيبى.. أنا مازلت في المطار.. اعتنى بنفسك.. لا تنسَ وجباتك الغذائية.. سأنتظرك فور انتهائك.. مع السلامة.

صلاح هامساً في نفسه: من ياترى هذا؟ أهو زوجها، ربما.. ولكنها لا ترتدى خاتم زواج، وهل يعقل أنها ستظل بدون زواج طوال هذه المدة.

سرعان ما استقلوا الطائرة.

جلست سارة في أقصى اليمين بجوار النافذة، وجلس صلاح بعدها بكرسى واحد.

صوت قائد الطائرة يرحب بهم، وبدأت الطائرة تتحرك، ومع مشاهد السحاب ألقت سارة بعينيها إلى الخارج، وكأنها تطفو فوق السحاب، وتنتقل إلى عالم آخر خارج الزمان والمكان لترحل بعيداً بعيداً عبر السنوات وتتساءل، هل ما أفعله هو الصواب؟ هل أنا على حق؟ وتتلاحق الصور في مخيلتها . .

ولم تستطع أن توقف آلة الزمن من عقلها لتتذكر وترى طفولتها وهى ذات السبع سنوات تلهو مع صلاح على حافة الترعة . . . .

دارت الأسئلة في عقله وعينيه التى لم تتذوق طعم النوم منذ قابلها من يومين تنبأ بما هو فيه من حيرة وتوتر .

لماذا أخفت نفسها عنى طوال هذه السنوات؟ لماذا كانت تساعدنى في الخفاء؟ ولماذا ظهرت الآن؟ ولماذا لم تسمح لى باللقاء أو الحديث معها على انفراد .

أريد أن أقول لها اشتقت إليك . . بحثت عنك . . لم أنسك . . ضعفت فأنا إنسان . . الظروف كانت أقوى منى ومنها . . وحشتينى يا حبيبتى .

وهنا بدأت آلة الزمن تدور به هو الآخر لتتحول ساعات السفر في الطائرة إلى تذكرة سفر إلى الماضى .

صلاح الطفل القوى الجميل ذو العشر سنوات يلهو في قريته مع ابنة عمته بجوار الترعة . . . .

*****

٢
(كفر أولاد راضى)

اسم على مسمى – فهى قرية مثل مئات وآلاف القرى والنجوع في ريف مصر وصعيدها، تلك القرية في وسط الدلتا، عرف عن أهلها الطيبة والكرم والرضا فكانت بحق قرية أولاد راضى.

ليس بها عمل إلا الزراعة وبعض الورش والمشروعات البسيطة من محل البقال، للحلاق والعطار، إلى ورشة العجلاتى وميكانيكى ماكينة المياه إلى ورشة (عم عبد الله راضى) وهى عبارة عن ورشة صغيرة للبلاستك يستخدم المخلفات لينتج الأكياس البلاستيك والأحذية البلاستيكية التى تستخدم في الريف (الشباشب والأطباق البلاستيكية).

عم عبد الله يعتبر من مثقفى القرية حاصل على دبلوم الصنايع وأول من فتح ورشة للبلاستيك على حدود القرية بجانب قطعة أرض صغيرة ورثها عن أبوية هو وشقيقته.

وعلى ضفاف ترعة كفر راضى الهادئة، وعلى أغصان شجرة الصفصاف الضاربة في عمرها سنوات وسنوات وشهدت أغصانها تربية أجيال وأجيال من الشباب، كان صلاح بن عبد الله راضى ذو العشر سنوات ذلك الطفل الوسيم والقوى البنية، والذى أخذ من هواء القرية نقاء وجهه وجمال عينيه وأخذ من أرضها قوة بنيته الجسدية، يربط بإحكام حبل الأرجوحة المعلق عليها كاوتش سيارة بالٍ قديم ويضع عليه بإحكام

(جوال) فارغ ليكون حماية لفتاته الجميلة بنت مصر الرقيقة التى تحضر كل عام لتقضى شهور الصيف معه في بيت خالها الوحيد.

صلاح وهو يمسك بالأرجوحة: هيا اركبى عليها، لقد ربطتها بإحكام.

سارة بدلال: أخاف أقع في الترعة.

صلاح وهو يضحك: لو وقعتى سأنزل أجيبك، اطلعى.

صعدت سارة على الأرجوحة بعد أن احتضنها صلاح وأجلسها عليها، وبدأ يهزها لتتطاير ضفيرتاها البنيتان خلفها، وتشرق ضحكتها في وجهها الجميل، وتلمع عيناها البنيتان من السعادة.

فكانت أسعد أيام سارة ذات الثمانى سنوات هى أن تكون بين يدى صلاح يلعبوا سويًا ويلهوا في الغيطان ويأخذها من يدها ليقطفوا الطماطم ويأكلوا الباذنجان النى، وتضحك وهو يقطع لها عيدان الذرة الناضجة ويصنع لها (الراكية) في الحقل ويشوى لها الذرة، وهى تجلس معه على الحمار يسوقة بها من شارع إلى شارع، ومن الحقل للبيت، ويلعب معها تحت النجوم فوق سطح بيتهم، فلم يكن لصلاح إخوة كان وحيد أبويه على خلاف أطفال القرية فلم يكن يملأ حياته طوال الصيف إلا زيارة سارة.

وعلى مرمى البصر كان (عماد) شقيق سارة الأصغر يجرى نحوهم.

عماد وهو يلهث ويجرى: يا صلاح يا سارة يا صلاح... طنط سعاد وضعت ياسارة... مامتك وضعت يا صلاح.

صلاح بلهفة: ماذا؟ خلاص وضعت.

عماد وهو يضحك : ماما بتقول جابت ولدين يا صلاح جابت توأم .

سارة وهى غاضة : قلتلها عاوزة بنت . . .

وهناك داخل منزل عم عبد الله الريفى المكون من طابقين وفناء خارجى واسع ، ويظهر عليه الاهتمام والنظافة كانت (سعاد) زوجة عبد الله ومعها والدة سارة في حجرة نومها وهى ترقد على السرير والطبيبة وممرضتها لم تبرحا الباب الخارجى للمنزل بعد .

والدة سارة بابتسامة رضا ويظهر عليها الإجهاد من خدمة سعاد ومساعدتها في الولادة وهى تمسك بأحد الصبيين والآخر بجوارها على السرير : ألف مبروك يا حبيبتى ربنا عوضك خير .

سعاد وهى راقدة تخرج الكلام بصعوبة : الله يبارك فيك ، والله من غيرك مكنتش عارفة أعمل إيه أنت أحن عليّ من أختى .

والدة سارة : أنت أختى يا سعاد ثم إن الدنيا لا تسعنى من الفرحة إن عوضك الله بصبرك خير ، فبعد عشر سنوات من ولادة صلاح ربنا يرضيك بولدين .

سعاد : الحمد لله ، هو لولاك والدكتور اللى أخذتينى له في مصر والعلاج ، مش عارفة أقولك إيه أنت فعلاً أغلى من أختى من أيام المدرسة الابتدائى وإحنا أصحاب وأنتى اللى جوزتينى أخوكى ، ربنا ما يحرمنى منك .

دخل عبد الله وخلفه صلاح وسارة: حمد الله على السلامة يا أم صلاح.

سارة: عاوزة أشوف النونو.

صلاح بحزم: هما لعبه؟ هم أطفال مثل أى أطفال، (تمهل وتلجلج في الحديث) ولكن ممكن أشوفهم؟

والدة سارة تقدمت إليهم بأحد الطفلين وهى مبتسمة: قولوا ما شاء الله.

سارة وهى تبتسم وتمد يدها عليه بحذر: الله جميل أوى يا ماما.. هنسميهم إيه؟

صلاح: أنا هسمي واحد فيهم حسين.

سارة مسرعة: والثانى حسن.

وتمر الأيام والشهور وتعود سارة إلى القاهرة مع أمها ويستمر صلاح في حياته مع أبيه ما بين المدرسة صباحاً والحقل آخر النهار يقطع عيدان الذرة والبرسيم لحيوانات الدار من الجاموستين والحمار ويشترى طلبات البيت لأمه إلى مذاكرته آخر اليوم.

وفى نهاية الأسبوع يكون مع أبيه في الورشة.

وفى إحدى الأيام وصلاح جالس على باب الورشة يقطع في بعض المخلفات البلاستيكية التى يستخدمها أبيه مرت سيارة مرسيدس فارهة

بسرعة من أمامه وكادت تدهس قدميه وهى تثير الغبار خلفها غير عابئ بالفلاحين أو الأطفال التى تمر في الطريق .

وإذا بأحد الفلاحين راكب حمارة يشيح بيده للسيارة : إيه براحة شوية اللى عطاك يعطينى .

صلاح بحدة وانزعاج لأبيه : من هذا يا أبى ، كان سيدهس رجلى .

عبد الله بضيق : معلش يا ابنى ، الحمد لله ، ده سامى بن مدكور العطار ، من بعد ما كان بيقف في دكانة أبوه يبيع بربع جنيه حلبة وزعتر وكمون ، أخذ شهادة الصيدلة من مصر وبقى صاحب صيدليلات هنا وهناك .

تلاقيه جاء يزور أباه أصله عيان من كام يوم ، لا أحد يراه من السنة للسنة .

صلاح : هو كل من يذهب لمصر ينجح كده يا أبى .

عبد الله : لا . . فقط الشاطر المجتهد ، وهو كان شاطر بس الكِبر بعيد عنك هو اللى مكره الناس فيه .

صلاح : بس كل اللى بيروح مصر بينجح بسرعة ، ماهى سارة أصغر منى بسنتين وبقت معى في نفس السنة الدراسية .

عبد الله وهو يضع يده على كتف صلاح ويربت عليها حتى لا يحزن : يا بنى سارة أبوها اشتغل في مصر ، وقدم لها في مدرسة لغات وهما يقبلون الأطفال صغار ، ولهذا هى حصلتك في المدرسة .

صلاح: بس هى شاطرة قوى في الانجليزى وأنا لا أخذ إنجليزى وكمان بتأخذ لغة ثانية اسمها ألمانى وأنا لا . . .

عبد الله وهو ينزل على ركبتيه ووجه مواجه لصلاح: أنت تقدر تكون أشطر منها، الحكاية مش بنوع المدرسة المهم التفوق كده كده هتأخدوا الابتدائية مثل بعض والاعدادية والثانوية إن شاء الله مفيش فرق المهم إنك تكون متفوقاً، سامى اللى أنت شوفته ده كان من مدرسة الابتدائية في الكفر هنا ومن مدرسة الثانوى اللى في المركز . .

شد حيلك وأنت تكون أشطر منها ثم أنت بتحفظ القرآن مع شيخ الجامع وأشطر منها فيه.

صلاح وهو يهمس في نفسه بإصرار طفل غريب: صحيح أنها بنت عمتى وأنا بحبها وبحب ألعب معاها بس هكون أشطر منها وأذاكر إنجليزى لوحدى من دلوقتى.

*****

٣
(سارة)

وفي أطراف حى الدقى في شقة بسيطة مكونة من غرفتين وصالة جميلة يظهر عليها اهتمام الأم من مفروشات جميلة إلى ستائر مزركشة إلى صالون ذي طراز قديم، كانت شقة والد سارة موظف البنك ابن قرية أولاد راضى الذى حصل على بكالوريوس التجارة، ونزح إلى القاهرة بعد جهد جهيد ومن جمعية إلى ادخار إلى سفر للخارج عدة سنوات استطاع أن يكون هذا البيت البسيط وسيارة صغيرة، وكأى أسرة مصرية مكافحة كان والد ووالدة سارة كل همهم هذين الطفلين، ليوضع كل دخلهم في إلحاق سارة وشقيقها بالمدرسة الألمانية والاهتمام بتغذيتهم ودراستهم وحياتهم البسيطة الهادئة.

ما بين المدرسة والنادى التابع للبنك الذى يعمل بها والدها وحفظ القرآن مع محفظتها في المنزل كانت حياة سارة، أما زيارة الصيف للبلدة والمكوث بها أشهر الإجازة كانت أجمل أيام سارة طوال العام، ولم يكن لها صديقة سوى جارتها وزميلتها في المدرسة رنا.

وتمر السنون وتبدأ الأيام في رسم ملامح الأنوثة على جسد سارة وها هى تدخل الصف الأول الثانوى، ليظهر جلياً جمال جسدها وأنوثتها وتتحول زيارة البلدة إلى طريق آخر.

فلا تكد تقع عينى صلاح عليها إلا ويتشرب وجهها بالحمرة، فلم تعد تستطيع أن تجلس أمامه على الحمار ويحتضنها بأحد ذراعية ويمسك بحبل

الحمار باليد الأخرى، ولم تعد تستطيع أن تلعب معه في الحقل فاختلفت الحياه قليلاً، ولم يسمح لها إلا بالجلوس فوق سطوح منزله في هواء الصيف ويشوى الذرة الذى يحضره خصيصًى لها.

ولكن لِمَ لا تمر الأيام كما كانت هادئة، فبدأت والدة سعاد تعانى من آلام الكلى، ومن طبيب لآخر حتى يصل الأمر إلى الغسيل الكلوى، وتجد سارة نفسها تتحمل جزءاً كبيراً من رعاية أسرتها بسبب مرض أمها، ولكن لم يمنعها هذا أبداً عن تفوقها الدراسى الذى تعودت عليه منذ نعومة أظافرها.

وتمر سنوات مر ض أمها صعبة وتصل سارة للصف الثالث الثانوى.

وفى ليلة من ليالى الشتاء البارد والمطر يتساقط بقوة كان شقيق محمد المصرى والد سارة والذى يعمل في السعودية منذ سنوات عائد من إجازته إلى مقر عمله في السعودية مرة أخرى.

محمود عم سارة: الجو انقلب بشكل كبير يا محمد، لا داعى أن توصلنى.

محمد: لا يجوز من أين سنجد تاكسى الآن.

محمود: سأطلب ليموزين لاتتعب نفسك أنت و تصطحبنى. . . فالمطر يتساقط بقوة.

محمد: لا تخاف ربنا يستر.

عماد: سأذهب معكم يا عمو.

محمود: لا يا ابَق أنت مع والدتك ربما تحتاج شيئاً.

عماد: سارة معها، ثم إنى سأساعدكم في جر الحقائب.

محمد: سنحتاجه يا محمود لا تكن قلقاً.

قام محمود بالاقتراب من والدة سارة وهى جالسة على كرسى الأنترية ويظهر عليها علامات المرض تحت عينيها وشحوبة وجهها: اعتنى بنفسك أم سارة، وإن شاء الله الإجازة القادمة تكونى أفضل.

والدة سارة: يارب يا محمود.

محمود: إذا احتجتى أى علاج أو أى شىء أبلغينى أرسله لكِ.

والدة سارة: شكراً يا محمود ربنا يخليك.

وانطلق الثلاثة بسيارة محمد إلى المطار.

وبعد ساعات قليلة وسارة تعتنى بأمها وتنظر ومن الشرفة إلى النافذة لم يتوقف قلبها عن القلق مع كل ضربة برق وصوت رعد ويرتعد كل جزء في جسدها، حتى أن رائحة المطر أصبحت تخترق صدرها بألم وتمر الدقائق كأنها ساعات وأمها تنام من أثر الأدوية، والتعب لا تعلم أنهم لم يعودوا حتى الآن ليخترق صوت جرس تليفون المنزل، سكون هذه الليلة الباردة.

ترفع سارة سماعة التليفون وهى مضطربة لتسمع أسوأ خبر سمعته بعد مرض أمها.

التليفون: هنا منزل محمد المصرى.

سارة: نعم هو.

التليفون: لقد وقع حادث كبير أرجو الحضور إلى المستشفى حالاً.

انطلقت سارة ووالدتها إلى المستشفى لتجد والدها و شقيقها في غرفة الجراحة.

ولم تمر الدقائق إلا وخبر وفاة والدها وشقيقها إثر انقلاب السيارة وهم عائدون من طريق المطار بسبب تساقط الأمطار الشديد واصطدامهم بسيارة نقل كبيرة.

ويمر كل شيء مظلماً و سريعاً.

الجيران حولها، عمتها، أصدقاء والدها في العمل، خالها يصل من البلد ومعه صلاح، كل شئيء سريع وكأنها تشاهد فيلماً.

وأصوات المعزين وهمساتهم: لا حول ولاقوة إلا بالله الراجل وابنه في يوم واحد، والست المريضة التى كنا ننتظر وفاتها هى الباقية.

والدة سارة لم تستطع حتى البكاء ولكن كانت كلمتها: إنا لله وإنا اليه راجعون، يا رب.

وتمر الشهور وسارة على حالها مع أمها فلم يعد لهم إلا بعض، تعتنى بها وتذهب بها للغسيل الكلوى، وتعود لتذاكر فكانت كلمة أمها التى تعلقها في أذنها كل يوم (مذاكرتك وشهادتك أهم شيء يا سارة أهم حتى منى أنا، فهذا مستقبلك وحياتك، وهذا هو عذائى الوحيد، لا تنسى أمل أبيك في أن تدخلى كلية الطب).

ومرت امتحانات الثانوية العامة على خير مع سارة، ولم تكد تنتهى سارة من امتحاناتها إلا وتجد والدتها تنهار صحتها بشكل سريع وينتقل إليها فيروس كبدى من أثر غسيل الكلى، ولم تكد تظهر نتائج الامتحانات حتى أنها أسلمت وجهها لله وآخر كلامتها لشقيقها عبد الله: خلى بالك من سارة يا عبد الله سارة أمانة في رقبتك، إياك أن تتركها لعمتها أو عمها.

وبعد مرور الساعات الصعبة والأيام القليلة بعد وفاة والدتها كان اجتماع العائلة في صالة شقة سارة ما بين عمتها وعمها الذى حضر من السعودية وخالها عبد الله.

وهى تجلس في الغرفة المجاورة تسمع حديثهم، وكأن كرابيج اليتم تقطعها، ودموعها لا تتوقف وهم يتفاوضون ويتهربون من يحمل همها، وكأنها عبء ثقيل يهرب منه الجميع.

محمود: أنت أولى بها يا منى أنت عمتها الوحيدة.

عمتها منى: لا أعرف ماذا أقول، لكن أنا عندى ولدان كبار، وزوجى أنت تعرفه وتعرف طباعه لن يتحملها ولا أستطيع أن أجعل فتاه في عمر الزهور وبهذا الجمال وسط ثلاثة رجال.

انفجر فيها محمود شقيقها: وماذا أفعل أنا، أنا لابد أن أعود لعملى في السعودية وهى ستدخل الجامعة، وولادى في المدارس هناك، وزوجتى مدرسة هناك، أترك بيتى وأسرتى وعملى لكى أجلس بها هنا.

استشاط عبد الله غضباً منهم، وقال لهم بصوت حازم: ليس لكم شأن بها، فسارة من اليوم ابنتى وسعاد كانت أكثر من أخت لأمها، ولن أترك لحمى لأحد.

محمود: أنت أيضاً لديك شاب في سنها.

عبد الله: ليست مشكلتكم ثم إن سارة وصلاح تربوا مع بعض وصلاح يخشى عليها أكثر من شقيقته.

لم تمر الليلة إلا وسارة تجر حقيبتها بيد وعبد الله خالها يمسكها باليد الأخرى لتخرج من بيتها في حى الدقى مودعة أيام هادئة جميلة، مودعة ذكريات أسرتها الصغيرة، فصوت ضحكات شقيقها تملأ الحجرات، ونشاط أمها التى تتجول بين أرجاء البيت لا ينسى، وعلى هذا الكرسى كان مقعد أبى يقرأ الجريدة ويشرب القهوة وهنا أجلس أنا أشاهد التلفاز وأصفف شعرى، خرجت إلى أيام مجهولة في طريق مظلم، وبرودة قاتلة.

هبطت درجات السلم وهبطت معها كل الأحلام الجميلة وذكريات الطفولة،

هنا كنا نجلس أنا ورنا على السلم.

وهنا يلعب عماد مع ابن الجيران.

وفى هذا المدخل نرسم(لعبة الأولى)على الأرض.

أسلمت سارة يدها الرقيقة الصغيرة إلى خالها عبد الله، ولم تجد إلا كفه الدافئ لتستمد منه الأمان.

عبر بها الطريق واستقل التاكسى إلى محطة الأتوبيس، لينطلق بهم عبر المحافظات والقرى إلى قريته والى بيته الصغير.

*****

(٤)
أيام الحب والأمل

خطت سارة بقدمها الصغيرة وخطوات رقيقة أو خطواتها داخل بيت خالها، ممسكة بحقيبتها في يدها خلفه، وهى خجلة، دقات قلبها تتصارع من التوتر، ليست هذه أول مرة تخطو بها داخل الدار، ولكنها أول مرة تخطوها وحيدة.

ولكن سرعان ما أقبلت إليها زوجة خالها الفلاحة الطيبة، لتحتضنها وتعذيها، وتشعر سارة معها بحنان غريب كانت تبحث عنه.

أشفقت سعاد على سارة، وأغدقت عليها بالحنان والحب، وسحبتها من يدها إلى الدور العلوى على السلالم الخشبية القديمة.

سعاد: تعالى تعالى شوفى حجرتك أنا فرحانه قوى أنك جيتى مع خالك.

سارة بابتسامة باهتة: شكراً يا طنط.

سعاد مبتسمة: تعالى تعالى شوفى هتقعدى في حجرة حسن وحسين، وجهزت لك سريراً جديداً، وهيا افتحى الحقيبة لنرص ملابسك في الدولاب سوياً.

سعاد وهى ترسم الابتسام على وجهها: أنا ليس لى ابنه يا سارة، وأنت ابنتى الآن فأنت لا تعلمى الحياه مع أربع ذكور شىء ممل وجاف، ليس لى بنت دلوعة كده تخفف عنى وتدلع أمها.

سارة: ربنا يخليكى يا طنط سعاد.

. . . .

مرت الليلة الأولى هادئة فتناولت عشاءها في حجرتها الجديدة مع زوجة خالها وطفليها حسن وحسين، ونامت بهدوء، ولم تلمح صورة صلاح حتى ولو بسلام باليد.

وفى الصباح استيقظت على صوت عالٍ في الأسفل.

فتحت عينيها وبنظرة سريعة على الحائط تجد الوقت قد تجاوز التاسعة صباحاً، خرجت من حجرتها نحو الصوت، وبخطوات بسيطة هبطت درجتين ثم تسمرت قدماها وجلست على السلم تسترق السمع.

. . .

صلاح: كيف يا أبى تأتى بها إلى هنا.

عبد الله بصوت حازم: هل كنت أنتظر أذناً منك.

صلاح بغضب وصوت عالٍ: أليس لى الحق أو رأى في هذا البيت حتى تحضرها دون أن تعلمنا.

سعاد: اخفض صوتك البنت ستسمعك، ثم أبوك كلمنى في التليفون وأخبرنى قبل أن يأتى بها.

صلاح: أريدها أن تسمع، فأنا لا أستطيع العيش معها في بيت واحد وغرفة مجاورة لغرفتى.

عبد الله بصوت عالٍ وعصبية: وما شأنك بها أنت ستذهب للجامعة وعلى الله نشوف مجموعً سيادتك سيكون كام، ثم ستعود للعمل في الورشة

أو الأرض منذ متى وأنت تجلس في البيت، وهى ستكون مع أمك وستدخل الجامعة هى كمان.

قل إنك خائف أن تأتى بمجموع أكبر منك، وتدخل كلية أفضل منك!

صلاح: أنا لا أستطيع تقبلها في البيت، حرام عليكم بقى.

عبد الله بصوت حازم: أنا لن أرمى لحمى يا صلاح، والبيت إن لم يسعكم أنتم الاثنين سأحتفظ بها هى، ولتنتقل أنت إلى مكان آخر فأنت أصبحت رجلاً لا أخاف عليك، لكن هى بنت وأخاف عليها.

صلاح: فليأخذها عمها أو عمتها.

عبد الله بصوت حازم: هى ليس هَم أو مصيبة كل منّا يلقيها على الآخر، إنها ابنة أختى الوحيدة، ويكفى ما هى فيه من حزن على أسرتها التى فقدتهم جميعاً في أقل من عام، ارحم يا بنى فهى تحتاج من يحتويها ويحنو عليها.

صلاح صعد مسرعاً إلى الدور العلو، وهو يشيح بيديه لوالده، ولا يعرف ماذا يقول، وإذا به يجدها جالسة بجوار التربزين على أول السلم فالتقت عينيهم لأول مرة منذ حضورها.. ليلمح الدموع تنمو في مقلتيها وتنسدل بهدوء على خدها، ونظرات عتاب مؤلمة صامته تخترق عينيه إلى قلبه في أقل من لحظة، فلم يستطع النظر إليها وأسرع إلى غرفته.

. . .

مرت الايام بطيئة وسارة دائماً صامتة تجلس في غرفة الأطفال على سريرها أو تقف في الشرفة صامتة، لم تر صلاح إلا مرات معدودة بدون حديث أو أى حوار بينهم، و لم تمر أيام حتى ظهرت النتيجة وكالعادة

كانت درجاتها أعلى من صلاح ببضع درجات، وكم كانت تتمنى سارة أن تستطيع الالتحاق بإحدى المدن الجامعية، ولكن رفض خالها تماماً هذا الأمر.

ولا تعرف سارة لسوء الحظ أم لحسنة فقد التحقت سارة بنفس الجامعة مع صلاح ونفس الكلية، ليجدا أنفسهم يأتى إليهم خطاب ترشيح لكلية الصيدلة لهم هم الاثنان في نفس اليوم، ورغم فرحة صلاح العارمة لتحقيق حلمه في الالتحاق بكلية الصيدلة كان حزن سارة لعدم استطاعتها دخول كلية الطب كما كانت تتمنى، ولكنها حمدت ربها أنها نجحت وسط كل هذه الظروف.

ولتبدأ عاصفة جديدة بينها وبين صلاح . . . . . .

فكان رفض صلاح عارم وغير مبرر لالتحاقهم هم الاثنان بنفس الكلية.

صلاح: بابا أرجوك اجعلها تحول إلى أى كلية أخرى.

عم عبد الله: هذا ليس من شأنى.

صلاح: لا يمكن أكون أنا وهى في نفس الكلية، اجعلها تحول كلية التربية هى مناسبة للبنات وفرص العمل بها جيدة.

عبد الله: حقيقى أنت وقح وقليل الأدب.

صلاح منفعل: أرجوك افهمنى سيكون المقارنة بيننا في كل شىء ولو عرف زملاؤنا بأننا أقارب فهذه مشكل في حد ذاته.

عبد الله: أنا لا أرى مشكلة إلا في عقلك، بدل أن تقول الحمد لله سندخل كلية واحدة وسأعتنى بها ونساعد بعضا.

صلاح بانفعال: هذا هو قصدى لا أريد مساعدة منها، ولا أريد أن أكون مسؤولاً عنها أو أن يقارن بيننا أحد، وكيف سنذهب في نفس المواعيد ونعود في نفس المواعيد.

عبد الله بغضب: تظاهر بأنك لا تعرفها.

فاذا بصلاح يقسم بأنه لو عرف أحد من أصدقائه أنها قريبته أو أنهم يعيشون في نفس البيت فلن يذهب إلى الكلية مرة أخرى.

وبالفعل وافقت سارة على ألا يعرف أحد أنها ابنة عمته بل أنها لن تلقى عليه حتى السلام في الكلية ولا أن تخرج معه من البيت في وقت واحد، ولا حتى تركب نفس سيارة الأجرة التى توصلة لموقف الأتوبيس الذى يقلهم للجامعة، وكم آلمها وأحزنها تصرفات صلاح الغير مبررة، والتى لم تكن يوما تتوقعها، ولكن لم يكن أمامها إلا الموافقة.

مرت الأيام صعبة على سارة التى لم تكن تملك إلا معاشها يقبضة خالها، كل شهر ويعطيه لها في يدها، وتحاول أن تتدبر أمورها في الكتب والملازم والملابس والدروس.

ومع أول أيام الدراسة يبدأ سباق بالوقت والدقيقة فتتجهز سارة وتظل تنظر من النافذة حتى يخرج صلاح ثم تنتظر عشر دقائق تحسب بالثانية وهى تنظر في ساعة يدها لتنطلق بعده إلى محطة الأتوبيس، ولا تستقل الأتوبيس حتى تتأكد من أنه ليس على المحطة ثم تركب ولا تجلس بجانبه في المحاضرة، وفى العودة نفس الطريق، ليعود هو على والده في الورشة وهى إلى البيت تساعد زوجة خالها، وهو يجلس مع والده حتى يغلق الورشة أو يذهب إلى الغيط لقطع بعض الخضروات للماشية.

وسرعان ما تأقلمت سارة مع حياتها الجديدة رغم صعوبتها بالنسبة لفتاة لم يكن في عالمها إلا المدرسة والنادى والبيت لتحاول بروحها الطيبة الممتلئة حب مثل أمها فخورة بأنها من أصل ريفى، للتأقلم وتتعلم فنون الحياه هناك فتساعد زوجة خالها في تربية الطيور وصناعة منتجات الألبان حتى إنها أتقنت الكثير من هذه الأمور، وادخرت من معاشها لتشترى ماعز صغيرة تربيها لتلد ماعز صغيرة أخرى لكى تدر ربحاً عليها، اشترت فراخ البط والأوز الصغيرة ليمتلئ البيت بالخير من يد سارة.

و كانت تلهو معهم وتهتم بهم فكان يخفف عنها شعورها بالحزن والوحدة.

أما حسن وحسين فكانت سارة بالنسبة لهما أيقونة اللعب والمرح والقصص الجميلة التى تشتريها لهم من المعاش، وتجلس بجوارهما ليرسموا سويًّا ويلعبوا معها ألعاباً مسلية ورسومات وقصصاً وكانت تساعدهما في الدراسة.

كانت سعاد تنظر إلى سارة وتجولها في المنزل بين الطفلين لتبتسم بهذا الملاك الذى ملأ عليها البيت بهجة وجدد الحياة في البيت بطعم جميل.

أما صلاح فكان أمره عجيب، كل يوم يزداد بعداً وعناداً فلايجلس معها أو يتحدث معها، ويتجنب أى مكان تكون هى به، فقررت في نفسها أن تتجنبه هى أكثر منه.

كثيراً ما كانت تخرج إلى السطوح لتضع الطعام للطيور أو نشر الغسيل وهو يذاكر فإذا به ينصرف فوراً ولا يحاول أبداً أن يكون في مكان واحد معها بل إنه لا يأكل معها على مائدة واحدة بل يأكل مع والده أو وحده وسارة

تأكل مع زوجة خالها والأطفال إلا في رمضان أو بعض المناسبات فيتجنب الجلوس أو النظر إليها بل يتعمد البعد عنها .

لم يكن نظر صلاح يقع عليها إلا ويعقد وجهه في وجهها كأنه يخاف أن يبتسم في وجهها وتمسك به متلبساً .

. . . . . .

ومع هذه التصرفات الغريبة من صلاح معها كان هناك صراع آخر مع نفسه فلم يكن صلاح يساعد سارة في أى دراسة بل يأخذ بعض الدروس الخصوصية وهى تخجل أن تسأل خالها عليها ولكنه يحضر لها المذكرات والملخصات ويعطيها لها دون أن تسأله بأن يتركها في حجرتها المجاورة لحجرته بدون أن ينطق بأى كلمة .

كم من المرات يخرج للذهاب للكلية وتكون خلفه فيعطل الأتوبيس أو يوقفه لكى تحصله مخافة أن تتأخر وتضيع عليها المحاضرة ولكن دون أن يلفت نظرها أو يقول لها شيئاً .

وكم كانت تجلس تذاكر في شرفة حجرتها مساءً فيطل من شرفة حجرته يرمقها بنظرات من خلفها دون أن تشعر به ، وفى إحدى المرات رأته في الباب الزجاجى للشرفة ينظر إليها في صمت وتلصص دون أن تلاحظه وقف لمدة طويلة تظاهرت بعدم رؤيته لكنها تبسمت في نفسها فكان هذا يعنى لها الكثير .

وكم من المرات وهى في حديقة المنزل تضع صغار الماعز في حجرها ومنسدل شعرها البنى المجدول ضفيرة خلف ظهرها ، وتلعب معهم

وتتحسسهم كطفلة صغير تجده يرقبها بابتسامة صامتة وعندما ترفع رأسها للخلف لتكتشف أمره يغير ملامحه سريعاً وينصرف للداخل .

رغم أن سارة تربت في القاهرة إلا أنها بذكائها تكيفت مع الريف بعد اضطرارها للعيش فيه ، ولم تعد ترتدى البنطلونات الضيقة أو تترك شعرها بل أصبحت ملتزمة في ملابسها مثلما أمرتها زوجة خالها وتضع إيشارب صغير على رأسها وهى ذاهبة للكلية .

وفى إجازة أول صيف بعد عام دراسى طويل ونجاح بتفوق كما تعودت بدأت تتعلم مهارات أخرى في حياة الريف فبدأت تتعلم كيف تجلس أمام الفرن ، وكيف تطبخ الطعام الريفى .

سعاد وهى جالسة بجوار الفرن في ساحة البيت الخارجية وأمامها العجين وحسن وحسين يلهوان حولهم أجلست سارة أمام الفرن : خلى بالك ألا يحترق وامسكى (بالمطرحة) من الخلف يد في الأمام والأخرى خلف حتى تتحكمى بها ولا تحترق يدك .

سارة : حاضر طنط .

حسن ضاحكاً وهو يقفز : هاها الرغيف اطلخبط الرغيف اطلخبط .

حسين ضاحكاً : قرمشية قوى يا سارة وأنا هاكلو انا هاكلو .

سارة : أنا أسفة يا طنط .

سعاد : ولا يهمك مرة ومرة ستكونى ماهرة ، أمك كانت أشطر واحدة في الخبيز .

وبدأت سارة تضع رغيفاً آخر وجاء مضبوط : الحمد لله .

وهنا دخل صلاح عليهم عائداً من الورشة فعقد وجهه وغضب بشدة وصاح: ما هذا؟ ماذا تفعلين، قومى من أمام الفرن قومى.

اضربت سارة وشعرت بالإحراج.

سعاد: ما الأمر يا بنى.

صلاح باضراب وتلجلج: لو هى اللى خبزت مش هأكل منه مفهوم.

سمعت سارة كلامه فدخلت للدار مسرعة وهى غاضبة حتى إنها دمعت عيناها.

وجلس هو بنفسة أمام الفرن وبدأ يساعد أمه.

سعاد: لماذا يا ولدى تحرجها هكذا.

صلاح: منذ متى وهى تخبز معك، طوال عمرى أنا الذى أساعدك، لا تعلميها مثل هذه الأمور مرة أخرى.

ورغم غضب سارة من موقفة الغير مفهوم إلا أنها كانت تشعر أن هناك خطباً ما معه، فلماذا يغضب كل هذا الغضب وينهرها أمام والدته بهذا الشكل.

وبعد أن أتمت سن الرشد وألغيت وصاية خالها عنها وأصبحت تستلم معاشاها بيدها لأول مرة.

فاذا بها مع أول مبلغ تستلمه وحدها تشترتى لكل فرد منهم هدية، واشترت لصلاح تيشيرتاً جديداً ولخالها كوفية ولزوجته طرحة وللطفلين كلاً منهما لعبة

وكان حلم حسن وحسين هى صينية البسبوسة وأكواب الجيلى التى تصنعها لهم كل أول قبض من معاشها الخاص.

. . . . . .

وفى إحدى الأيام ووسعاد تساعد في تجهيز فرح ابنة الجيران اصطحبتها سعاد لتهنئة العروس والمساعده في إعداد وليمة العرس.

أم العروسة: ما شاء الله عليها يا سعاد والله ربنا عوض صبرك خيراً وأعطاك عروسة على الجاهز.

سعاد وهى تقلب في الدقيق في وعاء كبير أمامها: دى شاطرة ماشاء الله وبتتعلم كل حاجة بسرعة.

أم العروسة: عريسها عندى إن شاء الله يا أم صلاح.

جلست سارة بجانب سعاد وبدأت تساعدها في عمل الكسكسى الخاص بالفرح، ورغم الكمية الكبيرة إلا أنها أظهرت مهارة بالغة.

أم العروسة: واتعلمتى عمايل الكسكى من خالتك سعاد.

سارة: وماما أيضاً كانت تصنعه لنا في مصر وأساعدها فيه.

وانتهى العرس، وعادة سارة وسعاد وحسن وحسين من الفرح ومحملين بالكثير من الطعام وجلسوا جميعاً يأكلون وخالها وصلاح يمدحون في الطعام.

عبد الله: حلو قوى الفطير والكسكى زى العسل.

صلاح: الكسكى ناعم وطعمه جميل يا أمى تسلم إيديك.

سعاد: سارة هى التى صنعته بيدها لقد تعبت جدًّا، ربنا يبارك فيها عقبال ما نتعب في فرحها.

فإذا بصلاح وهو يأكل يضع الملعقة على الطبق بهدوء ويترك باقى الطعام وينهض.

غضبت سارة وظهر على ملامحها حتى بدأت الدموع في عينيها: قلتى له ليه يا طنط؟ كنت تركتية يكمل أكل، هاهو ترك الطعام عندما علم بأنى من صنعه.

عبد الله مبتسماً ومداعباً لها: ولد ليس لديه ذوق هو اللى خسران ولا تزعلى أبداً أنا سأكل طبقى وطبقة.

سعاد: حقك عليّ يا بنتى.

وبدأ العام الدراسى الجديد وهم على نفس النظام ونفس الترتيب بألا يعلم أحد عنهما شيئاً، وفى إحدى الأيام الأولى للدراسة ركبت سارة الأتوبيس وكان مزدحماً للغاية وصلاح قد سبقها كعادته فإذا بأحد الركاب يتحرش بها، وهى تحاول الابتعاد وهو خلفها، وصلاح ينظر إليها وعيناه لم تسقط عنها حتى استشاط غضباً فوجدته ينتفض من كرسية وسحبها من أول الأتوبيس ليجلسها مكانه وظل محيطاً بها بذراعيه حتى وصلا إلى الكلية وبمجرد نزولهم من الأتوبيس فإذا به ينفجر بها في الشارع: إياك أن تركبى الأتوبيس وهو مزدحم بهذا الشكل مرة أخرى، هل فهمتى؟

سارة بغضب: ما هو كل يوم مزدحم.

صلاح بغضب: لا أريد كلاماً كثيراً، وإلا سأقول لأبى أنـك لا تـذهبى للكلية نهائياً.

سارة: ما هذا التحكم! إيه لعبة أنا لاتذهبى للكلية.

صلاح مشوح بيده: تفضلى سنتأخر.

تعجبت سارة من صراخه بها في الشارع ولكنها كانـت دائمـاً تـوقن أنـه مهتم بها ولكن بطريقته الخاصة.

*****

(٥)
الجامعة

وفي رحاب الكلية كانت شيرين تلك الفتاه الجميلة الثرية، ابنة رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب مثل قطعة الثريا وسط كومة زجاج مغشوش، فدائماً هى متأنقة وجميلة وتتحدث بكبرياء، ويحوم حولها الشباب ورغم فشلها الدراسى وإخفاقها في العام الدراسى الثانى وإعادتها للسنة إلا أنها كانت دائماً محط أنظار الجميع ويودون خدمتها بأى شكل.

ولم يكن لشيرين إلا أن تلهو مع هذا قليلاً وتتحدث مع ذاك قليلاً، وتستفيد من محاضرات هذا وملخصات من تلك دون أن يحصل أى أحد منها سوى على ابتسامة وضحكة أحياناً. أو خدمة يكون يطمع بها من والدها.

ومع حديث الفتيات وحوم الشباب حولها رمقت بعينيها ونظرتها الثاقبة صلاحاً، ذلك الشاب الوسيم ذو الملامح الريفية الهادئة الذى لم يحاول مرة أن يتقرب منها أو يحادثها مثلما يفعل باقى الشباب مما لفت نظرها إليه أكثر، وحديث بعض الزميلات أنه من أشطر الطلاب الملازم للدراسة والمحاضرات، ويستطيع أن يساعدها في المواد التى رسبت فيها من قبل.

ولم تضيع شرين الكثير من الوقت بل بمنتهى البساطة خططت للتعرف عليه.

وفى ركن الحديقة كان يجلس صلاح مع أحد الزملاء على الأريكة الخشبية، ويراجع معه ملزمة هامة، ويشرح له باقتدار وهدوء وأمانة وإذا بشرين تقترب منه.

شرين بابتسامة فتاه شقية وهى تنحنى بهدوء بالقرب من صلاح: صباح الخير.

انتفض الزميل المجاور لصلاح: صباح الفل اتفضلى يا آنسة شرين.

ورفع صلاح وجهه باتجاهها وهو متفاجئ من الأمر: صباح النور.

شرين موجهة حديثها لصلاح وهى تجلس بجواره: هل ينفع تشرح لى أنا كمان.

صلاح بارتباك وهو يبتعد عنها قليلاً حتى كاد أن يقع من الأريكة: آه طبعاً طبعاً عاوزة تسألى في إيه.

شيرين بضحكة: كله كله، أنا مش عارفة حاجة خالص في المادة دى، ونزلت فيها السنة اللى فاتت وعاوزاك تشرح لى أذاكرها إزاى.

لم يستغرق أمر صلاح كثيراً في يد شيرين، ولم يعد يمر يوم إلا ويجلس معها للمذاكر لها، ولا يمر ليلة إلا وهو يبيت يبيض لها المحاضرات، ويجهز لها الملخصات، ليسهل لها المذاكرة حتى أصبح يفكر بها ليل نهار، وأصبحت صورة شيرين تختلط كثيراً في ذهنه مع صورة سارة.

لم يخفَ الأمر على عينى سارة التى كانت ترقب الامر من بعيد.

فما بين جلوسهم في الكافتريا والحديقة وأحيانًا تراه يخرج معها خارج الكلية ليجلسوا في الكافتريا المقابلة للجامعة إلى مذاكرته طوال الليل وتجهيزه للملخصات لها.

وفى إحدى الليالى خرج صلاح من البيت ورمقته بعينها من الشرفة فتسللت بهدوء إلى غرفته لتبحث وسط أوراقة على المكتب، لتجد ملخصاته التى يجهزها لها.

فشعرت سارة بألم وهى ترقب تصرفاته وانجرافه ناحية شيرين، ولكن لم يكن بيدها شيء تفعلة.

وكم بكت في ليلها لتسقى وسادتها دموع قلقها وغيرتها حتى كادت تنفجر به، ولكن كانت دائًما تمنعها كرامتها وكبرياؤها، فما كان يزيدها الأمر إلا إصراراً أن تكون متفوقة عنه وتدرس أكثر وأكثر.

وفى أحد الأيام كانت تجلس على الأرض لتصفف زوجة خالها لها شعرها وتجدل لها ضفيرتها الطويلة.

فوجدت صلاحاً يرمقها من فوق السلم بعينين صامتتين، وعندما استدارت ووقعت عيناها عليه استدار وغير ملامحه وصعد مسرعاً إلى الأعلى.

جلس صلاح على سريره ووضع رأسه بين ركبتيه ويديه فوقها وصورة شيرين تلاحق صورة سارة وهمس متسائلاً مع نفسه.

ما هذا الذى أنا فيه، ولما التفكير في كل هذه الأشياء أين أنا من هذه أو تلك، ولكن شيرين تتقرب إلى وتشعرنى بأنها معجبة بى، وفى نفس الوقت أنا لا أستطيع أن أصارحها حتى بإعجابى بها.

وهل أنا أكن لها مشاعر فعلاً أم أنه مجرد إعجاب بفتاة مختلفة؟

وهل أنا ما زلت أحب سارة أم أن الأمور كلها أصبحت دوامة بالنسبة لى!

وكانت أجمل لحظاتهم عندما يلتفون في الشتاء حول أمهم وهى تشوى لهم البطاطا على الفحم أو هم يلتفون حول وجبة محشى ساخنة مع خالها وأطفاله.

ورغم الحزن المرتسم في قلب وعيني سارة منذ فقدها لأسرتها إلا أن دفء أسرة خالها ملء عليها حياتها.

وكل عدة أشهر عندما يحصد خالها محصول الأرض يناديها ليعطيها حقها في المحصول، فما كان منها إلا أن تأخذ القليل لتستخدمه في الدراسة أو تشترى بعض الملابس، وتترك الباقى لخالها، وتقول له إن البيت يحتاج لهذه المصاريف، وأنها لا تحتاج أكثر من ذلك، وأن المعاش يكفيها، فما كان من زوجة خالها إلا أن تشترى لها بعض متعلقات الجهاز من مفروشات وأوانٍ وتقول لها إنك ابنتى، ولابد أن أجهزك من الآن.

ومرت الأيام وبالقرب من نهاية العام الدراسى، وجدت سارة الاضطراب في عينى صلاح والتوتر في علاقته في الجامعة بل كان يشوبه الكثير من الصمت والعيون القلقة.

حتى تحسست الأخبار من احد زملاء صلاح.

سارة منادية على أحد الشباب في الحديقة الخارجية للجامعة: حمدى صباح الخير.

حمدى: أهلا سارة، صباح النور.

سارة: أين شيرين لم أعد أراها منذ فترة.

حمدى: نعم فهى لا تحضر كثيراً هذه الأيام.

سارة: خير هل هناك مشكلة.

حمدى: أول مرة أعرف أنكم أصدقاء، لماذا تسألى عنها.

سارة بارتباك: لا أبداً أنا فقط أسال لأنى لم أعد أرها في الكلية رغم اقتراب الامتحانات.

حمدى بضحك: وهل هذه تنتظر شهادة أو محتاجة وظيفة، أبوها عنده مصنع أدوية يشغلنا جميعاً، الشهادة بالنسبة لها شكل اجتماعى لا أكثر، على العموم أنا سمعت أنها اتخطبت، واحتمال تتزوج بعد الامتحانات مباشرة.

سارة كادت ترقص فرحاً وحاولت أن تدارى فرحها: صحيح طب ألف مبروك.

ورغم سعادتها بالخبر إلا أنه آلمها كثيراً حال صلاح، فهل كان فعلاً يحبها أو يكن مشاعر لها لدرجة أن تترك به هذا الآلم؟

ولم تنته الامتحانات وتظهر النتيجة حتى علمت سارة بزواج شيرين ورسوبها في الامتحانات.

ومع مرور الأيام وسارة لا تدخر جهداً في معاونة زوجة خالها في أمور الحياة، وفى إحدى الليالى زوجة خالها مفترشة الأرض وأمامها الرحاية التقليدية القديمة تطحن فريكاً أخضر.

سارة: ممكن أساعدك يا طنط.

سعاد: تعالى يا سارة.

وبدأت في تلقينها كيف تطحن بحرص وألا تصاب بأذى، وحسن وحسين يضحكون ويلعبون حولها بوضع القمح لها ويعلقون عليها بالمداعبة، وإذا بصلاح يدخل عليهم،

صلاح بغضب: ماذا تفعلين.

سعاد: في إيه يا بنى؟ نطحن فريك.

صلاح بعنف وعصبية لسارة: انهضى من هنا فوراً، أنا هكمل الطحن

انتفضت سارة غاضبة وخرجت إلى حوش البيت من حجرة سعاد، وجلست على الكنبة بجوار شباك الحجرة وربطت ذراعيها على صدرها غاضبة وتسأل نفسها، لماذا يتصرف هكذا؟ولا يطيق أن أفعل شيء في البيت؟ ولا يطيقنى؟ وإذا بها تسمع أغرب تبرير في حياتها.

سعاد : ماذا حدث يا بنى لماذا تتصرف هكذا؟ البنت تساعدنى !

صلاح وهو جالس على الأرض يطحن أمام أمه بعتاب : حرام عليك يا أمى لقد قلت لك أكثر من مرة لا تعرضيها لكل هذه المشقة ، إنها لم تربى على هذا من عمل كسكى إلى الكعك وخبيز العيش وحليب الماشية والطحين أيضاً ! ألا يكفى أنها تساعدك في الطبيخ والغسيل ! يا أمى لو كانت في مصر لم تكن حياتها إلا ما بين النادى والمكتبة والمذاكرة فقط لا غير ، لا تهينيها أكثر من ذلك يا أمى حرام إنها يتيمة وأمانة في رقبتنا .

سعاد بعتاب له : ومن أجل أنها أمانة ويتيمة في رقبتى لابد أن أعلمها كل شىء ، يا بنى حياتها تغيرت ولا أحد يعلم أين نصيبها فربما تتزوج وتعيش في الريف لباقى حياتها ، ولابد أن أعلمها كل شيئاً .

لم تصدق سارة أذنيها ألهذا كان يرفض أن أصنع أى شىء في البيت ولا يأكل منه ، إلى هذه الدرجة يخاف على وعلى مشاعرى .

ومرت الأيام ووصلت سارة للصف الثالث ، وفى إحدى أيام امتحانات العملى تصاب سارة بارتفاع شديد في درجة الحرارة واحتقان في الحلق ولم تعد تستطيع المذاكرة أو حتى الذهاب في اليوم التالى للامتحان ، وإذا بصلاح ينطلق دون أن يقول أى شىء لأحد ليحضر لها حقن وأدوية ويدخل عليها حجرتها وهى ممدة على السرير .

صلاح بصوت جاف : هيا انهضى لتأخذى العلاج .

سارة بصوت يخرج بصعوبة : أى علاج لقد شربت ليموناً ساخناً وسأرسل حسن يشترى لى مخفضاً .

صلاح ممسك بكوب الماء من جوارها : هيا انهضى واشربى هذا .

وأخرج من الكيس علبة الحبوب ، أعطاها واحدة ، ونادى على حسن .

صلاح : حسن نادى على أمى لكى تصعد إلى هنا .

وصعدت سعاد وهى تقول : ما الأمر هى عاملة اية دلوقتى؟

صلاح يخرج حقنة وسرنجة من الكيس ويجهزها في لحظات : كونى معى يا أمى أريد أن أعطيها هذه الحقنة حتى تفيق سريعاً .

وبالفعل بدات تنخفض حرارتها ، و لأول مرة يظل بجانبها يذاكر بصوت عال ويراجع معها أهم الأسئلة والنقاط حتى أن أمه لم تكن تصدق نفسها مما ترىً كيف له أن يهتم بها ويذاكر لها وهى مريضة هكذا؟

وبعد نهاية الصف والامتحانات وجدت سارة زوجة خالها تحدثها عن أن أحد أقارب جارتهم يبحث عن عروس وأن جارتهم رشحتها له .

ورغم صمت سارة إلا أنها شعرت من حديث زوجة خالها بالموافقة والترحيب للأمر ، فما كان منها إلا الموافقة على مبدأ رؤية العريس .

مر كل شىء سريعاً حضر العريس . . مدرس عائد من الخليج ويرغب في الخطبة على أن يتمم الزواج في العام القادم في إجازته السنوية ثم يتركها تكمل دراستها للعام المتبقى .

فلم تشعر سارة بأى فرحة فالأمر لم يستغرق سوى أيام ، وكل شىء مر سريعاً ، فالعريس جاهز يريد أن يخطبها ليعود إلى عملة في الخليج بعد شهر ، وقدم إليها الشبكة مع مباركة خالها ، ورغم صمت سارة ووجومها وصمت

صلاح إلا أن عينيه كانت تقول الكثير، فحاول الابتعاد عن البيت طوال فترة التجهيز لحفل الخطبة، ولولا إلحاح أبيه في أنه لابد أن يكون موجوداً في الحفل العائلى فما كان حضر، و حضر وكأنه ليس موجوداً فعينيه كانت تقول الكثير، ولكنه اكتفى بالنظر إليها صامتاً واجماً وهو يراها جميلة وأنيقة في ثوب الخطبة وزينتها حتى شعر كأنه أمام فتاه قادمة من حلم بعيد.

مر أسبوعان بعد الخطبة وهى واجمة لا تتحدث كثيراً، يكسو وجهها الاصفرار، فقدت شهيتها للأكل، تدمع عينيها كثيراً وصلاح دائم الصمت يرقبها من شرفة البيت وهى في الحديقة تطعم الحيوانات، لم تعد تلعب معهم أو تضحك.

كانت عينا أمه ترقبهم من بعيد، ولكن لم يستطع لسانها أن ينطق سوى أن اشتكت إلى زوجها: البنت من ساعة خطبتها ذابلة، ليست فرحانة وعندما يأتى العريس تقابله رغماً عنها.

فكان جواب خالها: أنا لم أغصبها على شيء لو كانت رفضت لم أكن لأغصبها ولو عاوزة تتركه لن أغصبها على شيء، تحدثى معها بهدوء واجعليها تصارحك وتصدقك القول.

لم يمر سوى أسابيع قليلة على الخطبة وفى إحدى زيارات العريس حضر مبكراً فلم يكن عبد الله موجوداً فرحبت به سعاد وأجلسته في غرفت الزيارات

وكنوع من الترحيب طلبت زوجة خالها من صلاح أن يجلس مع الرجل ويرحب به لعدم وجود والده، وبالفعل جلس معه على مضض.

ودخلت سارة فوجدتهم الاثنين معاً، ارتبكت قليلاً ولكنها جلست على الكرسى الجانبى.

سارة: أهلاً كيف حالك؟

العريس: أهلا بك كيف حالك؟

العريس موجها حديثة لصلاح: وأنت بقى في الجامعة؟

صلاح بإجابة مقتضبة: نعم.

العريس وهو يهز رأسة: في أى كلية؟

صلاح: صيدلة.

العريس تغيرت ملامحة وجهه: في أى سنة؟

صلاح بابتسامة باهته: ثالثة.

العريس بتعجب: يعنى أنت مع سارة! أنت نفس السن، ونفس الجامعة ونفس الكلية!

صلاح باستغراب: لا أنا أكبر منها بعامين، هل هناك مشكلة؟

العريس مستفسراً: أنا لم أرك من قبل في البيت، هل تعيش في مكان آخر؟

سارة باستغراب: لا هو يعيش هنا، بس بيكون في الورشة أو الغيط.. عادى يعنى.

العريس نهض مسرعاً وبارتباك وغضب: طب فرصة سعيدة يا أستاذ صلاح، هبقى اتصل بكى يا سارة بعدين.

وخرج مسرعاً ولم تمر ساعات حتى استشاط غضباً وأرسل إلى قريبته والتى هى واسطة الزواج في أن تعفيه من هذه الخطبة وتعيد إليه شبكته .

فوجئ خالها بالأمر فنادى على سارة وصلاح .

خالها : ما الذى حدث مع العريس بالأمس .

سارة : لم يحدث شيء ، فقد حضر وجلست معه أنا وصلاح وقدمنا له المشروب ، وتناول الحديث مع صلاح ومعى عن الكلية والدراسة ، كلام عادى يعنى .

عبد الله : اخلعى دبلتك و(الغويشتين) لأن العريس يريد هداياه ويفسخ الخطبة ، فالعريس غضب عندما عرف أن لها ابن خال يعيش معها في البيت وأنه يدرس معها في نفس الكلية .

خلعت سارة الشبكة على الفور وهى تشعر أنها تخلع قيد يدمى كفيها ، وكادت عينيى صلاح ترقص فرحاً ولولا الخجل لقفز في حض أبيه يقبله .

مرت الشهور كعادتها واشتدت حدة المذاكره لهما هما الاثنان وفى ليلة شتوية وهى عائدة من الجامعة في جو عاصف ممطر بشدة ولم يكن يوجد سوى أتوبيس واحد استقلاه سويًا ونزلا سويًا لتزداد حدة المطر بقوة وسارة لم يكن معها مظلة أو حتى ترتدى ملابس شتوية سميكة فوقفت على الرصيف بعيداً عن المطر تنتظر أن يهدأ قليلاً .

صلاح كانت معه مظلة ويرتدى جاكيت جلد ، ظل يرقبها من خلفها ولم يتركها ويمشى وحده كما تعود بل ظل يرقبها من قريب حتى تتحرك وعندما زادت حدة المطر وتأخر الوقت وبدأت هى تمشى تحت المطر اقترب

منها، وخلع الجاكيت ووضعه عليها من الخلف بهدوء شديد وهى ترتعد، ووضع المظلة فوق رأسها وأمسك بيدها لتمسك المظلة وقال لها بصوت خافت: هيا اسرعى وامشى خلفى سريعاً فالوقت متأخر، ولا يوجد أحد في الشارع.

وبالفعل ظلت خلفة والمطر يهطل علية ودفء الجاكيت الخاص به يحتضنها وهى ممسكة به كأنه حضنه يدفئها من برد هذه الليلة الشتوية القاسية، وفى هذه اللحظات كم شعرت سارة باهتمامه بها وملء صدرها عطر الشتاء لترتسم في ذهنها لحظات جميلة تحت المطر.

حتى وصل للبيت غارقاً في المياه وهى خلفة.

مرت الأيام ووصلوا الاثنان إلى الصف الرابع ومعظم وجودهما في الجامعة، وفى أحدى الأيام خرجت سارة إلى الجامعة في موعد مبكر عن موعد صلاح، وإذا به تجده يبحث عنها حتى وصل إليها في المعمل فنادى عليها من بعيد بإشارات حتى لا يراه أحد من الزملاء وذهبت إليه متخفية.

سارة: ما الأمر؟

صلاح: إن زوج خالتى توفاه الله وأمى سافرت بعد خروجك مباشراً وأبى سافر معها وأخذ إخوتى، أنا أغلقت البيت، خذى المفتاح ولا تتأخرى، أنا سأحصلك سريعاً.

سارة: شكراً لن اتأخر، حاضر.

لم يلحظا الاثنان أن هناك أحد زملائهم (طارق) سمعهم ورآه وهو يعطيها المفتاح فما كان منه إلا الظن السىء فهرع إلى أصدقائه الآخرين

وحكى لهم ما سمع، فما كان منهم إلا أن قرروا أن يوقعوا بصلاح زميلهم وزميلتهم سارة ويحاولوا كشف أمرهما.

افتعل الأصدقاء موقفاً بأنهم يرغبون في المذاكرة مع صلاح وأنهم يريدون أن يتعشوا معه.

طارق: صلاح كيف حالك صباح الخير يا دكتور.

صلاح: صباح النور.

أيمن: عامل إيه في المذاكرة.

صلاح: عادى.

أيمن ضاحكاً: عادى وآخر التيرم تجيب امتياز.

طارق: إحنا هنيجى نذاكر معاك الليلة ونقعد للصبح أنا معى ملزمة هامة، وأنت شاطر في الشرح، ونديها للصبح يا معلم.

صلاح يحاول التملص من الموقف: إن والدتى ليست في المنزل.

طارق: هايل إن هذا شيئاً جيداً جداً أنه لا يوجد أحد في المنزل، نذاكر على راحتنا ونشترى أكل ونجلس حتى الفجر.

كان صلاح في موقف لا يحمد عليه فقد احرجوه وصمموا أن يذهبوا معه للبيت.

لم يعرف صلاح ماذا يفعل سوى أنه اصطحبهم، وكله خوف أن يروا سارة، وعلى بابا البيت كان مرتبكاً لا يعرف ماذا يفعل سوى أنه فتح الباب وهم خلفه وأحدث ضجة كبيرة حتى تسمعه سارة وتعرف أن معه أحداً.

أدركت سارة الموقف، وكانت في الدور العلوى فلم تتحرك من حجرتها حتى وجدته أمامها.

صلاح بارتباك: سارة إن أصدقائى طارق وأيمن ويوسف حضروا معى، لم أعرف كيف أتصرف لا تحدثى أى صوت وأنا سأحاول أن أصرفهم سريعاً، ظلى في حجرتك هنا.

سارة بغيظ: كيف توافق وتأتى بهم إلى هنا.

صلاح بتوتر: قلت لك أحرجت.

ظلت سارة حبيسة الغرفة لمدة ساعتين لا تعرف حتى أن تذهب للحمام، وهم يذاكرون في الأسفل ويحاولون أن يتلصصوا في المكان بشتى الطرق.

طارق: أليس عندك شيء نأكله؟

صلاح: ألم أحضر لكم سندوتشات؟ هل لحقك الجوع؟

أيمن: ألا يوجد بيبسى عصير أيه؟ يا أخى الفقر ده.

صلاح: عملت لكم شاياً.

يوسف: اشترى لنا بيبسى وبعض المشروبات يا صلاح.

صلاح: خذ فلوساً واخرج أنت اشترى.

طارق: تصدق عيب أنت صاحب البيت وإحنا اللى نشترى، اخرج اشترى لنا العصير، هيا والبيبسى بسرعة ثم إحنا لا نعرف المحلات هنا.

صلاح: سأصنع لكم شاياً أو ليموناً، كما تحبون.

يوسف : حقيقى أنت غلس أليس معك نقود أنا معى خذ .

صلاح : بطل أنت وهو أنا معى ، انا سأذهب وأشترى ، إياك أن يتحرك أحد من مكانه سأعود سريعاً .

ما إن خرج صلاح من البيت حتى انطلق طارق في الغرف المجاورة للصالة ، و إلى الدور العلوى ، ويصحبه يوسف ، ولكن كان صوت أيمن خلفهم لا يصح يا جماعة لا تفتشوا في بيت أحد ، واضح أنه لا يوجد أحد أنت سمعت غلطاً يا طارق .

طارق : لا أنا متأكد مما سمعت ، هيا معى هى بالتأكيد فوق .

انطلقوا يبحثون في الدور العلوى ، وسمعت سارة صوت أرجلهم ففزعت وفجأة فتحوا باب حجرتها ليجدوها مرتدية ترنج البيت وشعرها بدون حجاب فكانت تعليقاتهم .

طارق : هاهى ألم أقل لكم .

يوسف : ياه ولبسى الترنج كمان ونايمة ولا كأنه بيتهم .

أيمن : لم أكن أتخيل أنك كده .

طارق : ما دام الأمر كذلك وتذهبين للبيوت لماذا لم تقولى من زمن فات .

انفعلت سارة عليهم : كيف تدخلوا هنا هكذا اخرجوا بره .

أمسك طارق بها وجذبها إليه : أليس لنا نصيب نحن أيضاً .

وأمسك يوسف بيدها الأخرى : خليها حفلة بقى يا دكتورة سارة .

صرخت سارة بصوت عال وخرجت خارج الغرفة في الصالة الصغيرة بين الغرفتين ولحق بها الاثنان وأيمن يشاهد في مكانه : خلاص يا جماعة مش عاوزين فضائح سيبوها إحنا مش وش الكلام ده .

طارق بغيظ : لا والله ما هرحمها الهانم اللى عاملة شريفة ودكتورة محترمة .

وأمسك يوسف بها من شعرها : إيه إحنا مش عجبنها بتفضل علينا سى صلاح .

صرخت سارة بصوت أعلى وهى تحاول التخلص من يديهم فارتطم وجهها بالحائط ووقعت على الأرض ، أجهز عليها طارق محاولاً فتح سوستة الترينج ومسك بها يوسف باليد الأخرى وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها : الحقنى يا صلاح . . الحقنى يا صلاح .

طارق : على ما يجى صلاح نكون إحنا خلصنا وسبناكى جاهزة له .

صرخت سارة بأقصى صوتها : الحقونى ، الحقنى يا صلاح .

يوسف وضع يده على فمها وأكمل طارق خلع سترتها حتى ظهرت ملابسها الداخلية وحمالة صدرها .

صرخ أيمن : ماذا تفعلون أنتم بتعملوا مصيبة أنتم تأخذون واحدة رغماً عنها دى جريمة ، إحنا لم نتفق على ذلك ، اتروكوها .

وهنا كان صلاح يفتح باب المنزل الخارجى سمع صراخ سارة فقذف بما في يده على الأرض وانطلق إلى الأعلى ليجد سارة ملقاه على الأرض ويوسف يشل حركتها وطارق يخلع ملابسها ، وفى لحظة أمسك بطارق وقذف به على الحائط وصرخ بهم .

صلاح : ياكلاب ويولاد الكلب أنتو جيين بيتى علشان كده .

أمسك به يوسف وحاول ضربه فرد صلاح الضربه إليه ، وفى لحظة وقعت عينه على السكين فوق المائده بجوار صينية البرتقال فأمسك بها ورفعها في وجههم : من سيقترب منها ساقتله .

أمسكت به سارة من الخلف وهى ترتعد وتبكى : لا لا ياصلاح هتودى نفسك في داهية .

يوسف : إيه يا صلاح ده إحنا أصحاب مستخسرها فينا البنت دى .

طارق : إيه اشمعنى إحنا؟ الهانم لما لها في البيوت لماذا لم تقل لنا يا أخى ونحن نساعدك؟

صلاح : إنها ابنة عمتى يا كلاب أخرجو بره حالاً .

يوسف بضحكة صفراء : ابنة عمتك منذ متى؟ . . فجأة كده .

طارق باستهزاء : حلوه دى ، بنت عمتك ، قريبتك ، والله ما سيبها أنت كاذب أنا سمعتك بأذنى ورأيتك وأنت تعطيها المفتاح وتقول لها لا تتأخرى .

صرخ أيمن فيهم بعد أن لمح صورتها تتوسط خالها وعلى الطرف الآخر صلاح ووالدته معلقة على الحائط في الحجرة المفتوحة التى هو واقف على بابها : كفاية بس . . . هى فعلاً قريبتة بصوا الصورة .

ارتبك طارق ويوسف ونظروا إلى الصورة .

وظل صلاح واقفاً وممسكاً بالسكين في مواجهتهم ، وهى ممسكة بساقه من الخلف وترتعد وتحتمى به .

أيمن : إحنا آسفين بالتأكيد، طارق فهم غلط إحنا آسفين يا سارة أرجوك سامحينا .

نكس يوسف وطارق رأسهم للأرض، ولم يعرفا ماذا يفعلون وصوت نحيب وارتعاد سارة لا يتوقف وهى ممسكة بساق صلاح .

وصرخ به يوسف : ولماذ تخفون الأمر؟ لماذا لم تقل لنا أبداً إنها قريبتك؟

صلاح بصوت عالٍ : ليس لك دخل أخرجوا بره .

نزل الثلاثة ولم يتحرك صلاح من موقفه حتى سمع صوتهم يهبطون السلالم وسمع صوت غلق الباب خلفهم .

هدأ صلاح وألقى بالسكين والتفت إلى سارة المتقوقعة على الأرض والممزقة ملابسها وشعرها متناثر على وجهها المتورم وكتفها عارٍ، وسحب البشكير من على الكرسى المجاور ولف به كتفيها وهى ترتعد .

صلاح : اهدئى اهدئى لقد ذهبوا خلاص .

كان وقت عصيب وليلة صعبة عليهم الاثنين، ساد صمت مميت، نزل صلاح للدور الأرضى ودخلت سارة غرفتها ولم تخرج منها . . وبعد أكثر من ساعتين دخل عليها صلاح غرفتها وهى متقوقعة على نفسها في سريرها ومازلت تبكى .

دخل عليها وممسكاً في يده مرهماً للكدمات : سارة ممكن أرى وجهك، لقد تأذى، أحضرت لك مرهماً للورم .

سارة باقتضاب وهى تدير وجهها للناحية الأخرى : لا أريد .

صلاح سحب الكرسى، وجلس بجوارالسرير، وبصوت هادئ جداً: أرجوك أريد أن أرى وجهك.

مد يده ممسكاً بذقنها، ولف وجهها إليه فوجد عينيها مازالت تملؤها الدموع.

فتح الأنبوب وبدأ يضع لها الكريم بشكل هادئ ممرر أطراف أصابع يده برقة متناهية على جبينها، ثم بدأ يتحدث بصوت خافت ورقيق: أنا آسف يا سارة لم أتخيل أن يصل الأمر لذلك.

سارة تبعد رأسها عنه وتلتفت للناحية الأخرى: لا أريد أن أتحدث في الموضوع.

لف صلاح بوجهها إليه مرة أخرى وأكمل وضع الكريم، وبدأ الحديث بصوت حنون لم تتعود سماعه منه منذ زمن طفولتهم.

اسمعينى أرجوك.. ربما لم أتحدث إليك بهذا الصدق من قبل، أنت تعرفين أنى لا أجيد الحديث كثيراً، ولكن أرجوك أن تسمعينى، ربما في بداية حياتك معنا كنت أرفض فكرة معيشتك معنا، وبصبيانية شديدة كنت دائماً أخاف من المقارنة بينى وبينك، أنا ابن الريف الأكبر منك بعامين تربية مدارس الحكومة، وأنت ابنة القاهرة تربية مدارس اللغات.

سارة أنا لا و لم أكرهك يوماً أو أخجل منك كابنة عمتى، ولكنى كنت أخاف من المقارنة فهى دائماً لصالحك، كنت أخاف من زملائى أن يقارنوا بينى وبينك أو أن يضايقنا أحد أو يتحدث عنك بسوء إن خرجنا سوياً أو ذهبنا وعدنا مع بعض، ولماذا أكرهك وأنت ابنة عمتى التى طالما كنت أنتظر قدومها بفارغ الصبر لكى تلعبِ معى ونلهو سوياً في الحقول.

أرجوك يا سارة سامحينى على ما حدث اليوم، وأوعدك أنى سأخبر الجميع بأنك قريبتى.

ابتسمت سارة ابتسامة خفيفة مليئة بالدموع، ولأول مرة تستشعر دفء مشاعره وأكمل حديثة.

صلاح: سارة أرجو ألا تخبرى أحداً بما حدث، فلن يسامحنى أبى على ما عرضك له اليوم، ربما أنت ستسامحينى، ولكن أبى وأمى لن يسامحونى.

سارة هزت رأسها: أوعدك.. ولكن وجهى ماذا أفعل به وماذا أقول؟

صلاح بابتسامة: على الصبح سيكون شفى إن شاء الله، أو نقول اطخبتى في السلم.

حاولت سارة نسيان الأمر والهدوء نسبيًّا حتى ذهبت للكلية بعد يومين لتجد أيمن يحضر إليها في الكافتريا، ويجلس بجوارها، ويقدم اعتذاره للمرة الثانية.

وبدأت صداقة بين أيمن وسارة وكل يوم أو يومين يمر عليها ليلقى التحية ويعزمها على عصير أو شاى أو ما شابه، ولاحظ صلاح الأمر، فما كان منه بعد أن رآها في الكافتريا إلا أن وجدته يسحبها من ذراعها ويأخذها على الجانب ويقول لها بصيغة تهديد مباشرة: ممكن أعرف بتعملى أيه مع أيمن؟

سارة: ولا شيء كنت أشرب شاياً.

صلاح: هذه ليست أول مرة أراه يجلس معك! ما الأمر؟

سارة: حقيقى لا شيء.

صلاح : لو تكرر هذا الأمر أقسم أنى سأبلغ أبى ، هل فهمتى؟

سارة بغيظ : تهديد ده؟

صلاح : نعم تهديد .

استشاطت سارة غضباً من كلامه ولكن قلبها كاد يرقص لغيرته عليها ، فأحبت أن تزيد غيظها له أكثر فقالت له : ولنفرض أن فيه حاجة ، ما المشكلة أليس زميل محترم وسيكون دكتوراً صيدلياً مثلى؟

غضب صلاح أكثر فهز رأسه وقال لها : أوكى نقول الكلام ده لبابا ونشوف رأيه إيه؟

وتركها وانصرف ، فما كان منها إلا السعادة البالغة من غيرته عليها .

وفى صبيحة يوم خريفى هادئ، جلس صلاح في حجرته للمذاكرة وسعاد والدته ذهبت لزيارة شقيقتها في أطراف القرية ، وعبد الله في ورشته ، وحسن وحسين يلهون في حوش البيت ، ويساعدون سارة في إطعام الطيور والدواجن .

سارة : حسين اطلع فوق سطح حظيرة الماشية لتحضر لى بعض الحطب الجاف .

حسين : أنا أطعم الخرفان .

سارة بغيظ : هيا أنت يا حسن اصعد أريد أن أصنع لكم صنية أرز ساخنة وأنبوبة البوتاجاز لا تسعفنى ، ولم يتبق بها الكثير ، وأنت بتطلع عينك حتى تشتريها ، سنحافظ على الباقى منها حتى نطبخ عليه .

حسن : أنا أخاف أقع من فوق يا سارة اطلعى أنت .

سارة بغيظ منهم هم الاثنين : سأصعد أنا .

وبالفعل صعدت سارة إلى حجرتها ومنها إلى الشرفة ثم إلى سطح الحظيرة المعرش بجزوع نخيل جاف وعليه بعض الأغصان والحطب الخاف ، وذهبت إلى آخر السطح من الناحية الأخرى تبحث عن أكثرهم جفافاً وتلقى به من فوق السطح وفى لحظة ، وجدت سارة قدمها تنزلق بين فلقات الشجر وينهار السقف من تحتها وتتعلق حتى منتصفها بين الجزوع ممسكة بيديها في باقى الخشب .

سمع صلاح صوت الهدم وصراخ حسن وحسين .

الحقنا يا صلاح . . . امسكى كويس يا سارة . . .

نظر صلاح مسرعاً من الشرفة فأدرك الأمر وهبط سريعاً إليها .

حسن وحسين يسحبون الجاموستين والحمار من الحظيرة سريعاً للخارج خوفاً من انهيار باقى السقف عليهم .

ودخل صلاح إلى الحظيرمهرولاً ليجد ساق سارة تظهر بنصفها السفلى من السقف والسقف باقيه مائل بشكل كبير يكاد ينهار باقيه في لحظات .

صلاح بتوتر : تماسكى كما أنت لا تتحركى يا سارة . . . حسين أين السلم الكبير؟

حسين : بالخارج من الناحية الأخرى .

صلاح ابعدوا البهائم واخرجوا من هنا فوراً السقف سيقع عليكم .

وخرج مسرعاً وأحضر السلم ووضعه بجانب سارة، وحاول يصعد إليه وبدأ في محاولة سحب الأغصان من حول خصرها لكى يوسع مكان يسحبها منه دون أن يؤذيها.

تحركت جزوع الشجر المجاورة وبدأت في الميل أكثر، فاذا به يحمل أحد الجزوع على كتفه الأيسر ويسحبها وهو يظهر عليه الألم الرهيب بيده اليمنى ويحتضنها من الخلف حتى سحبها من بين الجزوع.

صلاح وهو يتحدث بصعوبة: هيا ضعى قدمك على درجة السلم.

سارة وهى ترتعد: لا أستطيع تحريك رجلى.

صلاح: تحاملى السقف سينهار علينا هيا أسرعى.

سارة وهى تبكى من الآلم: حاضر حاضر.

صلاح ظل ممسكاً بها حتى وضعت قدمها على السلم وهبط هو أيضاً معها والجزع أصبح معلقاً على الهواء وسحبها سريعاً وانطلق إلى باب الحظيرة، وإذا بالسقف ينهار نصفه من الجهة التى كانوا واقفين تحتها.

وقعت سارة على الأرض بجوار باب الحظيرة، وحاول صلاح أن يتحامل ويرفعها على ذراعه لكى يدخلها البيت.

ورغم الألم الظاهر عليه من خلع كتفه إلا أنه تحامل وأجلسها على أقرب كنبة في الصالة، وخلفه حسن وحسين.

صلاح: اجلسى، أحضر لها ماء يا حسين..

سارة تصرخ: لا أستطيع أن أرفع رجلى.. آه.

مد صلاح يده على كف رجلها ووجده بدأ يتورم فعلق سريعاً: لن ينفع هذا من الواضح أنه ربما يكون هناك كسر.

أحضر عباءة أمى يا حسن، وهيا بنا يا سارة سآخذك للمستشفى حالاً

حسين: انتظر أمى.

صلاح: لن ينفع، انا سآخذها على موتسكل أبى وأنت اذهب لأبى في المصنع وأخبره، وانتظر أنت يا حسن في البيت.

وألبسها صلاح عباءة أمه فوق ملابس البيت وأسندها على كتفه، وخرج بها إلى الحوش وأجلسها خلفه على الموتسيكل، وانطلق بها إلى المستشفى في القرية المجاورة، وكل لحظة يضع يده على كتفة ويضغط عليه من الآلم، ولم يهتم بقميصه المقطوع من الكتف وآثار التراب والهدم على ملابسه من أثر السقوط.

وهناك وفى غرفة الكشف وأمام الطبيب.

الطبيب: اجرى لها أشاعة سريعاً.

صلاح حاضر ومد يده لكى يوقفها وإذا به يصرخ رغماً عنه.

الممرضة المجاورة للطبيب: ما بك.

صلاح وهو يتحامل على نفسه: لا شيء إن كتفى يؤلمنى فقط.

التفت إليه الطبيب وأمسك بكتفه وذراعه وإذا بصلاح يصرخ.

الطبيب: ما هذا؟ أن كتفك مخلوع كيف تتحمل هذا الآلم؟

وقام الطبيب سريعاً بالإجراءات الطبية لصلاح، وسارة تجلس هى الأخرى على السرير، ومرت الساعات حتى وجدت خالها وزوجته بجوارهم حتى عادوا إلى البيت.

صلاح معلق ذراعه على صدره وسارة مركب لها جبيرة في قدمها، وبعض الخدوش في وجهها وذراعها.

وحسن وحسين بجابنهم وسعاد تطعمهم شوربة بيديها: ألف سلامة عليك يا بنى، الحمد لله أنها جاءت على كده.

حسين ضاحكاً: سارة كمان رجلها اتكسرت يا ماما.

سعاد وهى تخبطه على رأسه: ماهو لولا أنه أنقذها كان زمان في مشكلة أكبر.

حسن: حقك على يا سارة كان لازم أطلع أجيب الحطب مكنش حاجة من دى حصلت.

سارة: الحمد لله أنك مطلعتش كنت أنت اللى هتقع.

سعاد: ألف سلامة عليكم كلكم يا حبيبى، ربنا يحفظكم، هيا هيا اشربوا الشوربة حتى ترم عظمكم.

ظلت سارة تشرب الشربة ومع كل ملعقة تختلس النظر إلى وجه صلاح ولا يغيب عن مخيلتها ما فعله لكى ينقذ حياتها، وتبتسم في داخلها ابتسامة

رضا رغم الألم وكيف أثبتت لها التجربه صدق خوفه عليها وحرصه على حمايتها على حساب نفسه وألمه .

وتمر الأيام و سارة وصلاح أوشكوا على انتهاء الدراسة .

وكانت سارة كثيرة التردد على صيدلية البلد كلما احتاجت شيئاً خاصاً حتى بدأت تتعرف على د / ياسر صاحب الصيدلية من مناقشتهم كصيدلانية مبتدئة وصيدلى قديم .

وفى يوم وجد خالها والد د/ ياسر يحضر إليه في المصنع ويطلب منه يد سارة لابنه فهو صيدلى مطلق ولديه طفل يعيش مع أمه ولديه بيته وصيدليته ومتيسر ماديًّا ولن يكلفهم شيئاً وبعد دراستها لو أرادت العمل معه في الصيدلية فمرحباً وإن لم ترضَ فهى بحريتها تعمل ما تريد وهو مستعد للزواج بأسرع ما يمكن .

زف خالها الخبر إلى زوجته ، وكان يرى أنه عريس رائع ، أما سارة فكان الخبر كالقنبلة على رأسها مثل خبر العريس السابق ، وشل عقل صلاح عن التفكير .

جهزت زوجة خالها البيت وأعدت كل شئ بفرحة لاستقبال العريس وأهله لمقابلة سارة وخالها والاتفاق على كل شىء ، وبعد اللقاء الأول ومقابلة سارة للعريس واتفاق خالها على كل شىء ، وجد صلاح نفسه يفعل نفس الشىء فقد هرب من الموقف للبعد بأقصى ما يمكن ليجلس تحت شجرته المعهودة على شاطئ النيل في صمت حتى انتهى اللقاء .

ومرت الليلة صعبة طويلة على صلاح، لم يذق فيها طعم النوم، وفى اليوم التالى وجد سارة في الصباح الباكر بمجرد شرق الشمس تجلس وحدها في حديقة البيت، وفى حجرها ماعزتها الصغيرة، وحولها البط الصغير، يلعب وذهنها شارد وعيناها من الواضح أنها لم تذق طعم النوم هى أيضاً.

أقبل صلاح ووقف بجوارها وتحدث بصوت هادئ ونغمة غريبة على مسامع سارة وبدون حتى أن يلقى تحية الصباح: هل ستتزوجين د / ياسر؟

رفعت سارة رأسها وهى تتعجب من السؤال: ماذا؟

صلاح: هل وافقت على ياسر؟

سارة: خالى موافق عليه ويراه رائعاً.

صلاح: أسألك عن رأيك وليس رأى أبى.

سارة: وما أهمية رأيى! إن خالى تعب من مسؤوليتى وكفاه ذلك، فقد تحملنى كل هذه السنوات، وزوجة خالى معجبة به وتقول إنه هايل، ولن يكلفنا شيئاً وسيتزوج سريعاً، وطبعاً أنا بالنسبة له عروسة لقطة سأعمل في الصيدلية مجاناً.

صلاح بحدة أكثر: سؤالى واضح، هل أنت تريدينة أم لا؟

سارة: هل لو كنت أريده أو فرحة به هل سيكون هذا حالى؟ هل لو كان أبى على قيد الحياه كان وافق بمثل هذه الزيجة بالطبع لا، هل كان سيزوجنى قبل نهاية دراستى؟ طبعاً لا.

صلاح: وماذا ستفعلين هل ستستمرين في الأمر كما فعلت من قبل؟

سارة: طنط سعاد تقول إنى سأحبه وأتعود عليه فيما بعد وأنى لن يـأتى لى عريس جاهز كل يوم.

صلاح: هل ستوافقين لمجرد جوازة وخلاص.

سارة: حقيقى لا أعرف.

صلاح بتوتر وصوت متقطع: لو جـاء لـك عـريس وسـتنتظريه بعـض الوقت، فهل توافقين؟

سارة: الأمر ليس هو جاهز أم غير جاهز المهم من هو؟

صلاح بصيغة أمر: ارفضى العريس.

نظرت إليه سارة باستغراب وصمتت.

واستدار صلاح ودخل إلى البيت وظلت سارة في مكانها ولم تصعد.

دخل صلاح على والديه في غرفة النوم، وكان والده يجلس علـى الكنبـة وبجواره والدته تضع له كوب اللبن.

صلاح: صباح الخير.

والده: صباح النور.

صلاح: أريد أن أتحدث معك في أمر هام.

والده: خيراً.

صلاح وهو يحاول استجماع قوته وصـوته متقطـع: أريـد أن أتـزوج أو أخطب بمعنى أصح.

ضحك والده بشدة: ومالو يا بنى نجوزك، بس دلوقتى على الصبح كده يعنى ما ينفعش بعد الفطار.

صلاح وهو يحاول أن يكون جاداً: أنا لا أضحك أنا أتحدث بجدية، أريد أن أخطب سارة.

ضحكت والدته: سارة.....غريبة... اشمعنى دلوقتى أنت لم تكن تطيقها في البيت.

صلاح وهو يحاول تجميع نفسة بشتى الطرق: أنا أتكلم بجد أنا أحب سارة، وأريد أن أخطبها، ولا أريد أن تضيع منى مرة أخرى.

والده بنظرة ثاقبة من عينيه: وهل هناك شيء بينكم؟ و كنتم تتظاهرون بالشجار أمامنا.

صلاح بصوت متقطع: لا.. لا.. أقسم بالله أنا ليس بينى وبينها أى شيء يغضبكم، ولكنى كنت أضغط على لنفسى وأبتعد عنها بقدر المستطاع حتى أكبح مشاعرى ناحيتها ولكنى لم أستطع، بل حاولت حتى مضايقتها كثير لأثبت لنفسى أنى لا أحبها ولكنى لم أستطع، سامحنى يا أبى... لكن أنا بالفعل أحبها وأريدها زوجة لى أرجوك أن توافق... أعرف أن الظروف غير مناسبة وأن مصاريف دراستى أكبر من أفكر في الزواج الآن، ولكن أنتم مصرون على خطبتها من آخر، وأنا لا أستطيع أن أضيعها منى.

والدته بنظرة إشفاق: يا حبيبى يا بنى كل السنين دى ومخبى عن أمك.

والده: هل سألتها؟

صلاح: لا.

والده : ربما ترفض .

صلاح : لا أعرف .

والده موجهاً الحديث لزوجته : اندهى على سارة .

نادت سعاد على سارة من نافذة الغرفة المطلة على حوش البيت ، وبعد دقائق صعدت سارة الدرجات الأربع لمدخل البيت سريعاً ، ودخلت على خالها ووقفت بجاني صلاح وهى لا تفهم ما الأمر .

سارة : صباح الخير يا خالى .

خالها : صباح النور ، اطلع أنت يا صلاح بره ،

وأكمل حديثة بعد خروج صلاح : سارة أنتى جايلك عريس بس هو لسه طالب ، ويمكن يتأخر شوية في تجهيز نفسه و معاكى في نفس الكلية ، عندك استعداد تصبرى وتستنيه .

سارة باندفاع : أنا مش مستعجلة خالص يا خالى ، بس هو مين؟

خالها ضاحكاً : خلاص أنا عرفت الإجابة ، صلاح يريد أن يتزوجك ما رأيك؟

احمر وجه سارة خجلاً وتلعثمت ، ولم تعرف ماذا تقول غير الصمت وأكمل خالها : موافقة؟

سعاد ضاحكة : خلاص متكسفهاش يا أبو صلاح ، هى موافقة .

خالها : تقولها صراحة موافقة .

سارة بخجل : موافقة .

لم يكد صلاح يصدق نفسه إنها وافقت بل كاد يطير في الجو حينما خرجت سارة من الحجرة، ووجدته واقفاً بجوار الباب يتصنت ليسمع ردها، التقت عيناهما فابتسمت وصعدت السلم سريعاً إلى حجرتها.

ولم يمر اليوم إلا واتصل خالها بعمها في السعودية ليتفق معه على عقد قرانهم فور انتهائهم من البكالوريوس وعودة عمها في الإجازة الصيفية، وأن يتمما زواجهما فور إيجاد صلاح لعمل ثابت ويجهز نفسه بشقة صغيرة أو حتى توضيب حجرة نوم في بيت والده.

وأنارت الفرحة وجه سارة... ولأول مره تشعر بطمئنينة غريبة تسرى في روحها بدون أن تعرف كيف حدث هذا، ولكنها تتذكر كل شيء بينها وبين صلاح من أول أنامل الطفل الصغير الذى كان يمشى بها بجوار الترعة، ويأخذها ليلهو معها في الحقول، و كان يضرب أى طفل يقترب منها... صلاح ذاك الصبى ذو العشر سنوات الذى يحضر لها غزل البنات، ويربط شعرها بالضفيرة الحمراء.. صلاح ذلك الطفل الذى تساقطت مياه المطر في الشتاء عليهم فلم يجد ما يحجز به المطر عن رأسها سوى كفيه الصغيرة وفتح قميصة ليخبئ رأسها تحته... صلاح ذلك الحلم الذى حلمت به في مراهقتها حينما وجدت شاربه ينبت ونظرة عينيه لصدرها وهو ينمو برعماً تحت ملابسها.

هذا صلاح المنافس الأول لها في الدراسة والامتحانات، وهونفسه صلاح الذى قهرها وأغضبها موقفه حينما نهرها، وكان يرفض وجودها معهم في البيت، وهو صلاح الذى دمعت عيناه حينما تحرش بها أصدقاؤهم وكاد يرتكب جريمة ليحميها منهم، وهو نفسه الذى تحرسها عيناه حينما تذهب أو تعود من الجامعة دون أن يخبرها أو يجعلها تلحظ ذلك، هو صلاح

الذى كانت تنظر إليه وهو يذهب مع والده لصلاة الفجر مرتدياً الجلباب الأبيض فتشعر أنه ملاك يمشى على الأرض.

دب الدماء والحياه في وجه صلاح، والفرحة ملأت عينيه، وتسارعت دقات قلبه فلأول مرة استطاع أن يبوح بما في قلبه، وهو الآن خطيبها كما كان يحلم، فأخيراً تحقق حلم طفولته ومراهقته تحقق ما كان يصبو إليه حينما كان يشوى لها الذرة ويطعمها الفاكهة، حينما سقط خلفها في الترعة لينقذها، وحينما كان يركبها الحمار أمامه ويحتضنها بأحد ذراعيه.

حلم مراهقته بعد أول مرة رآها، وقد أصبحت أنثى، ولا تلعب معه، ولا تركب الحمار، وأشارت عمته إليه بعينها، (لقد أصبحت عروسة يا صلاح مينفعش تلعب معاك)" الآن أصبح من حقى أن أقول لها أحبك، الآن أصبحت فتاتى أمام الجميع، الآن لن أخجل أن أنظر إليها أمامهم وأن أهمس في أذنها أشتاق إليك، وأن أنظر في عينيها لترى حبى وشوقى إليها. الآن أنا رجلها وهى امرأتى.

لم ينم صلاح في هذه الليلة من فرحته، وصلى الفجر، وذهب فوراً إلى مكان جلوسها بجوار الماعز والطيور ليجدها هى أيضاً تجلس وكأنها تنتظره.

صلاح: صباح الخير.

سارة: صباح النور.

صلاح: نمتى جيداً.

سارة بابتسامة أنثى ودلالاً: لا، ثم ما هذه المفاجأة التى فجرتها أمس؟ ولماذا لم تقل لى مباشراً من قبل؟

صلاح: كنت خائفاً ترفضى.

سارة: وماذا كنت ستفعل.

صلاح: لا أعرف ولكنى لم أستطع الصمت أكثر من ذلك.

سارة: ولماذا كنت تضايقنى؟

صلاح: كنت أخفى مشاعرى عنك وأغلفها بكل ما استطعت من قوة، ولكن عينىّ كانتا تفضحانى، سارة؛ لأول مرة أقولها لك (أحبك).

سارة أحمر وجها خجلاً: وأنا كمان، ولم يكن يضايقنى إلا إحساسى بالجفاء منك والصد.

صلاح برقة: سامحينى.

ضحك الاثنان وكأن الدنيا كلها ملك يديهما و يديهما تلمس السحاب. فلم يكن هواء الصباح البارد النقى إلا نسيم سعاده يلف أجسادهم، ولا ضوء الشمس إلا انعكاس لضوء عينيهما المشعة بالحب، جميلة الحياه، فأوراق الشجر تغنى وترقص مع دقات قلبهما، والطيور تبارك حبهما، فكل شىء يبارك مشاعرهما وكأن كل شىء اليوم يقول أحبك، جميلة هى الحياة...

*****

(٦)
سباق الكفاح والحب

مرت السنة الخامسة ودبلة صلاح في يديها، والكل يعرف أنها خطيبته وابنة عمته، يذهبان سوياً للجامعة ويعودان معاً، يتناولان الطعام معاً ويذاكران معاً أحياناً.

ووالدته كانت تحيطهما بعينيها، وكلما انفردت به حذرته من أى تجاوزات معها فلا يسعه سوى أن يقبلها من خدها (متخافيش عليا يا حاجة، شكلك بتغيرى يا حاجة من خطيبة ابنك).

أنجزت الامتحانات وظهرت النتيجة ونجح الاثنان، وبدأ صلاح مارثون البحث عن عمل ليجد عمل في صيدلية في مركز المحافظة، يعمل بها أكثر من ١٤ ساعة ولا يعود إلا في آخر النهار، ووافق عليها لمرتبها المجزى الذى سيساعده في تدبير مصاريف الزواج.

أما سارة فوجدت صيدلية صغيرة أخرى في آخر الكفر، وعملت بها أيضاً لتوفر ما استطاعت من النقود لتدبير مصاريف زواجها.

وكان كل أمل صلاح في تدبير ثمن حجرة نوم يصنعها له نجار بندر قريتهم حتى يستطيع إتمام زواجهما كما يتمنى، فكان يقبض مرتبه ليعطيه بالكامل إلا قليلاً في يد سارة التى تضع مرتبها بالكامل فوقهم وتكتفى بتدبير نفاقاتها من المعاش، ليكملا ثمن غرفة النوم، وتجهيز حمام مستقل في الدور العلوى بجوار حجرتهما.

وحضر عمها في الصيف ليتمما عقد قرانهما وسط فرحة قلب، ونور فى العيون، و بهجه لا يتخيلها سوى من مر بها مثلهما.

تم عقد القران ولم ترتدى سارة سوى ثوب جميل وبسيط اشترته من بندر قريتهم، وارتدى صلاح قميصاً جديداً وبنطلوناً أسود عادياً، ولم يقدم في الحفل البسيط سوى أطباق الأرز باللبن والحلوى البيتى البسيطة.

لم يكن حفل بالشكل المعتاد ولا زينة تحيط بالبيت ولا أغانى وراقصات ولكن كانت الفرحة تملأ قلبيهما واعينهما وكأنه فرح على سطح القمر، كانت سارة جميلة، وكأنها ترتدى أفخر الثياب فكأن الفرح والرضا تشع عليهم الجمال والبهجة أكثر من أى شىء.

ولم تمر أيام وصلاح وسارة على فرحتهم وصلاح يبزل كل ما استطاع من مجهود وتعب في الصيدلية ليحصل على أجر مجزى ليستطيع دفع مقدم الحجرة ويتدبر أمور زواجه خلال شهور كما وعد سارة.

وأصبحت سارة المسؤولة عنه، تعود من الصيدلية لتساعد زوجة خالها في المنزل، وتجهز له العشاء وتنتظره حتى يعود.

وفى ليلة صيفية جميلة بعد عدة أيام من عقد قرانهم جهزت عشاءاً وارتدت فستاناً صيفياً مزركشاً جميلاً، وأسدلت شعرها البنى الحريرى، وتزينه بزينتها الرقيقة، وتعطرت بعطر الياسمين المنعش وانتظرته، ولما لا!.. فهو عريسها وزوجها المقبل، وحينما عاد وجد أمه واخوته وكل من في البيت نايم ما عدا سارة، اغتسل ليزيل هموم وتعب

عمله وأقبل على مائدة الطعام في الصالة الصغيرة التى بين حجرتـه وحجـرة سارة وإخوته .

صلاح صاعد درجات السلم بعد خروجه من الحمام في الـدور الأرضـى وشعر رأسه يقتر ماءً ويلف الفوطـة حـول عنقـه ويرتـدى الجلبـاب الريفـى الصيفى الذى تعود على ارتدائه في البيت : تعالى نتعشى في حجرتـى لا أريـد الجلوس هنا .

سارة : لقد وضعت الطعام هنا .

صلاح : أنا سأحمل الصينية .

سارة : كما تحب .

صلاح وهو يأكل بنهم : الطعام رائع أنت التى طبختى؟

سارة وهى مبتسمة : رائع لأنك جائع ، ثم ماما هى من طبخت أنا عائدة منذ ساعتين فقط .

صلاح : لا تتأخرى في الصيدلية ، أنا أخاف عليك الطريق .

سارة : حاضر .

صلاح وهو يتناول الطعام سريعاً : أنا سأذهب للنجار غداً لقـد قبضـت اليوم وسأدفع له المقدم والباقى على شهرين ، والشهر القادم سـوف أحـاول جمع ما استطعت لتجهيز الغرفة ونتزوج في أسرع وقت .

سارة : لا تتعجل ، كل شىء بوقته .

صلاح وهو يضحك: هل أنا أتعجل هكذا. . . أنا نفسي أتمم الزواج من الأمس وليس بعد ثلاثة شهور.

سارة في خجل: كل شيء بأوان. أنا كمان دبرت مبلغاً، خذه معك وإن شاء الله يكفى.

صلاح وهو ينظر إليها نظرة رقيقة وصوت حانى: سامحينى أعرف أنك كنت تتمنين شقة لوحدك ولكن أعدك ألا يمر سنة أو اثنتين إلا وأكون وجدت لك شقة صغيرة أو حتى أبنى هنا شقة في الدور الثانى تكون لك بشكل مستقل.

سارة وهى تبتسم: إن شاء الله.

صلاح وهو ينظر إليها في رومانسية جميلة وصوت رقيق: والله سأحضر لك كل ما تتمنين، سأشترى لك شبكة جميلة، وشقة مناسبة، وجهازاً وكل ما تتمناه أى عروس، فأنت تستحقين أجمل وأفضل شيء في الدنيا.

سارة: أنا كل ما أتمناه هو أنت، لا تتعجل الأمور وستحقق لى كل شيء إن شاء الله فذهبى هو يدك التى تلمس كفى، وأثاثى هو حضنك يدفئنى، ومنزلى هو قلبك أسكن فيه باقى عمرى.

صلاح مد يده وهى تجلس بجواره واحتضن رقبتها من فوق شعرها: أنت أجمل هدية لى من الله، ولو أستطيع أن أقطف لك من السماء سأفعل، وسأجعلك سعيدة، حتى لو اضطررت أن أسافر أى بلد عربى، المهم أن أحقق لك كل ما تحتاجين.

سارة: ما أحتاجة هو أن تكون بجانبى، ولا تتركنى وتسافر، أنـا أحتـاج إليك أكثر من أى شىء.

صلاح يضع الطعام في فمها: أنت أحلى هدية في حياتى.

أنهى صلاح طعامه، وخرج يغسل يديه، ومازالت سارة تأكل بعـده ثـم بدأت تلملم الطعام وظهرها ناحية الباب فدخل صلاح بهدوء وأغلق الباب وأمسك بها من الخلف، انزعجت وحاولت أن تتخلص من يديـه، فهمـس صلاح في أذنها بحنان: هششششش... بس... أرجوك أتركينـى أحضـنك هكذا قليلاً لأريد أن أشعر بدفء قلبك في صدرى أرجوك.

احتضنها صلاح أكثر حتى أمسكت بإحـدى يـديها بيديـه التـى تحتضـن خصرها من الخلف ورأسه التى ألقى بها على كتفها بيدها الأخرى وقالـت: يكفى أخشى أن يرانا أحد.

صلاح: فليرانا! هل نفعل شيئاً خاطئاً؟ أنت زوجتى ثم إن أمى نائمة في الأسفل لو انهدم البيت لن تستيقظ وإخوتى كذلك، لا يشعر بنا أحد سـوى قلبانا المشتاقان إلى بعض.

وضع صلاح قبلة رقيقة خلف رقبتها، بدأت سـارة ترتفـع دقـات قلبهـا وتشبع وجهها بالحمرة، ولم تجـد سـوى صـلاح يغـرق رقبتهـا مـن الخلـف بالقبلات حتى استدار بها ليتقابل وجههما.

سارة: يكفى يا صلاح، أخشى أن يرانا أحد.

صلاح : لقد أغلقت الباب وحتى لو رآنا أحد سأقول لهم زوجتى ، أحبها ، أعشقها ، تمنيتها سنين ، كانت لهو طفولتى ، وحلم مراهقتى ، وأمل شبابى ، هل هناك عيب في أن احتضنها وأقبلها وأدخلها داخل قلبى .

ازاد احمرار وجه سارة حتى بدأ يهتز جسدها من التوتر ، و حاولت التخلص منه بالبعد للخلف ، فإذا به يشد يديها إليه ليحتضنها أكثر .

لم تقاوم كثيراً بل كانت في احتياج إليه أكثر منها ، ولم يشعران بمرور الوقت سوى أن كل خلية في جسد كل منهم تختلط بالآخر ، وتتبدل أنفاسهم ببعض ، وتضع رأسها في أحضان صدره ، ويتنفس كل منهما رحيق الآخر حتى يفيقا على صوت أذان الفجر في أول وأحلى ليلة يقضياها في أحضان بعضهما .

وسؤال كل منهم للآخر كيف تحملت البعد عنك كل هذه السنوات وأنت أمامى؟ وكيف استطعت أن أعيش دون رشف رحيق حبك ، وأنت في وجدانى؟

كم هو جميل الحب عندما يغلف برضا الله ، كم هو جميل الحب عندما يكون حلال ، كم هو جميل عندما يشبع كل محب من الآخر في ظل رضا الضمير .

وفى الصباح نزل صلاح إلى الدور الأرضى وهو يصفر على السلم وسعيد ، وجهه منير من الفرحة ، وسارة تجهز الإفطار مع زوجة خالها ،

فنظرت إليه نظرة أنثى وابتسامة خجلة، حتى وجد أباه يرد عليه تحية الصباح.

عبد الله: إيه الروقان ده يا سى صلاح؟

صلاح: صباح الخير يا بابا.

عبد الله: صباح الفل حبيبى، إلى أين ذاهب في هذا الصباح الباكر.

صلاح: أريد أن أفطر لأنى ميت من الجوع، ثم أذهب للصيدلية بدرى لأنى أريد أن أستأذن وسط النهار حتى أذهب للنجار.

عبد الله: على خير يا حبيبى.

صلاح: أريد أن أنهى كل شىء سريعاً يا أبى.

عبد الله: ادع لى يا بنى.. لو جاءنى عمل في الورشة سأعطيك توضب الحجرة، وتدهن البيت، وتتزوج سريعاً يا حبيبى.

صلاح: لا تقلق يا أبى سأتدبر الأمور إن شاء الله.

مرت الأيام سريعاً كما تمر كل اللحظات السعيدة فسارة تشترى ما تستطيع تدبيره بمدخراتها من ستائر جديدة وسجادة وبعض المفروشات والملابس والزينة لكى تجعل هذه الغرفة الصغيرة في بيت خالها عشاً جميلاً مملوءاً بكل ما تستطيع أن تصنعه ليجلب الابتسامة والسعاده لها ولحبيبها.

وصلاح يعمل ليدبر أمر حجرة النوم ودهان البيت وتجهيز حمام جديد في الدور العلوى ليليق بأن يكون به عروس جديدة، أحلام بسيطة ولكنها بالنسبة لهم كانت كبيرة ومع ذلك كانوا سعداء.

فسارة تنتظره كل يوم ليتعشيا سويًّا ويقضيان بعض الوقت معاً؛ ليشبع كل منهم الآخر بالحب، والأمل، والأحلام الجميلة، ويهدأ كل منهم في حضن الآخر، مجرد ساعات أو حتى دقائق ليرتاح على دقات قلب الثانى.

ولكن ليس دائماً كل ما نتمناه يتحقق.

*****

(٧)
الإمبراطور

سامى مدكور . . . اسم له رنين وبريق .

رجل أعمال ، عضو بارز في الحزب الحاكم ، صاحب مصانع مدكور للمستلزمات الدوائية ، ومدكور لصناعة الكيماويات والمبيدات ، ومدكور للصناعات البلاستيكية ، وعضو مجلس الشعب عن كفر أولاد راضى الذى يعيش به صلاح وأسرته .

بدأ مدكور حياته كشاب عادى من أولاد القرية ، تخرج من كلية الصيدلة وعمل في القاهرة ، وسرعان ما ركب الموجة من التحاق بعضوية الحزب إلى الزواج من ابنة أحد الأثرياء وعضو في مجلس الشعب ، ليتحول رويداً رويداً من ابن العطار البسيط إلى واحد من أكبر رجال الأعمال في مصر ، ولكن لم يكتف سامى مدكور بما قدر له من مال وسلطة وصيت بل إنه قادر على كل شىء ، فالأراضى التى تقع عيناه عليها هى له بأى شكل وأى طريقة ، بالرضا أو الإجبار ، والمناقصات والأعمال تسرى عليه بكل الطرق التى يراها سواء كان بالقانون أو الالتفاف حوله أو ثغراته ، أو الرشوة أو حتى بالضغط .

. . .

وفى يوم غامض حزين استيقظ عم راضى على صوت خبط قوى ومذعج على باب داره .

الباب : افتح يا عبد الله افتح يا أبو صلاح .

هرول عبد الله ناحية الباب ليجد جاره عبد الوهاب أمامه.

عبد الله: خير ما الأمر؟

عبد الوهاب: شوفت المصيبة شوفت اللى جرالنا، الحكومة عاوزة تحط إيدها على الأرض، عاوزة تأخد الأرض تبنى عليها كوبرى.

عبد الله بازعاج: كيف عرفت هذا الأمر، الخبر مالى الكفر روح عند المأمور وأنت تعرف.

وجرى عم عبد الله يرتدى جلبابه وخرج مسرعاً خلفه.

ومن دوام لآخر ليجد عم عبد الله أنه أمام هدم ونزع لملكية أرض الورشة والأرض الزراعية وأن عليهم أن يلجؤوا للقانون لكى يحصلوا على أبخس التعويضات من الحكومة مقابل قطعة الأرض.

جرى عم عبد الله هنا وهناك وطلب وساطة من استطاع، حتى بدأت تتدهور حالته الصحية فلا نوم يزور جفنة ولا طعام يدخل فمه، وشحب لونه وفقد وزنه في عدة أيام، حتى دله أهل الخير على أن يذهب إلى سامى مدكور عضو مجلس الشعب الذى لا يرونه إلا قبيل الانتخابات بشهر أو اثنين من فترة انتخابة.

لم يترك صلاح والده لحظة، فذهب إليه مع والده إلى مكتبه في القاهرة، ولم يكن حتى يستطيعوا الدخول إلا بموعد سابق، وبعد انتظار ساعات في مكتب السكرتارية فوجئ صلاح بفتاه تقترب من كرسيه.

الفتاه تقترب من الكرسى ونتظر إلى وجهه دون أن يلحظها: صلاح!

صلاح باندهاش: شيرين كيف حالك.

شيرين بتعجب : ماذا تفعل هنا؟

صلاح : إنى هنا لأقابل سامى بيك .

شيرين : بابا! خير ما الأمر؟

حكى صلاح الأمر لها فطمأنته أنها ستتحدث معه ، وبالفعل فور وصوله دخلت بهم إلى والدها

شيرين بلهجة عتاب ضاحكة : بابا . . وحشتنى ، هل يصح إلا أراك منذ أيام؟

سامى : وحشتينى حبيبتى .

شيرين : أحب أن أعرفك بزميلى صلاح ووالده ، لديهم مشكلة وأرجوك يا أبى أن تعتنى بهم .

سرعان ما حكى صلاح لسامى بك الأمر ، فظهرعليه التأثرالشديد ووعدهم بأنه سيصنع المستحيل لوقف أى ضرر يلحق بهم بل إنه سيقدم طلب إحاطة في المجلس لثير فيه الأزمة ، وكيف يضرون صغار الفلاحين إلى هذه الدرجة ووجههم إلى الذهاب إلى أحد المسؤولين في اليوم التالى ، وانصرفوا من عنده وكلهم أمل ورضا .

لم يكتف سامى بهذا ، بل تبعهم حتى الباب وأعطاهم تليفوناته الخاصة ليكون التواصل معهم مباشراً وبعد انصرافهم توجه بالحديث لابنته ،

سامى : منذ متى تعرفين صلاح هذا؟

شيرين : منذ أن كنت في جامعة المنصورة قبل أن أنتقل إلى القاهرة .

سامى : يظهر عليه ولد محترم .

شيرين : جداً، وكان مجتهداً في دراسته أيضاً، ليتك يا أبى تجد لـه عمـلاً في شركة الأدوية أو المصنع .

سامى مبتسم : واضح أنك مهتمة به .

شيرين : عادى، أنا لم أره منذ أن تركت الجامعة، وعرفت منه الآن أنـه يعمل في صيدلية في القرية .

سامى : لكن، أنا أشعر أنك متحمسة له جداً .

شيرين بضحك وعتاب وهى تتعلق برقبته من الخلف وهو جـالس علـى الكرسى : وهل تركت لى فرصة لأى معزة مع أحـد مـن قبـل، ألم تخطفنـى وأنا في سن صغيرة لتزوجنى كأنى خضار أو فاكهة خائف لتفسد .

سـامى : أنـت تعلمـين أنكـم أعـز شـىء عنـدى وبخـاف عليكـى أنـت وإخوتك قد أيه .

شيرين بضحك : تخاف علينا لدرجة (الحجر الصحى) .

لم يضيع سامى بك وقتاً ورفع تليفونه ليتصل بمدير مكتبه .

عاطف : تحت أمرك سامى بك .

سامى : أريد أن أعرف كل شئ عن صلاح راضـى ووالـده مـن أول مـا اتولد حتى الآن .

عاطف : تحت أمرك .

لم يكن لأسرة عم عبد الله حديث سوى هذا الأمر، لا يجتمعون إلا عليه ولا يتحدثون إلا به، وتأجلت كل أحاديث الزواج أو التجهيز لـه، ومـن ذا الذى يجرأ على مثل هذا الحديث بعد أن اختفـت البسـمة مـن هـذه الأسـرة البسيطة وسط هذا الابتلاء، ولم يكن راحة لصلاح ولا تنفساً سوى أن يخلع همه وألمه بين يدى سارة للتدفئة في حضنها وتبث روح الأمل والثقـة في قلبـة كل ليلة.

ولم يضيع صلاح وقتاً فانطلق إلى المسؤول الكبير، وما هى إلا وعود هنا وهناك، ومن أسبوع لآخر دون جـدى أو نتيجـة، فعـاود الاتصـال بسـامى الذى أعطاه ميعاداً في إحدى شركاته، وتلاه ميعـاد آخـر في مصـنع الأدويـة وتكررت المواعيد، ويذهب صلاح تارة لوحده وتارة مع والده، وكل ميعاد يتطرق سامى للحديث مع صلاح في كـل الأمـور، ويحـاول أن يعـرف عنـه وعن شخصيته كل شىء، وفى إحدى المرات تجول به داخل مصنع الأدويـة ومروراً بالمكاتب، برقت عينا صلاح لكل هذه الأجهزة والعنابر، وكل هـذا التقدم في المصنع، فمثل أى شاب تخـرج تـواً كـان أبلـغ حلمـه أن يعمـل في شركة أو مصنع أدوية بهذا التقدم، وبعد انتهاء الجولة اصطحب صـلاح إلى مكتبه.

سامى: مارأيك يا صلاح.

صلاح: رائع يا سامى بك.

سامى: تحب تعمل في المصنع عندى.

صلاح: ياريت يا سامى بك أكون شاكراً ليك جدًّا.

سامى : لماذا لم تسألنى حتى الآن أو تطلب منى عملاً في المصنع أو الشركة .

صلاح : شكراً سامى بك ، ولكن لم أجرؤ على شيء من هذا ، فهدفى هى مشكلتنا الأساسية ، وليس العمل الآن ، ولم أستطع أن أكون طماعاً إلى هذه الدرجة .

سامى : أنت شاب محترم لست طماعاً يا صلاح ، ولأجل هذا يشرفنى أن اشغلك معى .

صلاح بابتسامة وسعادة : شكراً يا سامى بك ، بس أرجوك أنا أهم حاجة عندى موضوع الورشة والأرض .

سامى بضحكة عالية : لا تخف يا صلاح ، غداً تعالى أنت ووالدك ، و إن شاء الله خيراً .

لم يمر وقت حتى كان عاطف يقف أمام سامى بك وبيده ورقة بالمعلومات .

وسامى يدور ببطء على كرسيه الوثير خلف مكتبه الفخم .

عاطف يكمل حديثه : تخرج بتقدير جيد جداً ، وملتزم وحسن الخلق ووالده كذلك ، عقد قرانه على ابنة عمته .

سامى مقاطع له : عقد قرانه وهو في هذه السن . . . أكمل أكمل ، ماذا تعمل ومن هو والدها؟

عاطف: هى ابنة عمته، والدها متوفى منذ سنوات، فهى يتيمة الأب والأم وخالها يرعاها منذ سنوات، وتعيش معهم في نفس البيت.

سامى بضحكة عالية: (طب بنت يتيمة وغلبانه يعنى وليس لها أحد).

عاطف: واضح أن خالها حب يكسب فيها ثواباً ويزوجها لابنه، زواج أقارب، بنت يتيمة ولن تكلفهم شيئاً وسيتزوجوا في نفس البيت.

سامى بضحكة باهتة وبصوت خافت يحدث نفسه: يكسب ثواب في حاجة تانية.

عاد صلاح إلى بيته ليزف لوالده وسارة خبر تعينه في المصنع بمرتب مجزٍ وكبير، لتكون أول ابتسامة تدخل لقلبهم منذ أسابيع.

سعاد: الحمد لله يا بنى، ربنا يتمم فرحتك، ويجعله فتحة خير عليك يا حبيبى.

صلاح: والمرتب جيد جداً هنقدر أدخر منه والملم حالى سريعاً إن شاء الله.

سارة: ألف مبروك يا صلاح، ياريت بعد ما تثبت وجودك في المصنع تلاقى لى عمل أنا أيضاً.

سعاد: لكن أين ستقيم؟

صلاح: هناك استراحة للمغتربين، وسوف أعود كل أسبوع يومين والمسافة قريبة بس أدعى لى.

والده: الحمد لله يا حبيبى، المهم أنه يتمم جميله ويحل مشكلة الأرض.

صلاح : واضح أنه مهتم جداً يا أبى ، وينتظرنى أنا وأنت غداً في مكتبه ، وقالى عنده أخبار جيدة .

والده : ربنا كريم يا بنى .

وفى الغد كان صلاح ووالده في مكتبه قبل الموعد .

استقبلهم سامى من الباب بنفسه : أهلاً أهلاً .

عبد الله : أهلاً بك سامى بيك .

وبعد أن أدخلهم ورحب بهم وقدم لهم العصير والشيكولاتة وهُم يستغربون من هذه المعاملة الرائعة بدأ الحديث .

سامى : أنا أحب الدغرى وأحب أدخل في الموضوع على طول ، بقى المثل : "بيقول اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك" وبصراحة يا حاج عبد الله أنا معجب بصلاح ابنك ونفسى يبقى زى ابنى بجد .

عبد الله اضطربت دقات قلبة وفوجئ بحديثة وتجمدت الكلمات في فمه : العفو يا سامى بك إحنا مش قد المقام .

سامى : مقام أيه يا عم عبد الله كلنا أصلنا فلاحين ، أنا أبويا كان فلاحاً وعنده محل عطارة في الكفر ولا نسيت ، بس أنا بقى بشطارتى ومجهودى وكرم ربنا وصلت للى أنا فيه ، وابنك بيفكرنى بنفسى وأنا في شبابى ، وبصراحة أنا ارتحت له وحبيته ، ونفسى يبقى ابنى ، ثم إنه عارف شيرين جيداً ، وقالت لى كان بنهم استلطاف من زمان قبل ما تترك الجامعة .

صلاح بتوتر : سامى بك أنا ليس بيني وبين شيرين أى شىء فهى زميلة أكن لها كل الاحترام، وأيضاً أنا خاطب بنت عمتى .

سامى : ما أنا عرفت الموضوع ده، وشيرين كمان كانت متزوجة من قبل، بس بصراحة أنا كنت السبب في الجوازة دى، ولم تكن موافقة .

استدار سامى بوجهه إلى عم عبد الله موجهاً الحديث اليه : لكن أنا بخاف عليهم هى وإخوتها، أبو البنات بقى، فلم يعطنى الله سوى أربع بنات زوجتهم جميعاً في سن صغيرة، وكل أزوجهن يعملوا معى، وفى حضنى وتحت عينى، بس شيرين هى اللى حظها سيئ ففى الجوازة الأولى طلع مدمن، وليس له في النساء، وكانت حكاية وطلقتها بعد أربع شهور، والجوازة الثانية كان ابن سيد البرعى عضو مجلس الشعب، لكن معاملته كانت سيئة جداً وضرب وإهانة وأنا ليس عندى هذا الكلام، طلقتها وأخذت كل حقوقها وابنها عندى، أمها هى اللى بتربيه، يعنى هو هيأخدها كانها عروسة أول مرة تتزوج، وأنا أملى فيه أن هيعوضها كل اللى فات .

تسمر صلاح ووالده في كرسيهما ووقف الكلام في حلقهم، ولم ينطق أىٌّ منهم بكلمة، وتحدث العرق المتصبب من جبين عم عبد الله، واللون الأصفر المشبع به وجه صلاح، ومرارة حلقة الذى جف، ولم يعد حتى يستطيع أن يبلع ريقة ليكمل سامى حديثة .

وأكمل سامى حديثه : طبعاً موضوع الأرض والورشة اعتبروه كأنه لم يكن، وأنا هتصرف فيه تماماً، فالمصرف أستطيع أن أغير خريطته وهذه الأرض ستكون بمثابة أرض لن أجعل أحداً يقترب منها، فهى أرض جوز بنتى، وبعدين أنا تعبت، ونفسى أسلم المصنع لصلاح بعد ما يتدرب

ويشرب الشغل فيه، مثل باقى أزواج بناتى، فكل واحد منهم يدير أحد مصانعى أو توكيلاتى، على العموم تستطيعون أن تأخذوا وقتكم وتفكروا وسأنتظر ردكم، لكن في أسرع وقت حتى أستطيع أن أتصرف في موضوع الأرض.

خرج عم عبد الله من مكتبه متسنداً على ذراع صلاح، ولا يستطيع أن يقف على قدميه حتى عادوا إلى البيت، طلب عم عبد الله من صلاح أن يدخله إلى غرفته ويرقده على سريره ويغلق الباب.

صلاح: لا تغضب يا أبى انس الأمر وأنا سوف أبلغه رفضى، وسأرفع قضية، ولن يمس الأرض أو الورشة، البلد فيها قانون ولا تخاف يا أبى.

عم عبد الله بمرارة وكلمات تخرج بألم من صدره: قانون! إى قانون يا ولدى؟ البلد بلدهم يا بنى ونحن خادمون عندهم، وهل سينتظرنا القانون سيكونون أخذوا الأرض وهدموا الورشة، ولنذهب نحن إلى الجحيم.

صلاح: أرجوك يا أبى لا تخف أنا سأتصرف.

عم عبد الله: هل رأيت جبروت أكثر من ذلك، الرجل إما أن يأخذ أرضى وورشتى ويخرب بيتى أو يأخذ ابنى، ياااااااه هل نحن ثمننا رخيص لهذه الدرجة؟

صلاح: أبى أرجوك اهدأ.

عبد الله: عارف يا بنى لو الأرض فعلاً هيتعمل عليها كوبرى أو مصرف فيه مصلحة وسيعطونا ثمناً قريباً حتى من ثمنها كنت سأقول الحمد لله قدر الله وماشاء فعل، ولكن أعرف من كل من ذهبنا إليهم أنه هو نفسه

من يضع عينيه على الأرض، هو يا بنى سبب كل هـذا، يـاااااااااه حاسـس إن فيه ناراً طلعت من صدرى.

صلاح وكيف عرفت هذا يا أبى؟

عبد الوهاب جارنه قالى قبل موضوع الأرض ببضع أيـام إنـه وجـده يمـر على المصنع المجاور لنا بالقرب من الأرض والورشة، وسمعـه وهـو بـيكلم واحد من رجالته أن الأراضى دى هى أفضل مساحة يضمها لمصنعه، وسأل عبد الوهاب واحداً من قرايبه يعمل في المصنع أنه يريد إنشاء مخـازن وعنـابر جديدة لمصنعه وهى دى أقرب أرض.

ولهـذا قـال إننـا نعتـبر الموضـوع منتهـى، وأن الأرض هيسـبهالنا إحنـا والفلاحين اللى جنبا، عارف أن رجاله داروا على الفلاحين واشـتروا مـنهم الأرض بربع ثمنها وطبعاً بيبيعوا له لكن إحنا واضح إنه كان طمعاناً في أكثـر من هذا كان طمعاناً فيك.

صلاح: اهدأ يا أبى وربنا يعوضا خير، سأحضر لك كوب ليمون.

خرج صلاح وطلب من أمه تصنع لـه كـوب عصـير، وعـاد بـه لوالـده وخلفه أمه.

صلاح: أبى، هيا قم اشرب العصير.. أبى.. أبى

لم يرد عم عبد الله فلم يتحمل قلبه كل هـذا السـواد والطمـع في قلـوب البشر، وأبى أن يـدخل الهـواء إليـه، أو يتـنفس كـل هـذا الطمـع والكـره والظلم، صرخ صلاح فيه أفق يـا أبـى، رفـع رأسـه ليجـده فاقـد الـوعى، ويتنفس بصعوبة فهرع يطلب سيارة الإسعاف، ومر كل شىء سريعاً ليبيت

عم عبد الله ليلته الأولى في المستشفى ومعه صلاح ووالدته، وكادت تموت سارة رعباً عليه، وأخفى صلاح الأمر عن الجميع.

مرت عدت أيام وصلاح لا يعود للبيت فما بين الصيدلية إلى المستشفى للمبيت مع والده حتى بدأعبد الله يفيق ويسترد وعيه تدريجيًّا، وسارة تدير شؤون البيت بعد عودتها من الصيدلية، وسعاد والدة صلاح ما بين البيت والجلوس مع عم عبد الله في المستشفى طوال اليوم، ولا تتركه إلا بعد وصول صلاح إليها ليستلم منها وردية رعايته.

وفى اليوم الرابع ووالدة صلاح عندهم في المستشفى، فؤجى الجميع بسامى بك مدكور أمامهم في العنبر.

ومعه طاقة ورد كبيرة وعلبة شيكولاتة فاخرة و سكرتيره الخاص والحرس الشخصى خلفه، جلس سامى بجوار سرير عم عبد الله وأشار إلى رجاله بالخروج، ورحب به صلاح ووالدته أشد الترحيب.

سامى: ألف سلامة يا عم عبد الله.

عبد الله: الله يسلمك يا سامى بك.

الحاجة سعاد بود كبير: ألف شكر يا سامى بك على زيارتك، سيكون فيها الشفاء إن شاء الله.

صلاح: لم يكن هناك داعٍ لتعبك يا سامى بك.

سامى: لا تقل هذا يا صلاح، ألم أقل لك إنك ابنى، ثم قولوا لى هل الخدمة في المستشفى جيدة أم انقله إلى مستشفى استثمارى ممن أتعامل معهم.

صلاح: لا لا إننا بخير ثم إن كلها يومان وسيخرج إن شاء الله وسيتبع علاجاً ونظام تغذية فيما بعد.

سامى: خير خير إن شاء الله، على العموم أنا قلت أطمئن عليك وطبعاً أنا مش هتكلم في أى حاجة عن موضوعنا لأنه ليس وقته الآن، ونتحدث فيما بعد إن شاء الله، ألف سلامة عليك يا عم عبد الله.

وانصرف سامى سريعاً، وبدأ يشعر عبد الله بالمرارة واقتضب وجهه وهو يقول: يقتل القتيل ويمشى في جنازته.

سعاد: ما الأمر؟ منذ أن تعبت وأنا أشعر أنكم تخفون عنى سراً، قتيل إيه وجنازة إيه يا أبو صلاح.

صلاح: لا شىء يا امى.

سعاد: ألن تقولا لى ماذا يحدث ألم تكونا من يومين في غاية السعادة ومتفائلين أن الأمور ستنتهى على خير، قولا لى ما الأمر.

صلاح: لا شىء يا أمى

سعاد: حرام عليكم أخبرونى ما الأمر، لماذا أنتم هكذا؟

عبد الله: سأ حكى لك لكن لا تخبرى سارة بأى شىء مفهوم.

وحكى الحاج عبد الله الأمر لزوجته بكل تفاصيله حتى تهدأ وطلب منها الأ تخبر سارة بأى شىء، تلجمت سعاد في كرسيها، ولم تنطق، ودمعت عيناها في صمت ثم انفجرت بهم وكأنها بركان.

سعاد: ماذا يعنى هذا الكلام؟ إن الأرض خلاص ضاعت والورشة راحت، وهنعيش منين يا صلاح؟ وطبعاً مفيش وظيفة، طب هنعيش منين

يا صلاح من مرتبك من الصيدلية، إنك حتى لست موظفاً أو لك مرتب ثابت، أنك ممكن تترك الصيدلية غداً، ماذا سنفعل، ألم تفكر أن لديك إخوة صغار. . . أنت أخذت حقك وكبرت واتربيت، لكن هناك بيت لازم يتفتح، وأطفال في المدارس، وأبوك مريض قل لى ماذا ستفعل؟

عبد الله بعصبية: لهذا لم أكن أريد أن أقول لك شيئاً، ماذا تريدين، يذهب ويتزوج واحده لا يعرفها، ومتزوجة من قبل مرتين، ولها طفل ويرمى ابنة عمته.

سعاد: ولم لا.

وقعت الكلمة على مسامع صلاح ووالده باستغراب واندهاش من الاثنين، وأكملت سعاد حديثها.

سعاد: ولم لا. . . ردوا عليّ بالعقل مش بالعواطف، ماذا سيحدث لو تزوجها، ما المشكلة في أنها مطلقة كثير من البنات يكونون سيئى الحظ في أول جوازتهم ثم يرزقهم الله بالزوج الجيد، ثم إنها بنت باشا وغنية، وهو سيعامله مثل ابنه ويشغله معه، ما المشكلة؟ رزق وجاء لحد عندنا نرميه؟

انفعل زوجها عليها: رزق! أى رزق من رجل ضلالى يريد أن يأخذ ابنى أو يأخذ أرضى أى رزق هذا؟ وأرمى ابنة أختى لماذا؟

سعاد: لم نرمها، ربيتها في حضنى واعتبرتها ابنتى وأكملت تعليمها وكنت سأزوجها ابنى، ولكن الظروف، تستطيع أن تبدأ حياتها وحدها ولن تتأثر، ولكن ليس ثمن سعادتها هى دمار أسرتى أنا وخراب بيتى.

عبد الله بصوت عال: ليس لك شأن بالأمر، ولا تقولى لها شيئاً مفهوماً.

صلاح: أرجوك يا أمى لم أكن أريدك أن تعرفى خوفاً عليكِ، فلا تخبريها بشىء ونحن سنتصرف في الأمر.

سعاد: تتصرفون في الأمر! وليس لى شأن بالأمر! أمال هو شأن مين! يا الله تتحدثون وكأنى سيدة غريبة عليكم، وكأن البيت الذى سيخرب ليس بيتى.

صلاح: أرجوك يا أمى.

سعاد: حاضر سأسكت، بس قبل ما تفكرون وتردون على الراجل وترفضون فكروا في العيلين اللى في البيت، فكروا إن البيت هيتخرب، وإننا سنشحت اللقمة.

صمتت سعاد وانصرفت من المستشفى، ولكن عقلها لم يصمت لحظة، وبدأت تفكر فيما ستفعل، ولم تتوقف عيناها عن الدموع ليست حزناً ولا ألماً ولكنها قلة حيلة، خوفاً من مجهول لا تعرف ماذا تفعل به..

ولكنها طوال الطريق وهى تفكر ماذا ستفعل حتى وصلت إلى المنزل، وبعد أن هدأت الأمور ونام الأطفال، وتناولت العشاء مع سارة، وطلبت منها أن تجلس معها في غرفتها لتتحدث في أمر هام.

دخلت سارة وهى تحمل كوب الشاى إلى زوجة خالها، وجلست بجانبها على الأريكة بجوار السرير، وبدأت سعاد في الحديث.

سعاد: طبعاً أنت عارفة يا سارة أن أمك كانت مثل أختى، وهى من زوجتنى خالك عبد الله.

ابتسمت سارة: أعرف.

سعاد: ومنذ أن توفيت أمك وأنا اعتبرت نفسى مكانها، وأعتقد أنى لم أقصر معك في شيء طوال هذه السنوات.

سارة انقبضت ملامحها: ما الأمر يا خالتى، هل فعلت شيئاً أغضبك؟ أنا آسفة لو كنت زعلتك في شيء بالتأكيد لم أقصد.

سعاد: لا لا يا ابنتى أنت لم تفعلى شيئاً ولكن كل شيء قسمة ونصيب.

سارة بتعجب: قسمة ونصيب! يا عنى إيه؟

سعاد: أنا يابنتى كان حلم عمرى أنى أزوجك ابنى، وأنك تكونين في حضنى طول العمر، لكن الأمور اختلفت.

سارة بانزعاج: فيه إيه يا خالتى، أرجوكِ قولى لى.

سردت سعاد لها الأمر بالتفصيل كما سمعته من عم عبد الله، وسارة تسمع وعلامة التعجب ترتسم على وجهها، وتحجرت ملامحها، ولا تعرف بماذا تجيب، وأكملت سعاد حديثها.

سعاد: أنت يا ابنتى أنهيتى دراستك، وتقدم لك من هو أفضل من ابنى وتستطيعين أن تبدئى حياتك مع من هو أفضل منه، ولكن حياتى وبيتى والأطفال الصغار وصلاح كل هؤلاء متعلقين بقرار منك، ألم تلاحظى أن صلاح منذ أيام لم يحضر للبيت، فهو لا يستطيع أن ينظر في وجهك، وخالك لم يتحمل الأمر وكان هيموت فيها، قولى لى أنت ماذا أفعل؟

سارة: وما المطلوب منى؟ أن أتخلى عن صلاح بمنتهى البساطة هكذا!

سعاد: ربنا هيعوضك خير يا بنتى بالأحسن منه، روحى عند عمتك في مصر أو عمك في السعودية يبحث لك عن عمل هناك وتحوشيلك قرشين وتعيشى وهتلاقى أحسن من ابنى، اعتبرى قرارك ده رد الجميل لى ولخالك اللى اعتنى بيك ورباك، وكان كل حلمه يزوجك ابنه، لتنقذيه وتنقذى بيته وأرضة وابنه.

سارة بابتسامه ساخرة: بالبساطة.

سعاد وهى تبدأ الدموع تسقط على استحياء من عينيها: أنا عارفة أنها مش بالبساطة دى بس دبرينى أنت، عمرى ما تخيلت أنى ممكن أتخلى عنك، بالعكس كنت أدعى ليل ونهار أن ربنا يجعلك من نصيب صلاح ويهديه عليك، بس كل شيء نصيب وغصب عنى.

سارة: وصلاح موافق؟

سعاد بصوت متقطع: ليس أمامه حل آخر، وافق بس مش قادر يوجهك.

لملمت سارة شتات نفسها وجمعت روحها الممزقة من أمام زوجة خالها، وابتلعت الدموع أمامها، ولم تكد تستطيع أن تقف على ركبتيها فتحاملت على المنضدة في وسط الغرفة، ومنها إلى الحائط، وجرجرت نفسها إلى حجرتها في الدور العلوى، وتقوقعت على السرير واحتضنت نفسها، ووجدت نفسها تقوللها في لحظة واحد آه آه آه آه تخرج بدموع وصرخة مؤلمة من قلب يتمزق، تخرج من حلقها، وكأن روحها تخرج معها.

مرت ساعات أم دقائق أم ليلة كاملة، لم تعرف سارة.

ألقت سعاد برأسها على مخدة السرير، وظلت عيناها تحملق في الفراغ لا هى مستيقظة ولا نائمة، هربت الدموع من عينيها على الوسادة في خجل، وتنهدت بصوت خافت (سامحينى يا سارة).

دارت كل الأحداث في رأس سارة، لا لن أستسلم بهذه البساطة، لن أترك حبيبى وخطيبى وزوجى وحياتى وأنسحب، سأقاتل، لا سأقيم الدنيا وأقعدها على رأسهم جميعاً، سأذهب لسامى هذا وأهد الدنيا فوق رأسه، لن أترك شيرين تأخذ زوجى منى، لا سأذهب لخالى وأصرخ به، لا سأذهب لصلاح، لن أترك حياتى وأحلامى تنهار بهذه السهولة.

اختنقت أكثر بالبكاء ودارت الدنيا بها وهى على نفس وضعها متقوقعة في السرير، ورنة كلمة زوجة خالها في أذنيها (صلاح موافق بس مش قادر يواجهك وخالك مستحملش وكان هيورح فيها، حياتى وبيتى بقرار منك) تساقطت الدموع أكثر، وبدأت تتقطع أنفاسها من كثرة البكاء، ولم تجد سوى أنها تنهض وتفتح دولاب ملابسها وتنزل الحقيبة من فوقه وتدب أغراضها بكل صمت وهدوء، لملمت أوراقها وملف شهادتها وحليها وكل شىء مهم بالنسبة لها في صمت وهدوء، ولم تنس صورتها هى وصلاح أمسكتها بين يديها ونظرت إليها بألم ثم دبتها في الحقيبة وأغلقتها بهدوء.

لم يغمض لسعاد جفن وهى تتقلب على سريرها حتى قبيل الفجر لتسمع صوت الباب يفتح ثم يرد في هدوء، أغمضت عينيها وضغطت على أسنانها وصوت غلق الباب يخترق أذنيها

*****

(٨)

الخروج من الشرنقة

خرجت سارة من البيت وهى تجر حقيبتها خلفها، وتضع فوقها يتمها ووحدتها، وعلى الكتف الآخر حقيبة يدها، تجر أقدامها وتلقى خلفها بكل أحلامها، تمر في ذاكرتها كل يوم مر في هذا البيت من ضحك، أو دموع، أو ابتسامات، أو دفء عائلة، ظلام الليل الحالك يزداد، و أصوات قرآن الفجر تخترق السماء بهدوء وسكينة، وهى تمر على الطرقات.

هنا كنت أجرى وأنا طفلة في يد صلاح، وتحت هذه الشجرة تعلقت أنا وصلاح، وهنا ظللنى بكفيه من المطر، وعند هذه المحطة استقلينا سويًّا الأتوبيس، وهنا ظللنى بالمظلة وتحمل هو الأمطار، يا الله أهذا الطريق إلى الخروج من هذه القرية أم الخروج من جنين أمى الذى احتوانى سنين يتمى وخوفى، وها أنا ألقى إلى مخاض اليتم من جديد، أمى أحتاج إلى حضنك، أبى أحتاج حمايتك، أخى أحتاج كفك.

مشيت سارة في الطريق وكل الوجوه تتراقص أمامها وتمر لتلقى في الخلف وتسمع أصوات ارتطامها خلفها حتى وصلت إلى مقر محطة الأتوبيس، واستقلت كرسيها لتتحسس الكرسى الفارغ بجانبها، وتتذكر يوم أن أمسك خالها بيدها وأحضرها معه للقرية.

أسندت رأسها للخلف، وبدأ الأتوبيس في الحركة، وتتحرك معه كل الأحداث والذكريات وترتسم علامة الاستفهام أمام عينيها خلف السؤال

الأزلى، أين أذهب الآن؟ وتذكرت كيف عاد لها خالها بعد وفاة والدها ببضعة آلاف من الجنيهات، وضعهم لها في دفترها في البوسطة وقال لها (هذا ما استطعت أن آخذه من صاحب البيت) فقد أحدث مشاكل عديدة وأراد أن يأخذ الشقة كان نفسى أحافظلك عليها ولكن لم أستطع.

أين أذهب؟ لا أريد أن أذهب لعمتى، فلن أرتاح معها أو مع أولادها.

أين أذهب؟ هل أتصل بعمى؟ وأين أذهب حتى يرسل لى ليأخذنى، ومتى كان يحتوينى أو يخشى على فقد تركنى وأنا صغيرة، وهل ستتحملنى زوجته؟

أين أذهب الآن؟ لابد ألّا أعتمد على أحد، لابد ألّا أذهب لأحد، لابد ألّا أحتاج لأحد، لابد أن أجد لى مكاناً أعيش فيه حتى لو كان مجرد حجرة صغيرة، ولكن حتى لحين أدبر أمرى، أين أذهب؟

يارب ليس لى غيرك،

بدأت الشمس تشرق، وبدأت أصوات الطيور تملأ المكان وتخترق النافذة المفتوحة، ونسمات الهواء تنعشها قليلاً، حاولت أن تأخذ نفساً عميقاً وتخرجه وخرجت معه كلمت (يارب أحتاج إليك).

وفى لحظة ترقرت صورة (رنا)جارتها وصديقة طفولتها في المدرسة الألمانى أمام عينيها، فرغم السنين لم يتوقفا عن المراسلة، ولم تتوقف سارة عن محادثتها في المناسبات والأعياد، ووجدت نفسها تكررها في بالها أكثر من مرة.

أذهب لرنا فقد تربيت معها، وكانت صديقة عمرى، وأمها صديقة لأمى رحمها الله، وهى التى تعيش مع أمها وحدهم الآن، ربما تقبل أن تسضيفنى لعدت أيام حتى أتدبر أمورى.

وانطلق الأتوبيس في طريقة إلى القاهرة، وأخرجت سارة مصحفها وظلت تقرأ طوال الطريق وتدعو الله حتى يطمئن قلبها قليلاً وتهدأ.

لم يتوقف صلاح عن التقلب على جنبيه في فراشه على أرض المستشفى الحكومى بجوار والده، وكان قلبه ينقبض ويقتله القلق وكأن روحه اخترقت الأفق لتشعر بما في سارة، ولكن أرجع الأمر لما يمر به من قلق وتعب، وفى الصباح اطمأن على والده وعلى تناوله للإفطار، وتجهز ليذهب إلى الصيدلية.

عبد الله: اذهب أنت يا حبيبى إلى عملك أنا بخير، وليتك تمر على الطبيب لتسأله متى أخرج فأنا مللت من المستشفى يا بنى.

صلاح: حاضر، سأبحث عنه الآن، لا أعرف ما الذى أخر أمى حتى الآن؟

عبد الله: ربما تنهى احتياجات البيت وستأتى لا تقلق، مُر على الطبيب واذهب لعملك أنا بخير.

نهضت سعاد قبل السابعة وأوصلت أولادها إلى المدرسة، وانطلقت إلى مقر مكتب سامى في البلدة، وكما هى متوقعة لم تجده، لتأخذ عنوان مكتبه في القاهرة تركب القطار وتنطلق إلى العنوان، ووصلت لمقر مكتبه وترجت سكرتيره بكل ما أوتيت من قوة أن تتصل به تليفونيًّا.

سامى: أهلاً، من معى؟

سعاد: أهلاً بك يا سامى بك، أنا سعاد والدة صلاح.

سامى: أهلاً أهلاً يا مدام.

سعاد: أنا جئت مكتبك يا سامى، بك أريد أن أتحدث معك.

سامى: تحت أمرك يا هانم، سأرسل لك السائق حالاً ليوصلك لبيتى.

وفعلاً لم تلبث دقائق حتى كانت السيارة والسائق تحت المكتب واستقلتها لتجد نفسها أمام قصره في حى المعادى، وهو ينتظرها على الباب.

سامى: أهلاً أهلاً ياهانم تفضلى.

سعاد: أهلاً بيك يا باشا.

وبعد أن أجلسها وقدم لها العصير: حمداً لله على السلامة، لماذا لم تتصلى بى من المنصورة، وأنا كنت أرسلت لك سيارة تنقلك حتى هنا.

سعاد: قد القول يا باشا، نحن من يأتى إليك، أنا جئت لكى أقول لك إننا نتشرف بخطبة ابنتك، ولولا ظروف مرض الحاج كان جاء معى هو

وصلاح، وأرجو أن تقبل بابنى عريساً لابنتك، لكن هى الظروف فقط التى أخرته في الرد عليك إحنا يشرفنا ويعزنا ياباشا أنك تعطينا ابنتك.

سامى ابتسم ابتسامة عريضة، واعتدل في جلسته، ووضع ساقاً على ساق وقال لها بكل ثقة: أنا سعيد بزيارتك يا حاجة، وصلاح هيكون ابنى، على العموم العروسة هتيجى تسلم عليكِ وأول ما يخرج الحاج من المستشفى نحدد ميعاداً للزيارة.

سعاد: وزيارة ليه يا باشا خطوبة وعقد قران على طول إن شاء الله، هما لسة هيعرفوا بعض!

سامى بضحكة عالية جداً: أنت مستعجلة قوى يا حاجة... أهلاً أهلاً بك.

وصلت سارة لبيت رنا واستقبلتها والدتها بالترحاب والفرحة، وحكت سارة الأمر عليهم، فرحبا بها بشدة، ولم يتحدثا معها كثيراً سوى أن قدما لها الطعام وجهزت لها الحمام؛ لكى ترتاح وتنام.

عادت سعاد إلى المستشفى متأخرة بعد أن أوصلها سامى بسيارته حتى بابا المستشفى، ولم تنطق بكلمة، وعندما سألها الحاج عبد الله عن تأخرها أجابته بأنها كان لديها مهام تنجزها في البيت.

وخرج عم عبد الله من المستشفى في نفس الليلة مساءاً ووصل إلى البيت مستنداً على ذراع صلاح ووالدته تحمل الحقيبة خلفه.

انطلق الطفلان يحتضنان والدهما: حمداً لله على السلامة يا أبى.

عبد الله: الله يسلمكم حبيبى عاملين إيه.

الأطفال: بخير يا بابا.

عبد الله: أين سارة؟ لقد اشتقت لها.

الأطفال نظروا إلى أمهم وصمتوا.

سعاد: سارة مش موجودة.

صلاح: ألم تعد من الصيدلية حتى الآن.

سعاد: سارة ليست بالمنزل، ادخلوا استريحوا ونتحدث فيما بعد.

انقبض قلب صلاح، ونظر إلى أمه بريبة، وأطلق قدميه إلى الدور العلوى، وهو ينادى عليها، سارة.. سارة.. ودخل غرفتها ليجدها فارغة، ولا أثر لأى من متعلقاتها على مكتبها أو شماعة ملابسها.

دب القلق في قلبه ففتح دولاب الملابس ليجده فارغاً، هبط السلم مسرعاً.

صلاح: أمى.. أمى أين ذهبت سارة؟

عبد الله: ما الأمر يا صلاح؟

صلاح بتوتر وصوت عالٍ: أين سارة يا أمى؟

سعاد بحزم وصوت يشوبه القوة: سارة مشيت من البيت، لقد حكيت لها كل شيء وحكمت ضميرها، وتركت لها اتخاذ القرار، وهى مشيت.

عبد الله بانفعال وهو ينهض من كرسيه وكاد أن يقع: اتجننتى يا سعاد، قلت لك لا تحكى لها شيئاً حرام عليكى، هى لها مين غيرنا؟

سعاد: وأنا ليس لى إلا بيتى، أين أذهب بأولادى، هل تظنون أن الأمر سهل على، إنها ابنتى التى أخذتها في حضنى سنين، هل سهل على أن اتركها هكذا، ثم إنى لم أطردها، هى مشيت وحدها.

صلاح وهو ينظر إليها في وجوم: حرام عليكى يا أمى حرام.. حرام عليكى.

مرت دقائق أم ساعات لا يعرف صلاح سوى أنه واضع رأسه بين كفيه وجالس على الأريكة بجوار سرير والده مغمض العينين لا هو نائم ولا مستيقظ.

عبد الله: خلاص يا بنى، هون عليك، وفى الصباح اذهب إلى عمتها في مصر وأحضرها واتصل بسامى بك وانهى الأمر واعتذر له، ونخرج من هذا الكابوس، ويفعل الله ما يشاء يا بنى في أمر الأرض، ما يحدث لغيرنا يحدث لنا، سوف أبيع الماكينات وأبحث عن عمل في أى ورشة أخرى أو حتى أفتح دكان بقالة أو أى شيء، لن نموت من الجوع يا بنى.

سعاد تقطع حديثهم بنفس الصلابة والصوت المتحجر: هو هيكلم سامى بك بس علشان يحدد ميعاد الخطوبة.

صلاح بصوت حاد: ارحمينى يا أمى.

سعاد: ارحمنا أنت وأرحم أبيك وأخوتك واحمد الله على النعمة التى قدمها لك، ثم أنا ذهبت لسامى بك وقابلت العروسة وأمها وحددت موعد الخطوبة.

صلاح بصرخة مدوية: حرام عليكى يا أمى حرام، ماذا فعلت.

سعاد: اعقل يا صلاح... أنا أخذت القرار الصح، القرار اللى أنت مش قادر تخده، أو بمعنى أصح القرار اللى أنت عاوز تخده بس مش قادر، لو لم تكن خطبتك لسارة ألم تكن ستوافق على شيرين؟ طبعاً كنت هتوافق.... خلاص أنا أنهيت علاقتك بسارة.

صلاح: لن أتخلى عن زوجتى يا أمى، لن أتخلى عن زوجتى.

سعاد: ياما بنات بتتخطب وينكتب كتابها وتنفصل وربنا بيعوضها خير، وسارة حلوة ومتعلمة وهتلاقى أحسن منك.

صلاح بعصبية وصوت عالٍ: قلت لك لن أتخلى عن زوجتى لن أتخلى عن زوجتى افهمى بقى.

سعاد تغير وجهها ودبت بيدها على صدرها: هو ده اللى كنت خائفة منه.

خرج صلاح من الغرفة وتوجه إلى التليفون في الصالة وفتح دفتر التليفون يبحث عن رقم عمتها حتى توصل إليه واتصل بها، وبعد السلام والسؤال عن صحتها عرف أنها لم تذهب إليها فكاد يجن أكثر، وجلس بجوار التليفون لا يستطيع التفكير أو الحديث واذا بأمه أمامه.

سعاد: لن يفرق معى ما قلته الآن، فلتتحمل نتيجة خطئها، فلن أتحمل أنا وأولادى نتيجة خطئكم وتسرعكم.

صلاح: هل ثقتها في ابنك غلطة، هل ثقتها وحبها لابن عمتها وخطيبها والعاقد عليها غلطة يا أمى؟

سعاد: عندنا غلطة، فالبنت تظل بنت لا يقربها عريسها حتى يقام لها الفرح وتعرف الناس كلها، أنا لن أتحمل نتيجة خطئكم.

صلاح بصوت عال: ليس وقته الآن، إنها لم تذهب لعمتها أين زوجتى يا أمى أين ذهبت؟

عبد الله بصوت عال من حجرته: صلاح انزل بكرة مصر دور عليها، حرام عليكى يا سعاد، حرام عليكى، البنت راحت فين، حرام عليكى.

وفى الصباح استيقظت سارة لتتفق مع رنا على أن تهدأ قليلاً وترتاح ليوم أو يومين ثم تساعدها في البحث عن عمل وسكن.

وكان كل أمل سارة أن تجد رد فعل بالبحث عنها، وخاصة أنها اتصلت بعمتها لتخبرها أنها تقيم لبضع أيام في القاهرة عند رنا ولم تخبرها عن الأسباب.

بالفعل بدأت في البحث في الجرائد والإعلانات عن صيدلية أو عمل في مصنع أو شركة.

انطلق صلاح إلى بيت عمتها في الصباح للبحث عنها، فلم يجدها في المنزل، وعرف من أبنائها أنها سافرت فجأة عدة أيام لابنتها في الصعيد بعد أن اتصلت بها تخبرها بحالة وضعها الصحى الخط في الحمل وأنها تحتاج إليها لترعاها وتهتم بها فسافرت على الفور، فأخذ منهم عناوين باقى أقاربهم من بعيد، ودار عليهم في القاهرة وضواحيها حتى المساء يبحث عنها، واتصل بوالده مساءاً على أمل أن يكون عرف شيئاً ولكن لا أمل.

اتصل بعمها في السعودية لعلها اتصلت بهم وكلهم أخبروه أنهم لا أحد يعرف عنها شيئاً، عاد إلى قريته مساء خالى اليدين والقلب والعقل من أى معلومة عنها تريح قلبه وكل الأفكار وكل التوقعات تدور في رأسه دون توقف.

لم تمر أيام حتى وجد سامى يتصل به ليحدد موعد لزيارتهم واستقبالهم في بيته، ليجد صلاح نفسه في موقف لا يحسد عليه ويجد نفسه مصطحب أمه وأبيه وواقف على باب بيته في المعادى، وكل أمله أن يصل هو مع شيرين إلى حل، ويستطيع أن يجعلها هى من ترفض الزواج منه، أو يثنيها ويغير من رأيها.

ولم يهدأ ذهنه أو يتوقف عن التفكير في سارة والبحث عمن من الممكن أن تكون عنده!

تعبت سارة من البحث كل يوم عن عمل والمرور في الشوارع والسؤال في الصيدليات، وفى المساء وهى تتناول العشاء مع رنا ووالدتها رن جرس التليفون.

رنا: ألو أهلاً كيف حالك يا تامر أخبارك إيه، الحمد لله نحن بخير، خذ ماما معك.

والدتها: كيف حالك حبيبى إحنا بخير وأنت ومراتك أخباركم إيه؟ نفسى أراك، تعالى في الإجازة.

انتهى حديث رنا ووالدتها مع شقيقها تامر لتكمل حديثها مع سارة: تامر أخى أنت تعرفينه.

سارة: طبعاً، كيف حاله وحاله زوجته.

رنا: بخير الحمد لله، أنت تعلمنى أنه يعمل في الغردقة منذ أن تخرج، ويعيش في استراحة تابعة لعمله هناك.

سارة بتنهد: ياه آه لو أجد عمل هكذا، العمل والسكن مع بعض، أكون في منتهى الراحة.

لمعت عينا رنا بفكرة فانطلقت: ما رأيك أكلمه يبحث لك عن عمل هناك، فمن الممكن أن تجدى عملاً وإقامة في نفس المكان.

سارة بفرحة: تحدثى معه أرجوكِ.

لم تكمل رنا طعامها فعاودت الاتصال بأخيها وطلبت منه البحث لسارة عن عمل وإقامة في الغردقة.

ومرت الأيام سريعاً لا صلاح ينسى ولا يكل من البحث عنا، ولا هى تهدأ أو تنسى، وتتمنى أن تراه أو يبحث عنها، و يسأل عنها عمتها.

أما هو فقد اتصل بأحد الضباط أصدقائه من القرية، وطلب منه بشكل ودى البحث عن أى أخبار عنها، وبالفعل اتصل صديقه ببعض أصدقائه من مصر أن كانوا يعرفون أى أخبار أو وصلت لهم أى إخبارية عن حوادث بأوصافها أو اسمها.

لم يلبث تامر شقيق رنا إلا أن يجد لسارة عملاً في اليوم التالى في صيدلية ملحقة بإحدى القرى السياحية والإقامة بها في أحد الغرف التابعة للموظفين، وكأن القدر يهيئ لسارة أمراً لا يعلمه إلا الله.

وبالفعل وافقت سارة واعتبرتها فرصة رائعة لكى تبعد أكثر مما تستطيع، وأنها أفضل فرصة لكى تعيش وتهرب من أفكارها وأحزانها في نفس الوقت، فكل يوم يبعد بينها وبين اتصال صلاح، وكل يوم يمر دون أن يتصل أو يبحث عنها كان يزيد من الألم والفجوة بينهم.

لم يعد يعرف صلاح معنى لراحة البال، وأصبحت علاقته بأمه سيئة إلى أبعد حد، حتى الحاج عبد الله لم يعد يتحدث إليها أو حتى يعاتبها.

وفى أقل من أسبوع وجد صلاح نفسه يلبس شيرين خاتم الخطبة في جو عائلى بين والديهما وأشقائها دون الإحساس بأى فرحة أو سعادة، كان

صلاح مثل المنوم مغناطيسياً فهو ينفذ دون إحساس أو تفكير وكأن الأمر دور يمثله دون معنى.

ورغم محاولت شيرين من ناحيتها الاجتهاد في إنجاح العلاقة بينهم والتقرب إليه بكل الطرق إلا أنه كان هناك حائط من الصمت بينهم أرجعته شيرين إلى السرعة في اتخاذ القرار وتنفيذ الخطبة.

وطلب سامى منه أن يستلم عمله في الشركة، ووافق صلاح وقَبل العمل وتسلمه ولكنه لم يشعر بالفرحة، فقد ذهبت من كانت فرحتها بهذا العمل أكثر منه وراحتى من كانت تشاركه أحلامه، بماذا سنحقق وندخر من هذا العمل؟

كان كل أمل صلاح أن يعثر عليها أو على أى خبر عنها، والتساؤلات والاحتمالات لا تترك عقله لحظة، كيف اختفت؟وأين ذهبت؟ ولماذا لم تنتظرني؟ لماذا لم تتشاجرمعى؟ أو تخاصمنى؟ أوتغضب؟ أو تفعل أى شىء؟ حتى لولم يكن لى ذنب، كنت سأتحمل أى شىء منها غير هذا العقاب الفظيع على ذنب لم أرتكبه، لماذا صدقت أنى ممكن أن أتخلى عنها؟ لماذا صدقت أنى ممكن أن أتركها؟ وكيف أترك حبى وطفولتى وعمرى كله؟ سامحك الله يا أمى.

لم يهدأ لسامى بال إلا وقد جهز لكل شىء خلال أيام، فشقة شيرين جاهزة، وبها كل متعلقاتها من موبيليا لأجهزة لكل شىء ولا تحتاج أى

تعديلات، فما كان منه إلا أن اتصل بصلاح ودعاه على العشاء هو ووالداه.

سامى على كرسى الصالون بعد العشاء وهم يتناولون الشاى: تفضلوا هذا بيتكم.

شيرين ووالدتها يرحبون بالضيوف: تفضل يا عمى تفضلى يا طنط، إن صلاح لم يأكل كثيراً، هذا كيك جيد جداً.

صلاح: شكراً شكراً.

سامى: بعد إذنك يا حاج عبد الله لقد حجزت في قاعة الفندق يوم الأحد القادم لعقد القران والزفاف فكل شىء جاهز، وصلاح استلم العمل بالفعل، وشقة شيرين جاهزة ولا تحتاج شيئاً، وأنا سأصرف ثلاثة شهور مقدم من مرتبه ليجهز نفسه لأى احتياجات.

صلاح بتوتر وتلعثم: أليس الأمر متعجل قليلاً.

سعاد مسرعة تغطى على توتر صلاح: ألف مبروك يا سامى بك.

و

وأطلقت زغرودة في الهواء، وعم عبد الله ينظر إليها بنظرة غضب ويكتم غضبه.

سامى ضاحكاً في الهواء بصوت عال: الله يبارك فيك يا حاجة، مفيش استعجال ولا حاجة يا صلاح هو أنتم لسّه هتتعرفوا على بعض.

وفى منزل رنا كانت سارة تدب ملابسها في حقيبتها على السرير الذى تنام عليه في حجرة رنا، وإذا بوالدة رنا تدخل حجرتها وتربت على ظهرها وتجلس بجوارها.

والدة رنا: هل تظنى يا بنيتى أن عملك في الغردقة فرصة جيدة.

سارة: نعم يا طنط، فهى إقامة وعمل، ولن أحمل هم الطعام، ومرتب جيد.

والدة رنا: وصلاح وخالك ألن تتصلى بهم وتخبريهم أين تقيمين.

سارة بصوت حزين: لا، هم لم يبحثوا عنى حتى الآن.

والدة رنا: ومن أدرانا يا بنيتى أنهم لم يبحثوا عنك.

سارة والدموع تنزل من عينيها: لقد تركت رقم منزلك لعمتى، لو سألوا عنى هيعرفوا أنى هنا، إننى كنت بالنسبة لهم همًّا تخلصوا منه، وصلاح لم يرغمه أحد على شيء فهو يعرف شيرين من أيام الجامعة، وانتهز فرصة عودة الاتصال بينهم ليعيد القديم بينهم، وما العائق؟ أنا! لا يهم.. من السهل التخلص منى.

والدة رنا: اسمعى أنا لم أتحدث معك في الأمر لحساسية الموقف، وخوفاً من أن تفهمى خطأ، أو أنى لا أريدك أن تقيمى معنا، ولكن الآن أقول لك وبحزم حتى لو كنت غاضبة منهم فهم أهلك في الأول والآخر، وليس لك غيرهم، ومن حقهم أن يعرفوا أين أنت، ثم حتى لو أردتى ألا تعودى الآن فمن الممكن أن يكون لديك فترة تفكرى فيها بهدوء، ولكن أن تتركى الأمر هكذا لا يصح، من حق صلاح أن يتحدث أن يدافع عن

نفسه، أن تسمعيه، حتى لو كلامه أغضبك، أنت تحتاجين إلى هـذا الكـلام لكى يستريح قلبك وتهدئى ولا تندمى فيما بعد. هل تفهمينى؟

سارة والدموع تنزل من عينيها في صمت: أفهمك.

والدة رنا: إذن أعطينى رقم تليفون بيت خالك، وأنا سأتصل بهم.

أملت سارة رقم التليفون لها وظلت في الحجرة لا تتحرك، وكأنها تنتظـر قرار محكمة، ووالدة رنا اتجهت إلى الصالة لتتصل ببيت خالها.

والدة رنا: ألو السلام عليكم.

صوت غريب: وعليكم السلام.

والدة رنا: ممكن أكلم الأستاذ صلاح أوالحاج عبد الله.

- مين حضرتك

والدة رنا: أنا والدة رنا صديقتهم مـن مصـر.. جـارة والـدة سـارة الله يرحمها، من معى؟

ـ أنا أم محمد جارتهم، لا يوجد أحد هنا، كلهم سـافروا مصـر، الليلـة فرح الأستاذ صلاح عقبال عندكم.

والدة رنا باندهاش وتوتر: فرح الأستاذ صلاح! طب يـا حاجـة بلغـيهم إن سارة عندى.

اخترقت الكلمة أذن سارة، وانقبض قلبها لا بل اعتصر ألمـاً، يـاااااه يـا الله.

كل دقات قلبها تسمعها أذنيها، دارت الأرض بها، وتغيرلون الأشياء، انهارت سارة على الأرض فاقدة الوعى.

هرعت أم رنا ورنا إليها ليفيقوها، وبعد دقائق قلت أو كثرت لا أحد يعلم مر كل شىء ببطء وكلمات التعزية من رنا وأمها لا تسمع منها شيئاً (ولا يهمك، أنت ستذهبين إلى عمل جديد وعالم جديد، الحمد لله على كده، هكذا فعلت الصواب وعرفنا أننا لم نخطىء في حقه) كلمات.. كلمات.. كلمات، لا تعيها ولا تفهمها سوى أنها انسحبت إلى وسط السرير وتقوقعت عليه حتى الفجر لا نائمة ولامستيقظة حتى وجدت الدموع تنساب من عينيها دون توقف. بكت وبكت وبكت أكثر مما بكت وهى تخرج من بيت خالها وهى لا تعرف أين تذهب، وبكت أكثر مما بكت وهى تخرج ساحبة حقيبة ملابسها ويتمها خلفها ممسكة بيد خالها، اليوم فرح صلاح ياه هل كنت رخيصة إلى هذه الدرجة؟.

وعلى الجانب الآخر وقبل فرح صلاح وشيرين بيومين، استدعاه سامى في مكتبه.

سامى: أهلا يا صلاح يا ابنى، كيف حال العمل؟

صلاح: بخير، وبدأت أتعود على الزملاء.

سامى: الساعة تعدت السادسة مساءً لماذا لم تنصرف؟

صلاح: كنت سأنصرف بعد قليل.

سامى : لا ترهق نفسك في العمل الآن؟ هيا أريدك أن تغادر وتستريح ، وتجهز نفسك أنت عريس ، وكلها يومين وتتزوج ، و لابد أن تكون في أحسن حال .

صلاح بوجوم : حاضر يا سامى بك .

سامى : آه صحيح ، أنت ذكرت لى من قبل أنك كنت عاقد قرانك على فتاه قريبة لك .

صلاح بتوتر : نعم .

سامى : لكن أنت لم ترينى قسيمة طلاقك حتى الآن .

صلاح فوجئ بسؤاله ونظر إليه دون أن ينطق وأكمل سامى حديثه .

سامى : ألم تطلقها حتى الآن؟ شكلك نسيت أو محرج ، على العموم أنا أريد أن أرى القسيمة قبل عقد القران .

ابتسم صلاح ابتسامة ليس لها معنى وهز رأسه وأجاب : حاضر .

أفخر وأجمل قاعة أفراح في الفندق الكبير على النيل ، رجال ومعازيم من كل أطياف المجتمع ، المطرب النجم الشاب ، والراقصة النجمة السينمائية ، ومجموعة من الفنانين الصغار كل هذا من أجل إحياء الحفل ، وعشاء من أفخر وأجمل الأصناف ، فرغم أنها لم تكن الزيجة الأولى لابنه سامى إلا أنه كان ينتهز مثل هذه المناسبات ليعزم فيها كل رجال الأعمال وأصحاب

المصالح ورجال الحزب وألمع النجوم في الفن، ولتكون فرصة هائلة للتعارف والاتفاق على الأعمال.

وكل ما يهمه أن يرى زوج ابنته السابق ووالده أنه استطاع أن يزوج ابنته لشاب أفضل منه، وفى مقتبل العمر، وسيكون أحد رجاله أيضاً، وفى الحجرة المرفقة بالقاعة والمجهزة لعقد القران وجد الحاج عبدالله وصلاح أن سامى بك الذى لم يتحدث معهم في شبكة أو مهر أو خلافه قد جهز كل شىء مع المأذون ليجد صلاح نفسه يوقع على قائمة منقولات باهظة بمبلغ خرافى ومؤخر صداق ربع مليون جنيه، وفى ظل الموقف والحضور لم يستطع أن ينطق بل وقع في صمت.

وقبل حتى أن يدخله قاعة الفرح كان قد أظهر صلاح له قسيمة طلاق سارة.

. . . . . .

الضيوف في القاعة يتراقصون والموسيقى والغناء حوله في كل مكان، وشيرين عروس جميلة تجلس بجواره في ثوب زفاف متألق وراق، ولكن كان فكره وعيناه شاردتين، أين أنت يا سارة، لم أحلم يوماً بحفل زفاف كهذا، ولا زواج بهذه الطريقة، ولم أحلم يوماً إلا أن تكونى أنت عروسى التى تجلس بجوارى في ثوب زفاف، نظر إلى شيرين، ليجد وجه سارة أمامه، ولكن الواقع أكثر ألمًا من الخيال.

وفى الفجر تقدمت والدة رنا نحو سرير سارة ومدت يدها تربت على ظهرها بحنان أم: هيا حبيبتى استيقظى، سأساعدك في جمع ملابسك حتى تلحقى بالأتوبيس، اعتدلت سارة ووجدت نفسها تلقى برأسها على صدر أم رنا وتبكى، ربتت بيديها على ظهرها وقالت: لا بد أن تتماسكى يا سارة، وأمامك حياتك وعملك ومستقبلك، وستجدين من هو أفضل منه.

سارة: ياه.. يا طنط هو في خيانة أكثر من كده.

والدة رنا: يا بنتى الدنيا فيها كتير، ولو وقفنا عند أول صدماتنا سننهار، اصمدى وقوى نفسك بنفسك، والقادم أفضل إن شاء الله.

هزت سارة رأسها: حاضر.

ثم نهضت من فراشها واستجمعت قوتها وانطلقت إلى الخارج تجر خيبة أملها وأطلال حب طفولتها وصباها والشعور بيتمها فوق حقيبة سفرها ولحقت بالأتوبيس المتجه إلى الغردقة.

مرت ليلة العرس بسلام ولم تمحَ صورة سارة من عينيى صلاح حتى وهوفى حضن عروسه، تذكر سارة وهى في أحضانه، ابتسامتها، خجلها، نظرة عينيها، حتى دفء أنفاسها، ولكنه القدر فليس كل ما نتمناه نحققه.

وفى الصباح كان سامى بك مجهزاً لهم السيارة ليقضيا أسبوعين للنزهة والمرح في الغردقة في أكبروأجمل قرية سياحية هناك.

عاد عم عبد الله وسعاد وأولادها إلى البلدة، وهى تحاول جاهدة أن تتحدث معه وتطيب خاطره وتقنعه أنه نصيب، وبعد أن أدخلته غرفته وجدت جارتهم التى تركت البيت أمانة في يدها حتى تعود تخبرها بأمر المكالمة التى استقبلتها ليلة أمس من سيدة تقول إنها جارة والدة سارة، وأن سارة عندها، ففكرت بذكائها الفطرى وسريعاً أخبرت الجارة ألا تخبر أحداً بأمر المكالمة التليفونية، وأنها ستتصل بها هى لترى الأمر، وتسأل عن سارة.

وفى نفس الوقت وضعت يدها على صدرها وتنهدت وقالت في نفسها: الحمد لله يبقى البنت عند صديقتها، الحمد لله أنها لم تصب بسوء، يارب تتصل مرة أخرى لأطمئن عليها فليس لدى رقم صديقتها، ولكن يجب ألا يعلم صلاح بالأمر فلا نريد أن نفسد عليه حياته.

تعرفت سارة على مكان عملها في الصيدلية في نفس الليلة واستقرت في حجرتها، وفى الصباح الباكر كانت مع زملائها في الصيدلية لتستلم العمل وتحفظ أماكن الأشياء، وتتعرف على طبيعته ونظام العمل، ولم يكن هناك معها سوى طبيب وعامل للنظافة، وأنها ستتقاسم الورديات معه، ولن يكونا سويًّا سوى في فترات محدودة، و أول أسبوع حتى تتدرب سارة جيداً على الصيدلية.

سعدت سارة بالأمر وشغل تفكيرها قليلاً عما هى به من ألم.

. . .

وفى إحدى الأيام وسارة ذاهبة إلى عملها في الصيدليه تمر في الممر الفاصل بين محلات الهدايا والعطور وبين الصيدلية لمحت بعينيها صلاح وبجواره شيرين.

لم تصدق عيناها في البداية، ظنت أنها تتخيل.

وقفت على جانب الممر في مدخل المحل لتتأكد مما ترى.

ولكن بالفعل هو صلاح عائد من البحر وبجواره شيرين ويحمل في يده حقيبة صغيرة.

دمعت عينا سارة وقالت في نفسها: ياه... ما هذا القدر ألم يجد مكاناً يذهب إليه إلا هذا..

عادت سارة إلى الصيديلة ولا تعرف ماذا تفعل، هل تختفى من القرية السياحية، أم تواجهه وتقتلع عينيه من رأسه.

...

وفى المساء وهى في الصيديلة، طلب منها المدير الصعود إلى إحدى النزلاء لكى تعطية حقنة سكر، فانتقلت بين ممرات الغرف في الفندق إلى أن وصلت إلى حجرة النزيل وأعطته الحقنة بهدوء وخجت وعند توجهها إلى الأسانسير، فتح أحد أبواب الغرف الموجودة في الممر، وفى لحظات كالوميض يلمح صلاح وهو على باب غرفته طيف سارة يدخل الأسانسير، لم يصدق عينية، فجرى ناحية الأسانسير ولكنه كان قد أغلق وهبط.

توقف وفكر قليلاً والتقط أنفاسه . . ثم أفاق على صوت شيرين من خلفه .

شيرين : ماذا تفعل؟ لماذا تقف هنا؟

صلاح : لا شيء فقط تخيلت أحداً ما .

ومر اليوم . . وسارة في عملها في الصيدلية ، وذهنها شارد ولا تعرف ماذا تفعل .

. . .

بحثت سعاد هنا وهناك في دفاتر التليفون حتى عثرت على دفتر تليفون قديم ، لتجد فيه رقم رنا وبمساعدة حسين ابنها الصغير طلبت منه أن يتصل برنا .

سعاد : اطلب الرقم ده ولما حد يرد قول عاوز أكلم أبلة سارة .

حسين : هى أبلة سارة عندهم .

سعاد : بطل رغى واتصل .

حسين : حاضر .

اتصل حسين حتى رد التليفون .

حسين : ألو ممكن أكلم أبلة سارة .

والدة رنا من الناحية الأخرى : مين معى .

حسين : أنا حسين ابن خالها .

والدة رنا : هى ليست هنا هى فى عملها .

حسين : متى ستعود؟

والدة رنا : بعد أسبوعين، ابقى كلمها بعد أسبوعين .

حسين : شكراً يا طنط . . وأغلق الخط .

سعاد بلهفة : ها ماذا قالت؟

حسين : هى في عملها وستعود بعد أسبوعين .

سعاد باندهاش : أسبوعين، لماذا؟ أين تعمل . .

ثم تنهدت وقالت : المهم أننا اطمأننا عليها الحمد لله .

. . .

مر اليوم ويليه الآخر وسارة تحاول الانشغال في عملها، وقررت ألا تفعل شيئاً، سوى الصمت حتى جاء يوم كانت عائدة من السكن إلى مقر الصيدلية مارة بين البازارت ومحلات الهدايا في القرية في الممر الضيق المؤدى للصيدلية، وإذا بصلاح عائد من البحر متجهاً للبهو يلمحها من ظهرها . . برقت عيناه وتخيل أنها ربما تكون هى، ألقى الحقيبة من يدية وجرى باتجاه الممر ينظر في كل المحلات حتى وصل إلى باب الصيدلية ولكن سارة كانت دخلت على الفور إلى الداخل لتبدل ملابسها وترتدى البالطو الأبيض .

جرى صلاح هنا وهناك في الممر وشيرين تنظر نحوه مذهولة من تصرفه وهو يتجول ويخبط في المارين وكأنه مسه شيطان، وتبرق عيناه خوفاً من أن

ترمش فلا يلحظها، حتى يأس وظن أنه يتخيل مرة أخرى، فعاد منكسراً إلى شيرين يعتذرويفكر كيف سيفسر لها الأمر.

توتر صلاح بشكل كبير والصمت يلازمه أكثر وهو يتخيل، فلو كانت هى سارة ماذا كنت سأفعل، وماذا كنت سأقول لها، آسف، تزوجت غيرك، طلقتك لأنى إنسان ضعيف لم أستطع أن أقاوم وأتمسك بك، أين كنتى؟ أم كنت سأخذها في أحضانى وأبكى؟

وفى لحظة مع نفسه وجد حاله يقول (الحمد لله أنها لم تكن هى).

مرت الايام سريعاً وكانت شيرين تريد بعض المستلزمات من الصيدلية فتوجهت هى وصلاح إليها، وكانت سارة واقفة بردائها الأبيض خلف المنضدة الزجاجية وبجوارها الطبيب الآخر وتتحدث مع أحد الزبائن ودخلت إلى المعمل خلف الباب الزجاجى لتحضر أحد الأدوية من الداخل.

وإذا بصلاح يدخل وبرفقته شيرين، وقف يتحدث مع زميلها وتختارشيرين متطلباتها.

أحضرت سارة الدواء واستدارت للخروج لتجد صلاح أمامها، فاستدارت سريعاً للخلف وأخفت وجهها خلف رف الأدوية حتى لا يراها، واستدارت ببطء لترقبه بحذر من خلف الزجاج دون أن يلحظها، لمحته وهو يتحدث بود وابتسام لشيرين وأخذ متطلباته ووضع يده على كتف شيرين وهم بالخروج من الصيدلية، تسمرت قدماها ودارت الأرض

بها، ونبتت الدموع من عينيها وهربت للخارج دون رغبة منها. حتى إنها لم تدرى بشيء سوى بالطبيب أمامها، دكتورة سارة ما الأمر، الرجل منتظر بالخارج، ما بك هل حدث شيء.

هزت رأسها بالنفى ووضعت علبة الدواء في يديه واعتذرت.

مرت الليلة صعبة على سارة وهى تتذكر وجهيهما وهما يضحكان لبعض، وصورة صلاح وهويضع ذراعه على كتفها وهى خارجة من الصيدلية.

ياه لقد تزوجها، وسعيد، ويضحك، بل يقضى شهر العسل هنا أيضاً، ماذا سأفعل الآن؟ وماذا إذا حضر إلى الصيدلية مرة أخرى وشاهدنى، هل أذهب إليه وأصفعه على وجهه، وهل تسمح لى كرامتى أن أصيح في وجهه، ماذا أفعل؟ أريد أن أقتله بيدى. أريد أن أصرخ به أن يطلقنى، ولكن هو من قتلنى أولاً. وربما يكون طلقنى أيضاً، ماذا أفعل إن رأيته أمامى في أى لحظة؟

لاشيء، نعم لا شيء. اتجاهله، لا بل ربما هو من سيتجاهلنى. أين أذهب يا ربى؟ أين أبعد أكثر من ذلك حتى أتخلص من كل هذا الألم.

ما ذا أفعل، هل ما كان بيننا مجرد ورقة وعقد قران، لقد كان حياتى وطفولتى وحلم صبايا، كيف يختفى مع كلمة وورقة طلاق، وهل أستطيع أن أطلقه من قلبى وعقلى وحياتى... ياه إن هذا كثير.

هكذا كانت الكلمات تدور في عقلها، فقررت أنها في الصباح ستحاول أن تبحث هى عنه، وتواجهه وتنفجر فيه وتفعل كل ما يحلو لها، حتى لو كان ضربه أمام المارة.

ذهبت إلى الاستقبال، سألت عن رقم غرفته، فعرفت أن الحجز باسم سامى بك وأنه سيترك القرية في المساء، تحسست سارة حركته وتبعته وهو ينزل من غرفته ويمر مع شيرين إلى صالة الطعام ، نظرت إليه من بعيد وهو يتناول الطعام معها ويبتسم، واسترقت النظر خلفه وهو يأخذ شيرين إلى الشاطئ، تألمت ولكنها كانت تريد هذا الألم لكى تكوى جرح قلبها أكثر فأكثر بهذه الصور حتى تشفى من حبه، وتستطيع أن تكمل الحياه وحدها.

ظلت ترقبه من بعيد، اقتربت أكثر وأكثر لتنظر في عينيه، وكلما زاد الألم تشعر بأنه مشرط جراح يستأصل ورم حبه من قلبها، وكلما حاولت سحب قدميها للخلف تجد قدميها متجرة.

استرقت النظر حاولت أن تسمع صوته، حاولت أن تقترب أكثر لتنفجر فيه، ولكن خانتها شجاعتها لتجد لسان حالها يقول، هو حتى لا يستحق أن أنفجر فيه وأن أريح قلبه من ذنبى. ولكن أنا من أحتاج أن أتخلص منه ومن حبه وأشفى منه للأبد.

*****

(٩)
قوانين الاستسلام

استلم صلاح عمله الجديد كأحد المديرين في شركة الأدوية، وعرف معنى المكتب الخاص، والكرسى الناعم، والساعى الخاص والسائق بالسيارة، عرف معنى السكرتير الخاص والمقابلات بالمواعيد السابقة، تنفس معنى الراحة، وشعر بنعمة إسناد الظهر على الكرسى الوثير والتنفس بعمق مع سماع الموسيقى الهادئة، ليتذكر في لحظات عمله في ورشة أبيه في الصيف والإجازات وسط أدخنة البلاستك البالى، تذكر وهو يقطع الشباشب البلاستيك ويبحث في أكوام بلاستيك القمامة القديمة، وانحنائه في الحقل خلف المحصول في مواسم الجنى القطن، والتعلق على السلم المتحرك في الصيدليات أجيراً عند أصحابها يرص الأرفف، وينظف الزجاج، ويحمل كراتين الأدوية على كتفه.

أغمض عينيه وتنفس وقال ياترى هل تساوى البيعة الثمن الذى دفع فيها؟ هل تساوى الثمن ابنة عمتى التى ألقيت بها؟ هل تساوى البيعة أنى أصبحت عبداً أجيراً لسامى بك، وشيرين؟هل تساوى يا صلاح؟ يارب تساوى.

اهتمت سارة بعملها جدًّا وبدأت تثبت وجودها به، ويعتمد عليها بشكل كبير، ومرت عدت شهور، ولم تنقطع علاقتها برنا أو والدتها بل

دائماً ما كانت تتصل بهم اسبوعيًّا لتطمئن عليهم وتطمنهم عليها، وكم كان يغلبها الشوق إلى رؤية خالها، ولكن تتذكر كلمة زوجة خالها، إن هذا أفضل له ولهم جميعًا فتنحنى على قلبها، وتضع يديها عليه لتعتصره من حنوه وشوقه لهم وتبتلع حنينها وتصمت.

ولم تكن والدة رنا يريحها وضع سارة بل انتهزت فرصة زيارة ابنها الضابط الشرطى لها في إجازته عائداً من أسيوط محل عمله هناك لتحدثه في أمر سارة.

والدة رنا: أنت تعرف سارة يا كمال جيداً وأنها تربت معكم، أنا لا أستطيع أن أقنعها بأمر الاتصال بخالها، وبعد موضوع زواج صلاح الأمر أصبح أصعب.

كمال: وهل لو أنا تحدثت معها ستسمع لى.

والدة رنا: الأمر ليس كذلك، ولكن أريدك أن تسال عن طلاقها، أليس من الممكن أن نعرف إن كان صلاح طلقها أم لا؟

كمال: طبعاً أقدر.

والدة رنا: متى سترد على؟

كمال: أعطينى يومين ثلاثة.

والدة رنا: لو كان طلقها ما رأيك بها؟

كمال وهو يضحك: حرام عليكى هو أنا كلما جئت إجازة لازم تجيبى عروسة، وهذه المرة مطلقة أيضاً.

والدة رنا: هى سارة وحشة؟ يارب هى توافق ثم كان عقد قران ما المشكلة؟

كمال ضاحكاً: عندما أعرف الأول طلقت أم لا نتحدث في الأمر.

بدأ صلاح يرسل لوالده كل شهر مبلغاً كبيراً من المال، ويزورهم محمل بالهدايا، وعادت الورشة تعمل كسابق عهدها وأكثر، وانتهى كابوس المصرف وسحب الأرض، عاد كل شيء أفضل مما كان، ولكن لم يعد عم عبد الله كما كان، فالفتاة التى كانت مع ابتسامة وجهها في الصباح تتفتح أبواب الرزق لعم عبد الله اختفت، فكما كان يقول ذهبت وضاعت منى البركة مع ذهاب هذه اليتيمة التى كانت تنير بيتى.

وسعاد تبذل كل ما أوتيت من قوة لكى تحسن من علاقتها بزوجها التى تدهورت بشدة ولا تتعدى حتى مجرد الكلمات والسلام في البيت الذى أصبح فارغاً عليهم إلا من الطفلين.

تميزت سارة في عملها فليس لديها غيره تجلس لوقت متأخر، وتكون بديلة عن أى زميل لديه ظروف، فعملها هو حياتها كلها، وفى يوم وجدت وفداً من زوار القرية من سياح ألمان لأحد نوادى المسنين في المانيا، ونظراً لإتقانها اللغة الألمانية التى تربت عليها في المدرسة حتى المرحلة الثانوية ومحافظتها على هذه الميزة من خلال قراءتها للروايات باللغة الألمانية التى كانت تشتريها من معرض الكتاب الذى كانت تحرص على زيارته كل عام

هى وصلاح، وتدخر من مصروفها حتى تشترى بعض الكتب منه، فانطلقت معهم بالحديث وفرحوا هم بها.

ولاحظ طاقم الفندق المضيف للفوج السياحى طلاقتها وتميزها حتى أعجب بها وحياها مدير القرية على مساعدتها للفوج السياحى وتقديم المعونه له، وليس فقط مجرد بيع بعض الأدوية أو المستحضرات دون اهتمام خاص.

ولم يمر يومان حتى سمعت سارة وكل من بالصيدلية بصراخ وهرج في الاستقبال المقابل لممر الصيدلية فجرى أحد زملائها ينظر ما الأمر، وإذا برجل كبير من السياح الألمان يهرول للصيدلية ويطلب المساعدة، فهمت سارة طلبه وانطلقت معه لتجد سيدة في الستين من عمرها ملقاة على الأرض وتعانى من أزمة قلبية، هرعت سارة لداخل الصيدلية وأخرجت حقنة وأعطتها لها في الوريد سريعاً كإسعافات أولية، وقامت بعمل التنفس الصناعى لها، وكل ما يلزم حتى حضرت سيارة الإسعاف واستقلت معها السيارة ورافقتها في المستشفى حتى استردت السيدة وعيها لتجد سارة بجانبها مبتسمة وتسلم عليها، وتتمنى لها الشفاء.

عادت سارة للقرية لتجد شكراً خاصاً من صاحبها ومكافأة مالية، استقرت حالة السائحة، وظلت في المستشفى يوماً بليلة وذهبت إليها سارة في اليوم التالى، وقضت معها الليلة ولمَ لا فهى ليس لديها ما يشغلها بل إنها انتهزتها فرصة لتجد شخصاً يحتاج إليَها.

بدأت تنشأ علاقة خاصة بين هذه المسنة الوحيدة وسارة وساعدتها على إجادة سارة للغة في الحديث وتبادل أطرف القصص والحكايات

والذكريات. وفى يوم إجازة سارة أصرت (كرستين)وكان هذا اسمها أن تصحب سارة في رحلة بحرية، أخبرتها سارة عناوين عن تجربتها وحياتها الخاصة وأنها هاربة من قصة حب وفراق، لتخبرها الأخرى عن قصص لتجاربها العاطفية وزواجها وانفصالها، وهكذا التقى جيلان مختلفان لعالمين مختلفين وحضارتين مختلفتين ولكن جمعهما ألم قلبين وجراح عشق قديم.

وجاء موعد سفر كرستين، وكانت حزينة لأنها ستفترق عن سارة بعد أن شعرت أنهم يعرفون بعض من سنوات.

كرستين: أنا سأسافر في الغد يا سارة.

سارة بأسى: أعرف.. وكل ما أرجوه ألا تنسينى وتراسلينى دائماً.

كرستين: ما رأيك أن تأتى إلى المانيا؟ أنت ذكرتى لى أنك تعيشين وحدك، تعالى هناك سأجد لك فرصة عمل جيدة، وأنت تجيدين اللغة وتكملى دراستك هناك وأنا بيتى كبير ووحيدة، تعيشين معى في بيتى، صدقينى لن تندمى.

سارة باندهاش: ياه هذه الفكرة لم تختر ببالى أبداً.

كرستين: فكرى في الأمر بجدية، أنا سأساعدك، وأنا لن أنسى أبداً أنك أنقذت حياتى.

سارة: لا تقولى هذا.

كرستين: سأترك لك كل وسائل الاتصال بى، وإذا نويت ما عليك إلا أن تحجزى التذكرة وتأتى إلى فوراً، ولا تحملى أى هم لأى شىء.

برقت الفكرة في عينى سارة ولكنها أرجأتها قليلاً فهى لم تستقر نفسيتها بعد لكى تخوض مغامرة كهذه.

بدأ سامى يحمل صلاح الكثير من الأعمال، ويكلفة بالسفر هنا وهناك، ولمس فيه أنه يخاف الله وأنه يخاف الحرام، ويجتهد في عمله، ولم يدخر صلاح جهداً أو معلومة بل تطرق لكل شىء ويبحث خلف كل شىء، ليس حباً للعمل فقط أو لراحة ضميرة مقابل هذا الرخاء المادى الذى ينعم به ولكن حتى ينسى سارة التى لم ينسها لحظة.

ولكى يبتعد قدر الإمكان عن شيرين ولايكون وجوده في البيت إلا لفترات قصيرة.

ولم يمر عدة شهور على زواجه إلا وأثارت شيرين الدنيا وبدأت تشتكى لأمها عن فتور العلاقة بينهم، وتركه لها لأيام كثيرة، والسفر هنا وهناك وراء متطلبات العمل، وكيف أنها لا تشعر أنه عريس جديد من المفروض أن يتقرب ويسعد بزوجته.

فما كان من أمها سوى أن تسقط كامل غضبها عليها: هذه هى جوازتك الثالثة و لا تنطقى بكلمة واحدة، ولابد أن تتحملى ظروف عمله، وتحمدى الله أن والدك يحبه ويعتمد عليه، ماذا تريدين؟ كل مرة تتزوجى وتأتى تشتكى وأبوك يسمع كلامك والموضوعات، تكبر وتكون النتيجة طلاق، ماذا تريدين؟ احمدى الله أن زوجك رجلاً مثل هذا، مطيع وطيب ومحترم.

اسمعى جيداً إن أباك دللك أكثر من اللازم وأكثر من شقيقاتك، هاهم شقيقاتك الثلاثة عايشين ويربون أولادهن وازوجهن رجال أبوك في العمل. ماذا تريدين؟

ولم تكتفى أمها بذلك بل ألزمتها بطفلها وأجبرتها أن تأخذه معها إلى بيتها لكى يشغل وقتها ويتعود ابنها على وجوده في حياتها، بل ولكى تتوقف هى عن التذمر على كل صغيرة وكبيرة، وتتحمل مسؤولية الحياة.

سحبت شيرين نفسها وابنها وعادت إلى منزلها، وبعد أن وضعت متعلقات طفلها في حجرته ووضعته في سريره، وظلت تفكر في حديث والدتها لها، هل فعلاً هى لا تستطيع تحمل المسؤولية، أم أن المشكلة في التسرع في الزواج أم أن علاقتها بصلاح تحتاج إلى وقفه.

وانتظرته كالعادة لوقت متأخر دون أن يخبرها أين هو أو متى يعود.

وبعد أن تعدت الساعة الثانية عشرة مساءً حضر صلاح ليجدها تنتظره في بهو الشقة والضوء مظلم وهى ممدة على الأريكة حتى فتح الباب ودخل في هدوء ظنًّا منه أنها نائمة فوجدها تنتظره في الظلام.

صلاح: مساء الخير، أنت مستيقظة حتى الآن؟

شيرين: أنتظرك.

صلاح: ولماذا لم تنامى في حجرتك؟

شيرين: خفت أن أروح في النوم.

صلاح وهو يشير لغرفة نومه: طيب تعالى، أريد أن أغير ملابسى فأنا متعب جداً.

شيرين: هل تريد أن تأكل؟

صلاح: لا، شكراً، لقد أكلت في المكتب.

شيرين بغضب: مثل كل يوم، وهل كنت في المكتب إلى هذا الوقت؟

صلاح: آه ألم تتصلى بى منذ ساعتين ووجدتينى في العمل.

شيرين باقتضاب: حمداً لله على السلامة.

دخل صلاح وبدأ في تغيير ملابسه، وجلست شيرين على حرف السرير وبدأت في الحديث بهدوء شديد: ماما أعتطنى الولد، وقالت لى إنها لن تستطيع أن تعتنى به بعد الآن.

صلاح التفت إليها بهدوء: وما في هذا الأمر إنه شىء طبيعى، من المنطقى أن يكون الطفل مع والدته، الغير منطقى هو أن يكون مع والدتك.

شيرين: ألن يضايقك هذا الأمر؟

صلاح: طبعاً لا، على العموم هذا أفضل فهو سيشغل وقتك ويسليكى وأنا في عملى.

شيرين: صلاح أريد أن أتحدث معك.

صلاح وهو يجلس على الكرسى ويخلع شرابه: تحدثى فأنا أسمعك.

شيرين : هل ستظل هكذا كثيراً؟ هل ستظل بعيداً عنى هكذا؟ فأنا لا أشعر منك بأى فرحة أو شوق عريس، لم يتجاوز فترة زواجه الشهور.

تغير وجه صلاح : أعرف أنك تزوجتى من قبل، فلا داعى لأن تقارنى بينى وبين رجل آخر.

شيرين سريعاً : لا أقصد هذا.

صلاح : وماذا تقصدين؟

شيرين : أقصد أن نجلس مع بعض، نتحدث، نخرج، نأكل، أنا لا أراك، ومعظم الإجازة تقضيها نائماً أو في مشاوير أخرى، أنا لا أشعر أنك تعيش معى.

صلاح باقتضاب : أنا أريد أن أثبت نفسى في عملى، وأنت تعلمين أن سامى بك محملنى بالكثير من العمل، وأريد أن أكون عند حسن ظنه بى.

شيرين : هل الأمر هو العمل فقط؟

صلاح : قولى ماذا تريدين وفى ماذا تفكرين؟

شيرين : أعرف أن زواجنا جاء سريعاً، وأعرف أنك كنت تخطب إحدى قريباتك، ولكن أنا كنت أعرفك منذ سنوات، وأنت تعرف أنى كنت معجبة بك، وأعرف أن أمر زواج الأقارب به الكثير من الارتباطات والتقاليد، وأنه ربما لم تكن مرتبطاً بها عاطفيًّا، وهذا ما شجعنى على الارتباط بك، فلو كنت تكن لها مشاعر أو تحبها ما تركتها، مهما كانت المغريات، أعرف أن أبى هو من تحدث معك أولاً ولكن ألم تكن هذه فرصة

لإماطة الصعاب التى ذكرتها لى فيما مضى بأن المسافات بيننا بعيدة، فها هو أبى أزاح هذه الصعاب، إذاً فلماذا هذا الفتور منك؟

وعندما جاءت والدتك لترانى وأبلغتى أسفها لمرض والدك ومباركتها للزواج أيقنت أنك من أرسلها حتى لا نفهم تأخيرك بشكل خاطئ.

صلاح تغير وجهه وذهب بوجهه للاتجاه الآخر: ممكن أعرف لماذا هذا الحديث الآن؟ أعتقد أننا تزوجنا منذ شهور، ولا داعى لكل هذا الحديث.

شيرين بعصبية: سببه أننى لا أشعر بك، ولا تشعر أنت بى، صلاح: اشعر بى، أنا لا أتحمل فشل للمرة الثالثة، أنت لا تعرف سوى شيرين بتاعت الجامعة المرحة، الضاحكة، الشقية، لا تعرف ما مررت به خلال السنوات الثلاث الماضية، لا تعرف معنى أن تتزوج فتاة مرتين خلال ثلاث سنوات وتخرج بطفل لم يتجاوز الشهور.

صلاح: اسمعينى يا شيرين، لن أقول لك أننى كنت أحبك أو أهيم بك بعد أن تركتى الكلية، أنت كنت مجرد بنت جميلة أثارت انتباهى ونظرى مثلما كنت تثيرين اهتمام وملاحظة جميع الشباب، وعندما قابلتك مرة أخرى بالفعل لم أفكر لحظة في إعادة هذه المشاعر.

زواجنا جاء بالعقل تماماً، هل فهمتى.. بالعقل تماماً، ولا تحاولى أن تقنعينى أنك أحببتينى أو أنك تفجرت مشاعرك القديمة نحوى بمجرد أن رأيتينى في مكتب أبيك، شيرين: أنت تزوجتينى لان أباك رأى في أنى رجل مناسب لك، وأنا تزوجتك لأنك كنتى فرصة جيدة، أنت لا تريدين أن تفشلى، وأنا لا أريد أن أخسر فرصتى أو أفشل أنا أيضاً.

تنهد صلاح وأدار بوجهه للناحية الأخرى، وبدأ يكمل في تغيير ملابسه: أنت طلبتى أن نتحدث بصراحة، وأنا أحدثك بمنتهى الصراحة، لن أقول لك إنى أحبك، وأن المشاعر تفجرت فجأة، وأنى لم أستطع تخيل حياتى بدونك، لا.. فأنا كانت لى أحلام أخرى أبسط من كل هذه الأحلام، وإنسانه أخرى أنا كنت كل شيء بالنسبة لها، تخليت عنها ليس من أجلك، ولكن هى من انسحبت من حياتى بمجرد أن عرفت أنها تقف أمام مصلحة أسرتى ومصلحتى الشخصية ونجاحى، هى من انسحبت قبل أن أنسحب أنا، وهى تظن أنى أنا من تركتها أولاً ولكن هذا لم يحدث، أنا كنت مستعد أن أتخلى عن الأرض والورشة وأعمل في أى مكان وأى صيدلية ولا أتخلى عنها. هى الآن من حقها أن تلعنى في كل نفس يدخل صدرها، ولا لوم عليها، ولكنى أقولها لكِ لم أتخلى عنها، ولكنه القدر من رسم لنا هذا.

شيرين تغير وجهها بشدة وبدأت في البكاء: تقولها لى بمنتهى الصراحة والبساطه أنك لم تكن تريد أن تتركها.

صلاح بعصبية: أنت من طلب الصراحة، هاهى الصراحة، أعرف أنها مؤلمة. ولكنها الحقيقة، شيرين الزواج نصيب وقدر وأنا وأنت نؤمن بأننا قدر بعض ونصيب بعض، ليس كل زواج يبنى على مشاعر وحب ولكن يبنى على تفاهم وعدم أنانية، وأن يعرف كل واحد منا واجباته ويقوم بها دون أن يمن على الآخر بأنه يقوم بواجباته، هكذا ستنجح الأسرة.

أما أنت فلا تريدى أن تبذلى أى مجهود بل تريدين كل شىء بدون صبر أو عناء، وتتهمينى فجأة بالبرود العاطفى، ولم تصبرى حتى على بعض الوقت لكى تنمو المشاعر القوية بيننا وحدها.

شيرن: أنا في نظرك هكذا.

صلاح ببرود: طلبتى الصراحة وها هى.. فكرى قليلاً في كلامى ولنتحدث فيما بعد.

انتهى حديث صلاح مع شيرين وساد صمت مميت بينهما ولكن لم يصمت عقل شيرين التى دار الكلام في ذهنها طويلاً وأعادته كثيراً وخصوصاً بعد أن ألقى صلاح برأسه على الوسادة ونام بعمق، وكأنه تخلص من عبء كبير كان يحمله على صدره.

لم يتوقف كمال شقيق رنا من البحث عن الأمر الذى طلبته منه والدته في هل طلق صلاح سارة أم لا؟ وبالفعل باتصالاته عرف بالأمر وأخبر أمه تليفونياً به، وعلى قدر ما حزنت فقد حمدت الله أنه لم يتركها معلقة.

واتصلت بها أم رنا لكى تخبرها بالأمر.

أم رنا: كيف حالك يا حبيبتى.

سارة: الحمد لله يا طنط.

أم رنا: سارة أنا أريد أن أخبرك بأمر وأخشى أن تحزنى، لكن لابد أن تعرفى.

سارة: خير يا طنط.

والدة رنا: كمال اتصل بى وعرف أن صلاح طلقك قبل ما يتزوج.

سارة صمتت قليلاً ثم قالت وصوتها يهتز بالبكاء: طبعاً طبعاً... وهل كان سامى بك سيتركه متزوجاً بى؟

أم رنا: لا تحزنى يا بنتى فهذا تحصيل حاصل وأمر متوقع.

سارة وهى تحبس دموعها: لا تقلقى عليّ أنا بخير.

أم رنا مبتسمة: أنا أتصل بك لأمر آخر أهم، أنا سأنتظرك أول يومين في رمضان نفطر سويًّا.

سارة: لا تحملى همى، فأنا لن أستطيع أن أترك العمل، يعتمدون عليّ هنا حتى يسافروا هم لأسرهم.

وبعد إلحاح من والدة رنا توصلت أنها ستحضر في العيد لزيارتهم وتقضى معهم يومين من آخر رمضان.

وجاء شهر رمضان وسافر زملاؤها في العمل إلى أسرهم، وظلت هى وحيدة تتحمل مسؤولية الصيدلية لوحدها، وكم كانت فترة عصيبة عليها أن تقضى أول أيام رمضان وحيدة تأكل في المطعم لا أسرة ولادفء وذكرتها بأول أيام رمضان بعد وفاة والديها وهى في بيت خالها، ولكن لم يخفف عنها سوى حنان خالها ودفء مشاعره، وذكرياتها مع صلاح لا تفارق خيالها وكيف كانت أمنياتهم أن يقضيا سويًّا أيام رمضان معًا.

أطاعت سارة أمر والدة رنا وعادت إليهم لتقضى معهم آخر أيام من شهر رمضان وأول أيام العيد لتعود بعد ذلك إلى عملها في القرية السياحية .

حضر صلاح إلى والده في الأسبوع الأول من رمضان محملاً بالهدايا ومتطلبات رمضان التى لم يروها يوماً في حياتهم .

صلاح : كل سنة وأنت طيب يا أبى .

الحاج عبد الله : وأنت طيب ، لماذا تركت بيتك وزوجتك وحضرت؟

صلاح : ألا أقضى يومين من رمضان معكم يا أبى؟

الحاج عبد الله : لماذا لم تحضر زوجتك معك مادام أنك جئت لتفطر معنا يومين؟

تحرج صلاح ولم يستطع أن ينطق : إنها مشغولة وستذهب إلى أمها .

سعاد : لا تغضب حبيبى أصل أبيك انتظرك أول يومين ، ولكنك لم تحضر .

صلاح : سامى بك وعائلته دعونا للإفطار أول يوم ، وثانى يوم كان هناك إفطار عمل ، وها أنا حضرت في أول إجازة لم أتاخر .

الحاج عبد الله : هُم أهم من أبيك ، يا الله لم أعرف أنى أنا أيضاً رخيص هكذا .

صلاح : أنت الخير والبركه يا أبى ، حققك عليّ ولكن الظروف . . .

قضى صلاح اليومين في حجرته وكأنه في كابوس، لأول مرة يشعر بقرص الناموس والضوضاء والحمام الغير مجهز بأفضل التجهيزات، لأول مرة يشعر أنه غريب رغم أنه لم يغب كثيراً ولكنها النفس البشرية، ورغم حنينه لسارة الذى تجدد مع أول نظرة لفراشها وحجرتها إلا أنه حاول النسيان.

وحاول بكل ما أوتى من قوة أن يصلح بين والده ووالدته، وأن يعاود الحديث معها إلا أن والده رفض وظل على موقفه أنها غريبة في بيته فلا يأكل معها أو يتحدث معها في أمر خاص بل كل حديثهم للضروريات وأمام الأطفال.

وعاد صلاح للقاهرة على وعد بأن يعود إليهم قبل ليلة العيد ويقضى معهم أول يوم من العيد.

حاول صلاح أن يكون أكثر ودًّا مع شيرين وخاصة بعد جلسة المصارحة المريرة التى كانت بينهما، فمرة يشترى لها ورد ومرة زجاجة برفان، وعزمها على الإفطار بالخارج.

وفى ليلة وهو عائد متأخراً كعادته من عمله وجدها نائمة، فلم يشأ أن يزعجها ونام هو أيضاً ليستيقظ على صرخة الطفل في الحجرة المجاورة.

نهضت شيرين إلى حسام طفلها وإذا بها تنادى عليه بصوت عالٍ: الحقنى يا صلاح الحقنى.

نهض صلاح إليها سريعاً ليجد الطفل متشنجاً في سريره وهى واقفة بجان

به متجمدة دون حركة، قلب صلاح الطفل بسرعة وصرخ بها: الولد درجة حرارته مرتفعة جداً، وعنده تشنج، أنت واقفة؟ . . . املئي البانيو بالماء فوراً.

وخلع صلاح ملابس الولد بسرعة واحتضنه ونزل به في البانيو بالتدريج حتى بدأ الطفل يفيق، ويبكى بشكل منتظم، وإذا به يصرخ بها: الطفل ساخن منذ متى؟ لا يمكن أن يكون ساخناً الآن فقط؟

شيرين وهى تبكى: إنه ساخن منذ الظهيرة وتوقعت أنه شى بسيط.

صلاح بصوت عالٍ: اعطينى الدواء المخفض للحرارة الذى عندك.

شيرين: لا يوجد عندى مخفض.

صلاح: هل هناك أم عندها طفل صغير ولا يكون عندها مخفض حرارة! اعطينى بشكير وبطانية بسرعة.

ولف صلاح الطفل واحتضنه وانطلق للخارج بملابس البيت ومفتاح السيارة والمحفظة في يديه.

وفى المستشفى لحقت به شيرين وهى تبكى لتجد الطفل بين يدى الأطباء، ويعلقون له المحاليل وصلاح يجلس بجانب الباب في منتهى التوتر، جلست بجواره في صمت، حتى خرج الأطباء إليه.

الطبيب: الحمد لله الولد الآن سيكون بخير.

صلاح: ماذا عنده.

الطبيب: نزلة شعبية حادة، سيظل في المستشفى تحت الملاحظة أربعاً وعشرين ساعة وسيكون بخير إن شاء الله.

صلاح: شكراً يا دكتور.

جلس صلاح بجانبها وهو صامت.

شيرين بتوتر شديد: شكراً يا صلاح تعبتك معى.

صلاح بحزم: هل أنت أم؟ هل أنت مسؤولة عن طفل لم يتجاوز عمره السنة؟ هل ينفع أن تكونى بهذا الإهمال؟ الولد كان من الممكن أن تفقديه خلال ساعات؟

سمعت شيرين كلامه في صمت وهى تبكى.

بدأ صلاح يشعر بتحمل مسؤولية هذا الضيف الجميل الذى دخل حياته، فأصبح يهتم به بشكل خاص وجهز مجموعة الأدوية التى يحتاجها أى طفل في هذه المرحلة العمرية، ويهتم ببرنامجه الغذائى ولا يمر يوم إلا ولابد أن يلقى عليه التحية في الصباح و المساء، ويجلس معه ويحتضنه ولا يمر يوم إجازة إلا ويكون في حضنه وعلى كتفه ويلعب معه ويضحك معه، تولدت بين الاثنين علاقة جميلة أوجدتها شرارة الرحمة. . ومحتواها أبوه لم ينجبها صلاح، بل مشاعر تولدت وحدها بحب نحو هذا الطفل، ففجرت لمسة يده على وجه صلاح كل مشاعر الأبوة بداخله، ونظرة عينية الجميلة والقبلة أصبحت هى طقوس علاقتهم كل يوم.

سعدت شيرين بهذه العلاقة، وهذا الطفل الذى كانت تخشى أن يفسد علاقتهم، أصبح هو من يقرب بينهم، ومحور حديثهم كل يوم، لقد شرب حسام العصير، لقد أكل حسام الجبن، لقد وقف، لقد قال، وخاصة مع أول حروف ينطقها (حسام) ابن شيرين لصلاح (بابا).

قضت سارة مع أسرة رنا آخر ليلتين في رمضان وسعدت بدفء وجمال الأسرة، وحضر كمال الضابط شقيق سارة ليتبادلا الذكريات المدرسية لإعدادى وثانوى وشقاوته معها ومعاكسته لها.

كمال: فكرة كيف ربطت شعرك الطويل من شريط الضفيرة في الكرسى وضحكت البنات عليك وجلست تبكين ساعين.

سارة: طول عمرك شقى ومؤذٍ.

كمال: وبطولة الكارتيه التى حضرتيها وخسرت فيها لم يكن يهمنى أنى خسرت سوى أنك حضرت، ولم أحصل على الميداليه أمامك.

سارة بضحك: لم أحضر البطولة التى بعدها وكسبتها، وكانت سبب في قبولك في كلية الشرطة.

كمال بضحكة عالية صحيح، وفاكرة مشاجرتى مع عمرو زميلك لأنه عاكسك، وكتب لك خطاب حب، وكيف تم طردى من المدرسة يومين وطلب استدعاء ولى أمرى.

سارة: وجلست في البيت يومين من خجلى، ولم أكن أريد الذهاب للمدرسة حتى ذهبت بى أمى رحمها الله.

ولأول مرة منذ شهور تعرف سارة معنى الضحك من القلب ونظرة عين خجلة من كمال، لها معان عديدة، عدلت سارة من جلستها على الفور. وقالت: سأعمل شاياً هل أُعمل لكم معى.

ولاحظت سارة أن كمال يتحدث بشكل جانبى مع أمه ورنا، فدب شعور غريب في قلبها، ولكنها حاولت أن تصرفه من قلبها ولا تعكر صفو اليومين التى تجلسهم معهم.

ومساءً وقبل ليلة العيد وجدت رنا وهى نائمة بجوارها تطيل الحديث معها.

رنا: سارة عندى موضوع أريد أن أحدثك فيه.

سارة: خير.

رنا: بصراحة وبدون لف أو دوران... كمال يريد أن يخطبك.

سارة تغير لون وجهها وحدث ما كانت تخشاه، ماذا ستقول لهم، إن علاقتها بصلاح لم تكن مجرد خطوبة فقط؟ أم تخدع هذه الأسرة المحبة لها والتى تحتويها وتفتح بابها وقلبها لها؟ أم تصارحه بالحقيقة؟ وهل هى على استعداد لقبول رجل آخر في قلبها بعد هذه السنوات، كل هذا دار في ذهنها في أقل من ثوانٍ معدودة.

أكملت رنا حديثها وسارة لا تستطيع حتى السمع : إن كمال أنت تعرفينه جيداً وهو الآن في أسيوط ، وكل عدة شهور في بلد مختلف وماما تريد أن تطمئن عليه ، وأنت تستطيعين السفر معه حتى يجهز شقة هنا .

أشارة سارة إليها بابتسامة أن تتوقف عن الحديث ، وأنها تعرف كل هذا الكلام ولاداعى له ، وطلبت منها أن تتركها لبعض التفكير .

ومع أول أيام العيد خرج الجميع للتنزه وتعمدت رنا ووالدتها أن تترك كمال وسارة على انفراد .

كمال : كل سنة وأنت طيبة .

سارة بابتسامه خجلة : وأنت طيب .

كمال : العام القادم تكونى في بيتك .

سارة : شكراً .

كمال بابتسامه ساخراً : بصى بقى أنما مليش في الكلام المزوق والحب والحاجات دى ، أنا راجل بتاع شرطة وضبط وإحضار ، ورنا قالت لى إنها كلمتك في الموضوع وعاوز أعرف ردك أنتى لست محتاجة أن تتعرفى عليّ .

سارة بخجل وهى منكسة رأسها للأرض وبدأت تتحدث بصوت متقطع : الأمر ليس كذلك ، انظر يا كمال الموضوع أصعب بعض الشىء ، لم تكن تجربتى سهلة فقد استغرقت سنوات وأحتاج إلى فترة لكى ألملم جراحى .

كمال : لا يهم خذى وقتك .

سارة باضطراب أكثر: ثم إنى لا أستطيع أن أظلمك معى، وبصراحة أكثر لم تكن علاقتى بصلاح مجرد خطوبة بل تعدى الأمر لأكثر من ذلك، فقد كان قرانى معقوداً عليه، وللأسف لم أتخيل أنه سيتخلى عنى يوماً مهما كانت الظروف أو الإغراءات.

صمت كمال من حديثها وتغير لون وجهه دون أن يرد.

فأكملت سارة حديثها سريعاً لتخلصه من حرجه: هل تغير رأيك فى؟ على العموم لا تشعر بالضيق فكل ما أرجوه منك أن تتركنى فترة أجمع شتات نفسى وإن أردت أن نتحدث في الأمر مرة أخرى فمن الممكن أن أكون مستعدة بشكل أفضل.

تألمت سارة لرد فعله ولكنها لم تستغربه، ولكنها تألمت أكثر من خسرانها لهذه الأسرة الجميلة التى تحبها وتجمعها بها علاقة سنين.

وعادت سارة ثانى يوم إلى عملها ولم تتوقف عن التفكير لتجد صورة كرستين تظهر أمامها ومعها عرض السفر والهجرة، لتسمع رد عقلها على قلقها:

من لكى هنا لكى تظلين معه، لا أسرة.. ولا أهل.. ولاحتى أصدقاء.. ولاحب ينسج لك الأمل...، فأنا هنا غريبة وهناك سأكون أيضا غريبة، وربما غربة بغربة لمجتمع جديد أستطيع معه بناء مستقبلى والبحث عن ذاتى بشكل مختلف، نعم فأنا أحتاج للبعد وللهروب من كل هذه المشاعر وكل هذا الألم.

وفور عودتها وجدت نفسها تتصل بكرستين وتطلب منها تحديد موعد لاستقبالها وتبدأ بالفعل في تجهيز أوراقها للسفر.

وفى العيد لم يستطع أن يترك زوجته وحماه فقد كان قد جهز رحلة عائلية لهم جميعاً ببناته الأربعة وأزواجهم ولم يكن باستطاعة صلاح طبعاً أن يرفض وخاصة هى أول رحلة عائلية لهم، ورغم نفور أزواج البنات الثلاث منه إلا أن صلاح كان دائماً بجانب سامى بك.

يأخذه في ذراعه ويتحدث معه بحب وإعجاب متزايد بفكر وذكاء صلاح، وبعد أن لمس اهتمام صلاح المتزايد بالطفل واعتباره مثل ابنه.

وذلك ما أثار غيرة وتحفظ الأزواج الثلاثة الآخرين والذين تربطهم علاقة قرابة بسامى بك قبل المصاهرة ولكنهم جميعاً كانوا أقل علماً وثقافة وكفاءة من صلاح، و كان يستشعر سامى منهم الطمع فيه وفى بناته وأنهم يقومون من خلف ظهره بالكثير من الأعمال التجارية والمصالح والمجاملات مستغلين اسمة ومركزه دون الرجوع إليه، وكثيراً ما تسببوا له بالإحراج أو المشاكل.

و عاد صلاح لبلده بعد عدة أيام، وبعد جلوس صلاح مع أبيه وهو يقدم له جلباباً وعباءة جديدة: كل سنة وأنت طيب يا أبى.

الحاج عبد الله باقتضاب: وأنت بخير، ما هذا؟

صلاح: شىء بسيط يا أبى، وتفضلى يا أمى هذه لإخوتى ولك.

الحاج عبد الله : العيد خلص خلاص منذ أسابيع .

سعاد : معلش يا أبو صلاح قال لك إنه أحرج من حماه .

الحاج عبد الله : المفروض أبوه أهم من أى شىء ويعمل لنفسه كرامة معهم ، أنت أيه بعت نفسك خلاص لهم ، ألم يكفك ما خسرناه ، ألم يكفيك لحمنا ابنة أختى ، التى لا نعرف عنها شيئاً ، ماتت ولا حية ولا هى فين؟

صلاح بتأثر : حرام عليك يا أبى لا تعذبى أكثر مما أنا فيه ، فأنا لم أنساها لحظة .

الحاج عبد الله : أنت نسيت أبوك!

انفجرت سعاد في الحاج عبد الله : إنت إيه؟ ارحمنا بقى حرام عليك ، مسمم بدنى ليل ونهار ومتهمنى أنى السبب في خروجها ، وبدل ما تفرح بابنك وهو داخل عليك بالخير والهدايا تسمم بدنه ، على إيه شيرين أحسن من سارة وفرصة بيدور عليها أى شاب ، ابنك بقى بيه كبير وهيبقى صاحب فلوس عاوز إيه تانى ، كل ده من أجل البنت اليتمية الفقيرة! ثم هى التى خرجت ولم يرغمها أحد . ولماذا لم تذهب لأهلها؟ لم يقل لها أحد أن تبعد وتذهب لمكان آخر ، على العموم هى بخير ، وعند صاحبتها بتاعت مصر اللى كانت بتكلمها .

انتفض صلاح من جلسته ووقف الحاج عبد الله : أنت عرفتى أين هى!

سعاد بارتباك : نعم اتصلت أم رنا لتسأل عنك وعرفت أنها عندها .

صلاح : ولماذا لم تخبرينى؟

سعاد بارتباك أكبر : اتصلت يوم فرحك وأم محمد اللى ردت وأخبرتها أنك ستتزوج ، أى أنها عرفت خلاص أنك تزوجت .

صلاح بصراخ : لماذا لم تقولى لى يا أمى حرام عليكى .

سعاد : لماذا حرام؟ هل كنت أقول لك أين هى وتترك عروسك يوم فرحك لتبحث عنها أم تترك شهر العسل ، ثم إنك طلقتها . . خلاص بقى .

واكملت سعاد حديثها بصوت حاد : أنا مازلت مصممة أنى عملت الصح للكل حتى لو هى تألمت ستفهم بعد ذلك أنه لمصلحة الكل ، وربنا يعوضها خيراً ، إحنا وقفنا بجانبها حتى أنهت دراستها في الوقت الذى رماها عمها وعمتها .

عبد الله : حسبى الله ونعم الوكيل . . كل ده عارفة أين البنت ولا تخبرينى . . والله لأسافر حالاً أسال على بيتهم وأجيب بنتى .

سعاد : تسأل فين أنا لا أعرف لهم مكاناً .

صلاح : اهدأ يا أبى أنا سأذهب في الغد لأبحث عنهم .

أتمت سارة أوراقها سريعاً وقبل سفرها بثمانٍ وأربعين ساعة ذهبت لرنا ووالدتها لتودعم وتخبرهم بسفرها .

رنا : أنا لا أعرف ماذ أقول لك . . حضرت كل هذه المسافة لتسلمى على .

سارة: أنتم أهلى يا طنط. وسأذهب أيضاً لأسلم على عمتى فلا أعرف متى سأعود.

والدة رنا وبدون خجل: هل هذا بسبب موضوع كمال؟

سارة شعرت بأن كمال حكى لهم الأمر فتغير لون وجهها: لا يا أمى لا، الأمر ليس كذلك، ولكنى أحتاج أن أغير حياتى وأبدأ صفحة جيدة حتى أستطيع أن أنسى.

رنا: ألا تشعرين بتعجل الأمر؟

سارة نبتت دمعتين في مقلتيها: لا.. إنه وقت مناسب لغلق صفحة الماضى وللهروب من كل شىء هنا، فالغربة الحقيقية ستغيرنى بالتأكيد.

وقضت معهم ليلة جميلة قبل أن تأخذ حقائبها لتتوجه إلى عمتها ومنها إلى المطار.

مالبث صلاح أن انطلق إلى القاهرة فور انتهاء عمله ذهب إلى العنوان القديم لمنزل سارة، وبدأ يسأل هنا، وهناك، ولم يستطع العثور علي شىء، وكرر الأمر ثلاثة أيام متتالية دون يأس ولا ملل.. بل الدعاء لم يترك لسانه وهو يبحث كأنه يبحث عن ذرة رمل في بحر فلا يعرف اسم رنا الكامل أو حتى رقم المنزل أو أى معلومة سوى أنها صديقة قديمة لسارة محمد المصرى وخريجة المدرسة الألمانية وكلية الآداب.

وفى اليوم الثالث وصل صلاح لأحد حـراس العمـارات كـبير في السـن وهو الذى استطاع أن يعرفها ووصف له العنوان.

صعد صلاح السلم تسبقه دقات قلبه وكل أملـه أن يجـدها هنـاك، ودق الباب بقلبه وليس بيديه ويقول يارب.

صلاح: مساء الخير.

فتحت والدة رنا الباب: مساء الخير يا بنى.

صلاح: أنا صلاح راضى.

والدة رنا اندهشت وارتسمت عبارات ما بين الابتسـام والدهشـة، وفـى لحظة تجمعت الخيوط في ذهنها: أهلا يا بنى تفضل.

دخل صلاح وجلس وفك أزرار الجاكيت وقال: أنا أبحث عن سارة.

رنا تدخلت في الحديث بلهجة استهزاء وضحكة سخرية: ياه أنـت لسـه فاكر!

والدة رنا: أهلا يا بنى.. ولكن سارة ليست هنا.

صلاح وهو ينظر لرنا: أنا آسف يا طنط.. ولكن أنا بحثت عنها في كـل مكان ولم أجدها، وظننت أنها ستكون هنـا، ومنـذ ثلاثـة أيـام أبحـث عـن العنوان.

والدة رنا: لا داعى لكل هذه المقدمات سارة ليست هنا.

صلاح: أين هى؟

والدة رنا : إنها عند عمتها منذ الأمس وستستقل الطائرة المتجه إلى ألمانيا بعد ساعات .

صلاح باندهاش : ألمانيا ، لماذا؟

رنا بعصبية : آه ألمانيا ، أم كنت تظن أنها ستنهار وتتحطم حياتها وتظل تبكيك باقى عمرها .

صلاح بارتباك : لماذا لم تتصل أو تقل لنا شيئاً أو حتى تسلم على خالها .

رنا بعصبية : أنت لسه بتسأل؟ أنت عندك دم أنت؟ ألم تطلقها وتتزوج أخرى ، لقد رأتك بعينها مع زوجتك في الغردقة وأنت سعيد وتلهووتتفسح ، لقد هربت من كل شيء هربت منك ومن ذكرياتك ومن كل الناس سافرت الغردقة فوجدتك أمامها فلم تجد إلا أن تبعد أكثر ، وربنا وقف لها أولاد الحلال الذين ساعدوها وأوجدوا لها العمل ، اتركها في حالها وليس لك شأن بها ، لقد تألمت كثيراً وبكت كثيراً بما فيه الكفاية وأكثر .

آه . . تقريباً أفقت الآن وجئت تبحث عنها! منذ متى وقد تحدثت أمى لكم وذكرت أنها عندنا ، أم كنت مشغولاً في شهر العسل؟ .

صلاح دارت الدنيا به وهو يسمع كلمات رنا كرابيج على وجهه وجسده .

استشعرت والدة رنا أمره: يكفى يا رنا، نحن أسفين يا بنى، رنا بتحبها وأنت تعلم أنها صديقة عمرها، ولكن الأمر صعب علينا جميعاً ولم نكن نتمنى لسارة كل هذه التجربة المؤلمة.

قام صلاح وتسند على الكرسى حتى وصل إلى الباب وهبط السلم سريعاً لينطلق إلى عمة سارة، ولكن لم يجد عمتها فهى لم تعد من الصعيد (منزل ابنتها بعد) وعلم من أولاد عمتها أنها قد انصرفت منذ ساعتين متوجهة للمطار.

انطلق صلاح إلى المطار وهو يدعو ويدعو ويدعو أن يلحق بها، . . دار داخل صالات المطار. . من هنا إلى هناك يسأل عن الطائرة المتوجهة إلى ألمانيا. . ويبحث في الكشوف عن اسمها. . ويترجى هنا وهناك أن يسمحو له بالبحث عن موعد الطائرة واسمها بين المسافرين.

ليسمع إجابة قوية: الطائرة قد اقلعت منذ نصف ساعة.

ياه. . دارت الدنيا به. . ها قد انتهى كل شىء. . هكذا سافرت دون أن تعرف أنى أبحث عنها. . انتهت آخر فرصى لكى أطمئن عليها.

عاد صلاح يقود سيارته.

لأول مرة منذ رحيل سارة يجد أنه يريد أن يبكى ويبكى فيبتلع دموعه ويتذكر أنه في الشارع.

ينطلق لبيته ويدخل فجراً إلى غرفة مكتبه وهى ظلام لا يفكر حتى في إشعال الضوء ويغلقها عليه ويرمى جسده على الكرسى الوثير ويميل رأسه للخلف لينفجر بالبكاء دون وعى وينهنه كالطفال وكلمات رنا تخترق أذنيه

(ماذا تريد منها لقد علمت أنك تزوجت وطلقتها ورأتك بعينيها وأنت مع زوجتك) ويقول لنفسه لقد كانت هى من تخيلتها في القريه، لقد كانت هى ولم أستطع أن أعثر عليها.

دخلت شيرين الغرفة عليه فاستدار سريعاً حتى لا ترى دموعه ومسح وجهه بكفيه واستنشق بعمق.

شيرين: لماذا تأخرت هكذا؟

صلاح: لقد كان عندى بعض الأعمال.

شيرين: لماذا تجلس في الظلام؟

صلاح: أريد أن أجلس قليلاً وحدى فليس لدى رغبة للنوم.

شيرين: عندى خبر حلو.

صلاح بملل: خيراً.

شيرين وهى تتحرك نحوه بدلال في ثوب نومها الشفاف وعطرها الرقيق: أنا حامل.

أغمض صلاح عينيه ليستوعب الخبر، ويجد الكلمات تتصارع في ذهنه: يا الله ها هى قيود جديدة بينى وبين شيرين.. يارب إنه قدرك.

شيرين: وهى تضع رأسه في حضنها: ماذا؟ ألا يوجد مبروك!

صلاح بابتسامة صفراء: مبروك.

*****

(١٠)
عالم أوربا الجديد

اتجهت سارة إلى عنوان كرستين لتجده منزلاً في ضواحى العاصمة، مكون من طابقين، فاخر تحيط به حديقة جميلة مزينة بالورود وأشجاره العتيقة، من الواضح أن البيت قديم وذا طراز تاريخى وأنيق.

استقبلتها كرستين بكل حب وفرحة بأفضل استقبال يمكن تخيله، وقد أعدت لها حجرة في الدور العلوى بجانب حجرتها،

لم يتوقفا عن الحديث طوال الليل، لتقضى سارة أول ليلة لها وهى في حضن العاصمة الأوربية وعالمها الجديد، وكل علامات الاستفهام تدور حولها.

هل سأنجح في الصمود في هذا المجتمع الجديد؟

هل سأثبت نفسى وذاتى وأصنع لى جذوراً؟ أم أن الفشل والإحباط سيكون من نصيبى هنا أيضاً؟ هل سأجد عملاً مناسباً؟ هل أستطيع أن أكمل دراستى العليا؟

ولكن ابتسامة كرستين زلزلت كل هذه الأفكار والقلق لتضع بدلاً منها شعوراً بالطمئنينة و الأمل.

وفى الصباح جلست معها على مائدة أول إفطار لها في ألمانيا والذى أعددته لها بنفسها.

كرستين : تفضلى أعددت لك اللبن كما تحبين .

سارة : شكراً : لقد تعبتك معى .

كرستين : لا حبيبتى ، نحن سنتعاون في كل شيء بعد ذلك ، أنا أستيقظ مبكراً وبعد ذلك أعتنى بالحديقة والذهاب للعمل أحياناً بعد ذلك أو متابعة أعمالى الخاصة .

سارة : أى عمل؟

كرستين : سأشرحها لك بالتفصيل فيما بعد .

وتجد سارة أن كرستين قد جهزت لها قائمة بأقرب الجامعات التى تستطيع أن تسجل فيها للحصول على معادلة الشهادة الجامعية وتوعدها بأنها لابد أن تكمل دراستها حتى الحصول على ما يعادل الدكتوراه في مصر .

واستقلت معها السيارة لتذهب بها إلى إحدى الشركات الكبرى للأدوية والمستحضرات الطبية وتخبرها أنها قد وجدت لها عملاً بها كمشرفة إنتاج بدوام جزئى حتى تنتهى من معادلتها الجامعية .

مرت الشهور وأقنع صلاح نفسه بأنها إرداة الله ، ففى اللحظة التى تذهب بها سارة بعيداً ، يرتبط هو أكثر وأكثر بشيرين وهذا الطفل في رحمها ، فكر في أن يحاول أن يظل على اتصال برنا ليحصل على عنوانها هناك في ألمانيا ولكنه وجد أنها مخاطرة لن تسبب إلا مزيداً من الألم للاثنين

وأنه يجب أن يتوقف عند هذا الحد ويتركها تلعنه كل يوم، فهو يحتاج إلى هذا اللعن لأنه لم يصمد كثيراً، وهى تحتاج أن تنساه ولابد أن يتركها تنساه ويقبل هو واقعه دون النظر إلى الخلف.

انطلق في عملة وحب سامى لا يتوقف ناحيته وأعين أزواج البنات الثلاث لا تنزل من عليه، يتمنون منه غلطة لكى يجهزوا عليه.

هدأ والده من ناحيته قليلاً، ولم يتوقف عن الدعاء لسارة بأن يوفقها الله في حياتها الجديدة، وفى كل صلاة فجر يطلب السماح من شقيقته ويتمنى من الله أن يراها قبل موته.

انطلقت سارة في الذهاب للجامعة صباحاً وعملها فترة المساء أربعة أيام في الأسبوع، ولا تتوقف أو ترتاح إلا بجوار المدفأة مع كرستين لتحتسيا الشاى سويًّا وتتبادلا الحديث والذكريات، وبدأت تعرف سارة أن كرستين ليست هذه السيدة العجوز الوحيده إلا من هذا الرجل الكبير الذى يعتنى بالحديقة والبيت معها.

بل هى سيدة أعمال وتمتلك أكثر من نصف حصة الأسهم في هذه الشركة التى أوجدت بها عملاً لها، ولكنها كانت صاحبة قصة طويلة مع الحب والخيانه والهجر انتهت بموت ابنتها الوحيدة وهى في سن التاسعة عشرة مع مرض لم يدم سوى أيام معدودة.

ولم تصمد أمام الحياه إلا برعاية والديها حتى توفيا هما الاثنان واستمرارها في الحياه في هذا المنزل مع الذكريات كان هو سبب بقائها لى يد

الحياه حتى الآن، ولذلك شعرت بمأساة سارة لأنها ذكرتها بحياتها وقصتها وتألمت لأجلها ولم تشأ لها إلا أن تقف بجانبها، وخاصة أن كرستين كان لديها الوالدن والأسرة الميسورة التى استطاعت أن تترك لها ثروة تكفيها لسنوات عمرها مهما طالت.

ومرت الأيام لتنشأ بين هذين العالمين المختلفين وهاتين الحضارتين والدينين المختلفين ضفيرة من علاقة إنسانية شديدة الرقى والنقاء، فليست علاقة مصلحة أو متعة أو حتى حب رجل لامرأة، ولكنها علاقة إنسان بإنسان يكملها حب الخير وتغلفها الرحمة في القلب.

ففى الوقت الذى تصلى فيه سارة في حجرتها تكون كرستين تجلس أمام تمثال العذراء لتصلى، وفى الوقت الذى تصوم فيه سارة تجهز كرستين لها الإفطار، وفى المناسبات والأعياد تصطحبها سارة إلى الكنيسة لتكون رفيقتها وعكازها، وفى عيد الأضحى تدخل سارة المسجد الكبير لتصلى وتنتظر كرستين في الخارج لتوزع البالونات والحلوى على الأطفال، تحولت علاقة سارة وكرستين إلى علاقة أم وابنتها، يتسوقان سويًّا، ويلهوان سويًّا وتأخذها في اجازة رأس السنة إلى البيت الشتوى فوق الجبل ليلعبا سويًّا بالثلج، ويجلسان بجوار المدفأة، أعادت سارة الحياه إلى قلب كرستين المريض، وأعادت كرستين الابتسامة المشرقة إلى قلب سارة.

كم تخيلت كرستين وهى تلعب مع سارة صورة ابنتها التى فقدتها في ريعان شبابها، وتخيلت سارة في كريسين صورة أمها التى فقدتها في صباها، ورغم سوء الحالة الصحية لقلب كريستين إلا أن سارة دائماً معها ومراعية لصحتها.

دخلت سارة امتحان المعادلة رغم صعوبته ولكن كعادتها نجحت من المرة الأولى ولم يتبق سوى بعض الامتحانات تباعاً لتتكشف لسارة وجوه جديدة للأمل والدراسة.

وبدأت سارة في التميز في عملها حيث أخبرتها كرستين أن كل ما تتمناه أن تتقن عملها وتتدرج فيه.

ولم تتوقف حياه كرستين عند هذا الحد فقد كانت سارة تجد في كرستين كل يوم شيء جديد.

ففى أحد أيام الإجازات أخذتها واستقلا السيارة سوياً لتأخذها إلى دار لرعاية الأطفال.

وأمام الدار سحبتها كرستين من يدها: هيا ادخلى.

سارة: ما هذا؟ إنها مؤسسة و جمعية لرعاية الأطفال!

كرستين: ادخلى، لماذا أنت خجلة هكذا؟

دخلت سارة وإذا بالأطفال يقبلون على كرستين وتحتضنهم بالحب.

اندهشت سارة من ذلك الجانب الخفى في كرستين والذى لم تظهره لها أبداً من قبل.

سارة: هل هذا هو المكان الذى كنت تذهبين إليه كل عدة أيامٍ وتقولى لى عندى مشوار خاص!

كرستين بضحك: نعم، ما رأيك؟ هؤلاء هم أصدقائى.

سارة بسعادة: إنهم رائعون، ولكن من أين تعرفين هذه الدار.

كرستين ضاحكة: إنها جمعية خدمة خاصة أنشأتها بعد وفاة ابنتى، ألم تلاحظى الاسم.

سارة: نعم نعم، اسمها مؤسسة ليليان، أنت جميلة جداً يا كرستين.

كرستين بضحك: قولى ماما.

سارة بصوت عالٍ: أنت أجمل ماما.

لتجد سارة بريق ضوء جميل يملأ كيانها أكثر وأكثر، وأصبحت الزيارة الأسبوعية للدار من أحد أساسيات برنامج سارة وكرستين الأسبوعى ويصطحبان أحد الأطفال معهما كل أسبوع للنزهة والغداء معهم.

وفى أحد أيام الآحاد استيقظت سارة على دقات كرستين لباب غرفتها

سارة: تفضلى ماما.

كرستين مبتسمة وهى تدخل غرفتها: هيا استيقظى سريعاً.

سارة مبتسمة وهى تحتضن الوسادة: عاوزة أناااااام.

كرستين: لا تكونى كسولة. هيا هيا لنخرج سويًّا.

سارة ابتسمت واستعدت في دقائق وسريعاً كانتا سويًّا أمام مبنى شاهق في وسط العاصة.

كرستين: هيا لننزل.

سارة : أين نحن ذاهبان .

كرستين : ستعرفين بعد قليل .

واستقلا البرج الشاهق الذى يتخطى العشرين طابقاً واستقلا المصعد حتى الطابق العاشر ، وأمرتها كرستين بالخروج من المصعد .

ثم توجهتا عبر الممرات التى تعرفها جيداً وفتحت باب الطوارئ الجانبى في الطابق وصعدت على السلم و أمرت سارة بمرافقتها .

سارة : إلى أين تصعدين؟

كرستن بحزم : تابعينى وأنت صامتة .

سارة : إن صعود السلم خطر عليك .

كرستين بحزم : اصعدى .

ظلت كرستين تصعد وخلفها سارة حتى تعديا الخمس أدوار ، وبدأت كرستين في التنفس بصعوبة وبدأت سارة تقلق عليها أكثر .

سارة وهى تلهث : ماما أرجوك توقفى ، إن هذا خطر عليك .

كرستين : هل تعبتى .

سارة : نعم ولكن أستطيع أن أتحمل .

كرستين : اصعدى أنت على السلم حتى نهاية البناية وستجدين باب السطح ادخلى إليه وانتظرينى وأنا سألحق بك بالمصعد .

استمعت سارة لأمر كرستين وصعدت على السلم أكثر من عشرة أدوار أخرى، وكلما تعبت تستريح قليلاً على السلم ثم تكمل الصعود حتى وصلت إلى السطح فوجدت كرستين تنتظرها وتنظر ناحية مبنى ضخم في جهة الشرق.

سارة بخطوات صعبة ناحية كرستين ثم انحنت وأمسكت بركبتيها: آه لا أستطيع التنفس.

كرستين وهى مبتسمة: هل تعبتى.

سارة وهى تضحك: ما الأمر هل تريدينني أن أفقد بعض كيلوات من وزنى؟

كرستين ضاحكة: هيا ارفعى رأسك لقد نجحتى في الاختبار.

سارة ويدها على صدرها مبتسمة: أى اختبار؟

كرستين: لو لم تصبرى على الصعود على السلم باقى البناية ربما كنت غيرتُ رأيى.

سارة وعلى وجهها علامة الاستفهام: لا أفهم شيئاً.

كرستين: انظرى هناك، انظرى إلى هذه البناية.

سارة: أى بناية؟

كرستين تشير بيدها: الزرقاء هناك.

سارة: آه.. آه إنها الشركة التى أعمل بها ها هى اسمها على لوحة الإعلانات في أعلى السطح.

كرستين : إنها عالية مثل عدد طوابق هذه البناية تقريباً .

سارة : نعم .

كرستين : إن ما حدث اليوم هو ما سأقدمه لك في الحياة يا سارة ، إننى وفرت عليك نصف الطريق لتصعدى البناية على المصعد ثم طلبت منك أن تكملى باقى الصعود بمجهودك ، لم تنزعجى أو تتبرمى بل كان كل خوفك علىّ أنا ، لم تحاولى التهرب أو الكذب علىّ بأن تصعدى على المصعد ، بل أكملتى الطريق على السلم ، فقد شاهدتك على شاشات المراقبة في غرفة الأمن في السطوح وأنت تصعدين طابقاً طابقاً بكل أمانة ، وعندما تتعبين تجلسى قليلاً لتلتقطى أنفاسك ثم تكملى .

هكذا ستكون الحياة ، أنا سأوفر عليك نصف المشوار أما الباقى فستصعدينه بمجهودك ، وأتمنى من الله أن يعطينى العمر لتصلى لقمة هذه البناية (وأشارت بأصبعها إلى مبنى الشركة) .

سارة : ابتسمت ولم يظهر عليها سوى علامات استفهام أكثر ولكنها صمتت .

*****

(١١)
الجانب الخفى من الإمبراطورية

انطلق صلاح في عملة، وازداد تقرب سامى له، وخاصة بعد أن أنجبت شيرين طفلة جميلة فرح بها صلاح أشد فرح، ورغم فتور العلاقة بينه وبين شيرين إلا أن (سارة الصغيرة) كما أسماها ابنته قد قربت بينهم بشكل كبير، فقد أسماها سارة دون أن يذكر لشيرين السبب في هذا الاسم، ولكن لتذكره دائماً بحبه الأول وعشقه الكبير.

وسعد عم عبد الله بسارة الصغيرة، وفرحت بها أمه أشد الفرح واستشعرت أن الله قد غفر لها كسرقلب سارة الكبيرة بأن أعطاه هذه الفتاة عوضاً عنها.

ولكن لم تكن تهدأ لصلاح عين في الشركة، فبدأت تنكشف جوانب غريبة لإمبراطورية سامى مدكور، وأفراد بلاطة الملكى، وحاشيته التى لم يدخل لها غريب من قبل، بل كلهم أزواج بناته وأبناء عمومته.

مروان زوج ابنته الكبرى شقيقة شيرين والمسؤول عن الاستيراد والذراع اليمنى لسامى، وابن أخيه والرجل الخفى وكاتم الأسرار، وفى نفس الوقت فسامى يخشاه ويعمل له ألف حساب حتى إنه في مواقف كثير بين صلاح وسامى حينما يذكر اسمه لا يكون لسامى تعليق سوى (ربنا يخده).

أما أحمد زوج ابنته الثانية والمسؤول عن توكيل السيارات وشركة النقل الخاصة بالمصنع والتوزيع فهوبعيد عن سامى، ويكتفى بأن يكون اليد الصغرى لمروان بواقع أنه ابن خالة وان مروان كان السبب في هذه الزيجة.

وخالد زوج أبنته الثالثة وأبن خالتها فهو المسؤول الثانى لمصنع الأدوية، اللبنة الأولى لإمبراطورية سامى، والمشرف على مزارع النباتات الطبية.

أما رفعت فهو سكرتير سامى الخاص ورجله في الحزب الذى ينظم له لقاءاته وأحاديثه واستجواباته في الحزب، ويقدم الخدمات، ويدير مكتب الدائرة في القرية.

وما كان ينقص سامى سوى صلاح رجل العلم الشاب الذى يدير المركز الرئيسى للمصنع، وشركة الأدوية، والإشراف والتوسع في التصدير والعلاقات العامة والدعاية، وفتح صورة جديدة للإمبراطورية أكثر رقياً ونظافة، هكذا كان يخطط سامى وهذا ما حدث.

ولكن مروان لم يكن أبداً راضاً عن حب سامى لصلاح لأنه دائماً ما كان ينصب نفسه الخليفة والمدير المستقبلى لإمبراطوريته وأن وجود صلاح في الصورة يشوشها ويشكك في ثقة سامى بأن يكون مروان هو الخليفة الأوحد له.

لم يتوقف مروان لحظة عن البحث خلف صلاح ووضع العين التى ترقبه ما بين الحين والآخر وتوصيل الأخبار إليه.

وحاول أن يستميله إليه والبحث عن نقط ضعفه ولكـن لم يوفقـه الحـظ أبداً.

وفى حفلة رأس السنة، وفى إحدى الملاهى الليلية ومراون وأحمد وخالد ورفعت حول مائدة في أرقى الفنادق مكانهم المفضل للقاء والسهر مع بعض هناك.

مراون: كل سنة وأنتم طيبون.

خالد ضاحكاً: وأنت طيب، لماذا سامى بك لم يحضر معنا؟

أحمد وهو يرفع كأس الخمر: وهل سامى بك يعجبه مثل هذه الحفلات، إن حفلته السنوية في لبنان محجوزة منذ شهر.

ضحك رفعت ضحكة عالية: يابنى بلاش نق على الرجل، سـيبه يفـك عن نفسه يومين.

خالد: لماذا لم تعزم صلاح معنا يا مروان.

مروان بغيظ: اعتذر وقال مليش في هذه السهرات.

رفعت: لا أعرف من أين طلع لينا هذا الرجل، بسببه توقف سامى بـك عن توسعة مصنع ومخازن كفر راضى، وترك الأرض مع أنها كانـت عمليـة نظيفة وسهلة.

مروان بغيظ شديد: هى البنت شيرين دى جايبالنا وجع الدماغ مـع كـل راجل تتجوزه، لم ترض بالزواج من أخى وهـاهى تـأتى لنـا بكـل مشـكلة وأخرى... الأول قدرنا عليه ولقينا له مصيبة الأدمان، والثـانى كـان غبيـاً

ومغروراً وجعلناه يعاملها أسوأ معاملة، وإخوتها جنّونها حتى طُلقت منه، أما هذا فلا أجد له مدخلاً، لا شرب ولا سجائر ولا نساء وعاقل ويعاملها جيداً لا أعرف له مدخلاً حتى الآن.

رفعت: المشكلة أن سامى بك بيحبه ويثق به وبرأيه.

أحمد وهو يمد يده في طبق الفاكهة أمامه ويأكل بنهم: مادام أنه في حاله وشغله ولا يبحث خلفنا فلا نريد وجع دماغ، أما لو تحدث هنا وهناك ومد يده في طبق غيره فليس له إلا أن نتصرف معه بطرق أخرى.

بدأت الصورة تتضح لصلاح رويداً رويداً، فهناك أوامر استيراد تأتى باسم الشركة ولا يرى صلاح لها أثراً في المصنع أو المخازن بل إنها تحضر وتختفى دون أن يعرف عنها شيء سوى أوراق، فقرر أن يذهب بنفسه للميناء في موعد استقبال أحد هذه الشحنات، والتى جاءت على أنها مستحضرات تجميل، وأمام وصول الشحنة فوجئ رجال مروان بصلاح أمامهم فما كان منهم إلا الاتصال بمروان ليخبروه بالأمر، استلم صلاح الشحنة وطلباتها ورافقها إلى مخازن الشركة، وعلى باب المخازن وجد سامى بك ينتظر السيارات في سيارته وبجواره مروان وخرج لمقابلته بوجه غريب لأول مرة يراه في حياته.

سامى: ماذ تفعل هنا يا صلاح.

صلاح وهم مبتسم: لقد استلمت الشحنة من قرية البضائع وأسلمها في المخازن.

سامى بعصبية وتهكم: هل هذا عملك؟ من فضلك لا تحاول التدخل في أى شىء لا يخصك مرة أخرى، نفذ ما خصصته ووكلتك به فقط.

ونظر إلى مروان بطرف عينيه الذى انتقل من جواره إلى جوار أحد رجالة الواقف بجانب السائق وأشار إليه أن يركب السيارة، وقال له بصوت خافت سمعه صلاح: حسابك معى بعدين يا غبى.

الرجل: أنا ليس لى شأن يا باشا، هواللى ركب معانا افتكرناكم عرفين يا باشا.

صلاح: ما الأمر يا سامى بك.

سامى بحزم: الأمر أنك ليس لك شأن بعمل غيرك، أنا عندى كل شىء بنظام مفهوم.

انسحب صلاح بهدوء وعاد إلى بيته ولكن عقله لم يعد إلى ما كان عليه فقد أيقن أن هناك ما يدور حوله، وأن هناك عالماً آخر في إمبراطورية سامى مدكور، ولابد أن يكون أكثر حذراً في عمله، فلم يكن يوقع على شىء إلا وهو واثق فيه، ولايترك شيئاً للصدفة، وظل يرقب ويرصد ويسجل ويحاول أن يكون هو أيضاً له أعين حول الرجال الثلاثة.

فما بين حركة نقل وتوزيع غير معلومة الاتجاهات تخرج خارج المحافظات، وما بين إنتاج وتغليف أدوية في مصنع الكفر غير معلومة، كانت تدور علامات الاستفهام، أمام عينى صلاح ولكنه كان أكثر حرصاً

في عمله ما بين التصدير للمستلزمات الطبية والعلاقات العامة وتنظيم المؤتمرات العالمية، كان عمله في النور والمعلوم فقط.

أما الحقائب الدبلوماسية العائدة مع سفريات سامى بك كل عدة أشهر فلم يكن يحاول صلاح الاقتراب منها، بعد أن وصلت له بعض الأقاويل أن الأمر يتعدى الأعشاب الطبية المجففة، وأن هذه المواد تندرج تحت بند المخدرات، ولتتحول هذه الأعشاب والمواد بعد ذلك في مصنع مدينة ١٥ مايو الذى يديره رفعت إلى أقراص مسكنة تصل لحد المخدر ومنشطات، هذا بخلاف كميات المنشطات التى يستقدمها معه من الخارج والتى تتعدى أرباحها ٥٠٠ ٪

كل هذا عرفه صلاح، ولم يجد سوى أن يمشى على الحبل، ويكون حريصاً على اسمه من أن يلطخ بأى أذى.

*****

(١٢)
وميض السنين

مرت السنوات سريعاً لتحصل سارة على الدكتوراه بعد خمس سنوات قضتها مع كرستين، لم تفكر فيها مرة في العودة إلى مصر، وكلما زاد عليها الحنين إلى خالها أخرجت صورته ونظرت إليها وتمنت أن يكون بخير صحة.

ورغم ازدياد المرض و الشيخوخة على كرستين إلا أن برنامجها وحياتها مع سارة لم يتغير، ما بين الخروج والرحلات والمؤسسة كانت حياتهم.

تقدمت سارة في عملها، لتصل لمنصب مدير فنى مسؤول عن الشركات التى تتعامل معها الشركة في الشرق الأوسط والدول العربية، وتنطلق سارة كالشعاع المضىء.

وحاولت بكل جهدها أن تكون عند حسن ظنها بها، وتمحورت حياتها ما بين العمل والدراسة وخدمة ومرافقة كرستين.

وما بين المستشفيات ومتابعة حالتها الصحية، وجدت سارة أن حالة كرستين الصحية تزداد سوءاً حتى أخبرها الأطباء أنه يجب أن تخضع لجراحة زرع قلب وما يشوبها من مخاطر شيخوختها، فما كان من سارة إلا مزيداً من الحب والعطاء لها.

وفى أحد الأيام وكرستين تقيم في المستشفى: ألن تذهبى الى البيت؟

سارة: لا سأبيت معك الليلة.

كرستين : أنا بخير ، أنت هنا منذ الأمس ، اذهبى للبيت فأنت تحتاجين للراحة .

سارة بابتسامة : أنا بخير طالما أنى معك .

كرستين : اسمعينى جيداً يا سارة ، أعرف أنه أن الأون للرحيل ، وأنا اشتقت إلى أمى وأبى وابنتى ، أريد أن أذهب إليهم وأراهم ، لقد عشت حياة طويلة مليئة بكل شىء تتخيلينه ، فعلت كل شىء واستمتعت بحياتى ، وأجمل شىء فعلته في نهاية حياتى هو أنى قابلتك وملأتى على دنياى .

سارة لابد أن تكونى شجاعة وقادرة على تقبل الأمور وأن تقبلى رحيلى بهدوء ، وأن تعدينى بأن المؤسسة ستكون في أمانتك وأن تهتمى بها طوال حياتك والأكثرمن ذلك أن تهتمى بالشركة ، واسم أبى بها طوال حياتك ، ولقد جهزت لك مفاجأة ستعرفيها في حينها .

سارة : يكفى حديث لا تتعبى نفسك أكثر من ذلك .

كرستين تكمل حديثها بهدوء وصوت متقطع : اتركينا أكمل حديثى : لا تظلى وحيدة ، أرجو أن تستطيعى أن تحصلى على الحب مرة أخرى ويكون لك زوج وأسرة وأبناء .

سارة : أرجوك لا أريد أن تتحدثى بهذه الطريقة فأنت تخيفينى .

كرستين : أرجوك اتركينى أتحدث فربما لا تحين الفرصة للكلام مرة أخرى .

عادت سارة وكرستين إلى البيت وحالتها في تدهور غريب، ولكن من غرائب القدر أن يرحل (مارك) ذلك الرجل العجوز مدير منزلها الذى قضى عمره كله معهم منذ صباه، ليرحل بهدوء شديد جداً وفى حجرته وفى صمت ووحده.

وبعد أن أرسلته سارة وكرستين إلى مسواه الأخير، وقفت كرستين أمام قبر مارك وهى تنظر إلى سارة تقول لها للمرة الثانية: لقد آن الأون يا سارة فهذه هى إشارة الرحيل وصدقينى أنى سعيدة بك في حياتى وراضية عن ما صنعته في حياتى.

مرت هذه الأيام صعبة على سارة، وفرغ عليها البيت بعد رحيل كرستين ومارك، وفرغت الحياة ولم تعد تعرف سوى العمل وتتجرع وتتذكر كل مواقفهم مع بعض، فقد كانت هى البيت والقلب والحب الذى احتوى غربتها، ولأول مرة تشعر سارة بمرارة الغربة،

ولولا أنها أمنتها في عملها كمديرة كانت الحياة أصبحت أصعب عليها أكثر، وفى الوقت الذى بدأت سارة فيه البحث عن بيت صغير تعيش فيه حتى ينتهى المحامى من إجراءات إعلان الوراثة الخاص بها أو أن تظهر عائلتها، فإذا بسارة تجد المحامى الخاص بكرستين يتصل بها لتذهب إليه.

سارة: مساء الخير سيدى.

المحامى: أهلاً بك أستاذة سارة.

سارة: خيراً هل اتصل أحد من أهل مدام كرستين رحمها الله.

المحامى ضاحكاً: مدام سارة أن كرستين هانم قد تركت لك وصية وتركت لباقى أهلها وهم مجرد ابن عم كبير في السن وأولاده وابن خاله وصية أخرى.

واستطرد المحامى في حديثه معها: أولاً تركت وصية باسم المؤسسة على أن تكون تحت تصرفك، وتركت وديعة باسم المؤسسة لتنفق من أرباحها عليها وعلى الأطفال.

أما بالنسبة لك فقد تركت لك كل أسهم الشركة، والتى تبلغ أكثر من ٥١٪ من أسهم الشركة، وكذلك بيت المزرعة، وبيت العاصمة، أما باقى الأموال فقد قسمتها بين أقاربها.

سمعت سارة حديث المحامى، وكأنها تشاهد فيلماً وتذكرت سريعاً اختبار صعود السلم الذى خاضته معها منذ سنوات، ولم تتخيل أن تصبح مليونيرة بين عشية وضحاها، وكيف تترك كرستين لها كل هذه الثروة الطائلة وهى لم تكن تتوقع أكثر من أن تظل في العمل فقط، وكان كلها امتنان أنها تركتها تقيم معها كل هذه السنوات، لم تكن تصدق نفسها.

ياالله هذه هى المفاجأة التى قد جهزتها لى! ولكنى لم أطلب منها شيئاً، والله أحببتها لله وفى الله، وخدمتها بحب وإخلاص، وفقدتها كأمى، ولم أكن أبداً أنتظر منها شيئاً.

. . .

هكذا هى قدرة الله، إنه قدر الله.. يعطى من لا يطلب، ويعوض كل من يرضى ويحب الآخر، يكون قلبه مليئاً بالحب للغير مثل قلب سارة المليىء بالحب للآخر، والتى في يوم من الأيام ضحت بحبها من أجل أسرة

خالها، لتضع الثروة خطوطاً جديدة وحسابات جديدة في حياتها لم تكن تتخيلها.

خمس سنوات في حياة صلاح، لم تكن قليلة التحق إخوته بالجامعة، وكبر السن بوالديه أكثر، ورزق بعمرو بعد سارة ليصبح أباً لطفلين بخلاف ابن شيرين الذى لم يشعر يوماً أنه ليس والده.

وانطلق في عالم سامى مدكور، ولكن كالماشى على الحبل يمسك بيديه العصاة، فلا ينزلق يميناً أويساراً، دقيق ومتوهج في عمله، حريص ومتألق.

اهتم بفتح آفاق جديدة للتصدير، وفتح مصنع جديد للمستحضرات الطبية، مسؤول هو عنه من الألف إلى الياء، وأصبح رجل سامى الأول بالنسبة للمصانع، وأيقن الرجال الثلاثة لعائلة وبنات سامى أن صلاح لن يقترب منهم مادام أنهم بعيدون عنه، وأنه لن يمسهم بسوء، وفهم الدرس مبكراً أنه في أمان مادام بعيداً عنهم.

استلمت سارة ثروتها، ورتبت حياتها، ولكن العمل لم يعد يملأ حياتها وحده، وأصبحت الوحدة تؤرقها كثيراً، ولم يعد يسعدها سوى المؤسسة والأطفال، وفى يوم ذهبت للدار في موعد الزيارة لتجدهم ينتظرونها بفارغ الصبر.

المشرفة: أهلاً أستاذة سارة.

سارة: أهلا بك، كيف حالك وحال الأطفال.

المشرفة : إن لدينا مشكلة ننتظرك بفارغ الصبر ، لذلك اتصلت بك .

سارة : خيراً .

المشرفة لقد تسلمنا طفلاً مفقوداً عمره حوالى خمس سنوات ، توفيت والدته في حادث سيارة منذ عدة أيام ، ولكن الطفل يتحدث العربية ، ولا أحد يفهمه وحالته سيئة جداً ، حاولنا الحصول على مترجم من الشرطة ولكن فشل الأمر .

ذهبت سارة إلى الطفل لتجده يتقوقع في سريره ومتصلبة عيناه على الحائط ويحتضن إيشارباً لأمه ، اقتربت سارة منه ومدت يدها على شعره وحدثته بالعربية .

سارة : كيف حالك حبيبى .

الطفل دمعت عيناه : عاوز ماما .

سارة : اسمك إيه؟

الطفل : آدم .

سارة : أنا اسمى سارة .

الطفل : أريد ماما .

احتضنته سارة ووضعت رأسه في حضنها : ماما راحت مشوار يا آدم .

بكى الطفل ووجدت يديه تحيط بها بقوة ويتمسك بها : أنا لا أجد أحداً يفهمنى ، أنت التى تتحدثين مثلى أنا مش فاهمهم وهما مش فاهمنى .

سارة : تعرف بابا فين يا آدم .

آدم: أنا كنت عايش مع ماما وتاته في مصر.

احتضنته سارة بقوة أكثر: بابا اسمة أيه يا آدم.

آدم: محمد.

سارة: حافظ اسم تاته أو عنوان تاته.

آدم: تاته اسمها هدى، وكنا عايشين في شبرا.. ماما قالت لى كده.

سارة: متى جئت مع ماما يا آدم؟

آدم: ركبنا الطيارة، ماما كانت جاية تشتغل هنا، وقالت لى أنا هأدخل المدرسة هنا.

لم تستطع سارة سوى أن تحتويه وتأخذه في حضنها حتى أكل لأول مرة منذ يومين ونام في حضنها، واضطرت أن تصطحبه معها إلى البيت ليبيت معها أول ليلة في حضنها.

وفى الصباح أعادته إلى الدار، وبعد العمل مرت عليه لتجده ينتظرها دون طعام ويبكى حتى ذهبت إليه، وأكل معها ونام في حضنها وظلت سارة على هذا عدت أيام حتى وجدت أن آدم يحتل كل تفكيرها.

ويملأ عليها قلبها، اصطحبته وذهبت به إلى محلات الملابس ولعب الأطفال، فأمسك بيدها وبدأ يبتسم لأول مرة بعد وفاة والدته واشترت له الهدايا والملابس والطعام.

وكل يوم أصبحت تذهب به إلى الدار صباحاً، وتذهب للعمل ثم تعود لتأخذه مساءً حتى وجدت المشرفة تقترح عليها اقتراحاً آخر

المشرفة : إن آدم أوراقه غير مكتملة وسوف يتم تسليمه للسفارة وإن استلمته سترحله لمصر ، وسيدخل أى دار رعاية هناك ، أنا لا أعرف النظام في مصر ، إلا إذا وجدت أسرة تتسلمه هنا وتتبناه .

انزعجت سارة من الأمر : ومتى حدث هذا؟

المشرفة : وصل أحد المختصين من الشرطة وأخبرنا بذلك أنها مرت فترة ولم يتم الاستدلال على أسرة الطفل .

سارة : ولكن أنا ارتبطت به جداً .

المشرفة : ما رآيك في أن تتولى مسؤوليتة ونحن نستطيع أن نساعدك ونبحث لك عن مربية له ، أو أن يأتى للجلوس مع الأطفال طوال اليوم ثم تأخذينه مساءً ولكن يكون تحت رعايتك .

فكرت سارة قليلاً ثم ما لبثت أن وافقت .

وفى اليوم التالى ذهبت هنا وهناك لإنهاء إجراءات تبنيه لتجد أنها مضطرة أن تعطيه اسم عائلتها ، فوجدت أنها تسمية آدم محمد المصرى .

ولأول مرة تدخل الفرحة والأمل حياة سارة بعد رحيل كرستين ، فقد أمد هذا الطفل سارة بفرحة وأمل وحياة أكثر بهجة مما كانت تتخيل ، أحضرت له مربية تتحدث العربية لتعتنى به في غيابها ، وأحضرت له مدرسين لغة ألمانية ، وأدخلته إحدى الحضانات ، وأخضعته لرعاية صحية من طبيب نفسى لمحاولة إزالة آثار الحادث ، وأصبح آدم محور حياتها .

يأكلون معاً ، ويلعبون معاً ، ويتنزهون معاً ، ويقضون الإجازات معاً .

وفى أحد الأيام وسارة تجهز له العشاء .

سارة: آدم هيا حبيبى صنعت لك المكرونة الطويلة والصلصة.

آدم وهو يجرى نحوها: عاوز أساعدك عاوز أساعدك، فيه فراخ؟

سارة: تعالى حبيبى، خذ هذا الطبق.

آدم: ماما عاوز شيبسى مع المكرونة.

اخترقت كلمة ماما أذنى سارة لأول مرة، وفوجئ الطفل بأنه ذكرها دون وعى منه فعاد وهو منكس الرأس يقول: آسف مس سارة.

سارة وهى تأخذة في حضنها: لا تعتذر حبيبى لو أردت أن تقول لى ماما قول.

آدم: أنا بحبك ماما سارة.

أصبحت للحياه لون آخر بين سارة وآدم، لون بمعنى الحياة والأمل والأمومة، وأصبحت سارة مليئة بالحيوية والنشاط معه، ولم تيأس في أن تطلب من السفارة والجمعيات وأى وسيلة ما استطاعت في البحث عن أسرته الحقيقية.

*****

(١٣)
الكرسى الصلب

مرت سنوات وسنوات . . أكثر من خمس عشرة سنة وسامى مدكور متمسك بكرسيه البرلمانى كما هو، وحال قرية كفر راضى كما هى، فقبل الانتخابات بعدة شهور يذهب إلى القرية ويبدأ في ذبح الذبائح ويزور الأيتام ويوزع الملابس والهدايا ويوزع الشهريات على الأرامل ويأخذ هوياتهم الشخصية ويستخرج لهم بطاقات الانتخابات.

ويبدأ في توزيع المواد التموينية ولقاءات السرادقات والوعود الانتخابية . . المصرف الجديد، ومحطة المياه الجديدة، ومستشفى الكلى الذى يوعد بها كل فترة انتخابية، والمدرسة والجامع والمؤسسة الخيرية.

ومثل كل مرة يذهب رفعت في المواسم والأعياد لتوزيع اللحم وحقائب رمضان وملابس العيد ليكون وجوده في البلد شيء طبيعى.

ومن بروتوكولات سامى بك ورفعت مدير أعماله أن يوجد كل أزواج بناته وخاصة صلاح فهو الوحيد الذى من أهل البلد، وكم كان هذا الأمر صعباً عليه لشعوره الدائم أن سامى بك يخدع هؤلاء الناس البسطاء، ولكن لم يكن لديه بد.

وخاصة بعد وفاة والديه، وانتقال حياة أشقائه للقاهرة، وعملهم معه في مصنع ٦ أكتوبر، وإغلاق الورشة، وتصميم أشقائه على عرض الأرض

والورشة للبيع لاستغلال المبلغ العائد منهم ليكونوا حياتهم ويتمموا زواجهم.

لم يكن يؤرق مضجع سامى سوى مؤسسة المصرى التى افتتحت مقراً لها في القرية، وأصبح حديثهم في اجتماعات مكتب الدائرة حولها.

رفعت: يا سامى بك، أن هذه الجمعية لها نشاطات في كل كفور البلد وبدأت فجأة، توصيل مياه للمنازل الفقيرة، وحفر مصارف مياه، وبناء أسقف للمنازل الفقيرة الطينية، وإنشاء مركز خدمة و مسجد وعيادة ومشغل كبير، يعمل به البنات اليتامى، والنساء الفقيرات، ويأخذوا الإنتاج ويوزعونه على الفقراء من الأسر.

سامى بعصبية: وأنت فين يارفعت من كل ده؟

رفعت: أنا معك ياباشا في كل خطوة، ولكن ماذا سأفعل معهم فهم يعملون كل شيء قانونى.

سامى: منذ متى وهم يعملون؟

رفعت: منذ أربع سنوات تقريباً بدأ بشكل بسيط ثم توسعوا، الغريب أنهم يتوسعون سريعاً والآن أخذوا الأرض التى كانت بجوار المصرف الجديد التى كانت بجوار ورشة والد صلاح بك، ويقيمون عليها مستشفى لأمراض الكلى والكبد.

صلاح: أرضى أنا! غريبة لقد بعتها لمحامى من مصر.

رفعت: هو نفس المحامى ده أى أرض تباع في البلد يشتريها للجمعية.

سامى : اعرف لى كل حاجة عن هذا المحامى .

رفعت : المحامى ليس لـه أى نشـاط سـوى أنـه مكتـب محـامى ، ويـدير أعمال مؤسسة المصرى من أوروبا ، وأن هذه الأعمال ليس له أى دخل بها ، من هى هذه المؤسسة؟ و من أين كل هـذه الأمـوال؟ لا أعـرف ولم أسـتطع الوصول لأى معلومة .

مروان بعصبية : أعطينى معلوماته وأنا أحاول أعرف خباياه .

رفعت : تخيل يـا سـامى بـك إنـه اشـترى قطعـة أرض علـى الأطـراف ويقيمون عليها مركزشباب ومركزاً ثقافياً وكاتبين ، إن المشروع هيكـون فيـه مسرح وقاعة سينما وملاعب تنس وكرة سلة ويد .

سامى بعصبية : مسرح إيه وسينما إيه إحنا بلدنا ينفع فيها كده .

مروان : وهل سننتظر حتى نجـد صـاحب هـذه الجمعيـة يـدخل مجلـس الشعب ونحن ساكتين .

صلاح : لقد قال إنه ليس له شأن بالسياسة ، وأنه مجـرد وكيـل أعمـال ، ويقدم خدمات للبلد ، فهذا في مصلحتنا وليس ضدنا .

سامى بعصبية : ليس ضدنا ، كيف؟ يقـدم كـل هـذه الخـدمات للبلـد ، وماذا تكون أهميتى؟ وبماذا أعد الناس؟

صـلاح : اعمـل مدرسـة ، البلـد كثافتهـا في زيـادة وتحتـاج إلى مـدارس أخرى .

مروان بتهكم : مدرسة! فما هو عمل الحكومة إذاً .

سامى : خلاص أوقفوا هذا الحديث، انتهينا، أنا لابد أن أعرف من هو صاحب هذه المؤسسة، وماذا يريد؟ فلا أحد يدفع كل هذه الملايين هباءً.

سارة المصرى أو S M وبجوارها أكتوبر ٢٠١٠، هكذا وقعت على الأوراق.

وهكذا كانت توقع على كل تعاملاتها في الشركة، وهكذا كانت توقع على الأوراق التى أمامها، والتى تحمل شعار شركة مدكور للمستحضرات الطبية، والطلب موقع باسم مدير تنفيذى "صلاح راضى".

نهضت سارة التى لم يتغير شىء من ملامحها، وشكلها إلا هذا الشعر البنى الجميل الذى أصبح قصيراً لا يصل إلى كتفيها، فمازلت الجسم الممشوق الرشيق، والعيون الجميلة، ومن يراها لا يظن أنها تجاوزت الأربعين من عمرها.

نهضت من على كرسيها خلف مكتبها الكبير الفاره، واستدارت إلى ناحية الشباك، وفتحت الستار لتنظر إلى تساقط الثلج الخفيف، ففتحت النافذة، ومدت يدها لتسقط بعض قطرات الثلج الخفيف على كفيها، واستنشقت بعض الهواء بعمق، ثم تذكرت رائحة الشتاء في قريتهم، تذكرت كف صلاح وهو يجمع قطرات المياه من فوق رأسها ليحميها من مياه المطر بكفيه الصغيرين، ووضعت للمظلة فوق رأسها وهم عائدون من الجامعة، وخلعه للجاكت الخاص به ليدفئها، فإذا بها تتنهد وتقول لها في نفس اللحظة وتضع يدها على صدرها بشكل رقيق وناعم: ياه ثمانية عشر

عاماً مرت سريعاً، ولكن رائحة الشتاء لم تضيع من ذاكرتى، فرائحة شتاء بلدى أجمل وأدفأ ولكن رائحة الشتاء هنا باردة، ثلج ليس له طعم.

ثمانية عشر عام، تغيرت فيها أشياء كثيرة، وتبدلت فيها حياة، حتى المشاعر تغيرت. . فقد تبدل الحزن إلى لا مبالاة، وتبدل الغضب إلى تفهم، وتبدلت نظرة الأشياء ولكن تبقى اشياء بداخلى، هذا الحب القديم الذى نمى عبر سنوات الطفولة والصبى ليظل هنا بداخلى، فبرغم كل شىء لم أستطع أن أكرهك يا صلاح.

كم بحثت عنك وسط الوجوه لكى ألمحك، وكم وقفت خلف النافذة لأراك وأنت تخرج من باب الشركة بعد أن تنهى تعاملتك مع شركتى دون أن تلمحنى، وكم شاهدتك عبر الشاشات الداخلية تسير في الطرقات، وتجلس في الاجتماعات مع نائبى دون أن تعرف أنى أنا من أوقع لك وأسهل لك أعمالك، أو حتى تعرف من هى SM.

كم تمنيت أن أكرهك أو حتى أن أنساك.

وركبت أمواج الذكريات وطافت بين الغيوم في السماء لتتذكر يوم أن اتصل بها المحامى مدير أعمالها في القاهرة منذ عدت سنوات ليخبرها بأن حالة خالها غير مستقرة، وأنه في العناية المركزة، وربما أنه يحتضر لتركب أول طائرة ومصطحبة معها آدم، لتذوره ليلاً في المستشفى، وبحرص شديد حتى لا يراها أو يعرف بقدومها صلاح.

سارة: خالى، كيف حالك حبيبى؟

الحاج عبد الله يفتح عينيه بصعوبة وابتسم وهو يحاول رفع رأسه: سارة أنت جيت يا حبيبتى، سارة. .

سارة: لا تتعب نفسك.

مد يده الحاج عبد الله ورفعها لوجهها ليلمس كفه وجهها: أنت بخير ياسارة؟ سامحينى، كل يوم كنت أدعى لك، أدعى أن ربنا يحميك وأدعو أنك تسامحينى، وأدعو كل يوم أن أشوفك قبل ما أموت.

سارة بتأثر شديد: أنا بخير، أنت كيف حالك؟

عبد الله بصوت متحشرج ومتقطع ويتكلم سريعاً كأنه يخاف أن يضيع الوقت: سامحينى يا سارة، نحن ما تخلينا عنك لحظة، صلاح بحث عنك في كل مكان، صلاح لم يتخل عنك، سعاد هى من أوهمتك أنه موافق أقسم لك سعاد هى من فعلت كل هذا، غبية وكانت خائفة وهى من وضعتنا في هذا الموقف، ذهبت لسامى وقالت له أن صلاح موافق، أقسم لك يا سارة أنا كنت سأضحى بكل شىء من أجلك، أنا وصلاح لم نكن لنتركك، سعاد ماتت وهى غير راضية عن نفسها، ولم تسامح نفسها لكنها كانت خائفة.

سارة: اهدأ يا خالى كل شىء انتهى، إنى قادمة للأطمئنان عليك.

عبد الله: اسمعينى جيداً لقد تمنيت أن أقول لك هذا الكلام منذ سنين أرجوك اسمعينى حتى أرتاح، صلاح بحث عنك في كل مكان، وسعاد لم تقل لنا إنها عرفت مكانك، إلا بعد شهور، وعندما ذهب للبحث عنك كنت سافرتى، سارة.. صلاح لم ينسك أبداً، بكى من أجلك كثيراً، تزوج مرغماً، خاف علىّ.. وعلى إخوته من البهدلة.. ولم يكن مرتاحاً معها أبداً ولكنه كان يقول إنه قدر ونصيب، أرجوك صدقينى.

سارة بابتسامة بسيطة ورقيقة: أرجوك يا خالى اهدأ أنا جئت أطمئن عليك فقط أرجوك اهدأ.

آدم بجوارها بهدوء: ماما هل سننتظر كثيراً.

أشارت إليه بعينيها، ونظر عبد الله ناحيته وابتسم: ابنك؟ هل هذا ابنك؟

تحرجت سارة أن تقول له إنه ليس ابنها فابتسمت له وهزت رأسها بالإيجاب.

أشار عبد الله إليه فانحنى آدم ناحيته: فقبله، جميل.. أنت جميل جداً.. ربنا يبارك لك فيه يا سارة، أنا سعيد أنى رأيت لك طفلاً الحمد لله يا سارة الحمد لله.

جلست معه سارة ما جلست ثم سلمت عليه وانصرفت على كلمة: لا إله إلا الله... سأمر عليك غداً يا خالى.

وقبل أن ينتصف يوم الغد عرفت سارة بأمر وفاة خالها فبكته كثيراً وحمدت الله أنها رأته قبل فوات الأوان. وفى اليوم التالى أجلت سفرها لكى تودعه، وذهبت خلف الجنازة، ومعها آدم، وظلت بعيدة عن الأنظار وشاهدت صلاح وأشقاءه يوصلونه، وظلت تنظر إليه حتى آخر لحظة، وانصرفت دون أن يلمحها أحد.

دخلت مديرة مكتبها صاحبة الجنسية العربية لتفيق سارة من غفوتها: مدام سارة، هناك مدير العلاقات العامة يرغب في مقابلتك.

لتهبط سارة إلى أرض الواقع وترفع رأسها وتستعدل وتجلس على كرسيها، وبمنتهى الهدوء والرقى: تفضلى أدخليه.

مرت انتخابات مجلس الشعب كما أراد سامى مدكور ليتربع على الكرسى لفترة رابعة جديدة بأكثر من ٩٨ ٪ ورغم كثرة التساؤلات واحتقان الناس، إلا أنه لم يهتم أحد أو حتى يسأل أحد عن أسباب أو كيف تم اختيارة مرة أخرى.

وليحتفل سامى ويقيم حفلة رائعة وصخبة في قصرة الجديد في مدينة ٦ أكتوبر هو أولاده وأحفاده جميعاً، ووسط صخب هذه الموسيقى والفرقة الشبابية يجلس صلاح على أحد المقاعد، وحوله بعض رجال الأعمال، وكل تركيزه في الحديث عن العمل: ما رأيك، نحن سنتوسع بشكل كبير في توريد الحقن وصناعة بعض المستلزمات الطبية، وكل أسعارنا في نفس المستوى والجودة العالمية.

أحد الرجال: ما الأمر يا صلاح بك؟ ألا يوجد حديث في هذا الحفل الجميل إلا عن هذه الموضوعات.

ضحك صلاح: آسف يا جوهر بك.

تدخل أحد الرجال الشبان: صلاح من فضلك كنت أريدك.

فنهض صلاح وتحدث معه جانبيًّا: ما الأمر يا حسين؟ رامى بالداخل ويبكى ولا يريد أن يخرج إلا معك؟

صلاح: أنا معى ناس أين أمه؟

حسين: الكوافير عندها ولم تنته بعد.

صلاح بعصبيه بسيطة: الصبر يارب، وأين سارة؟ وأين حسام؟

حسين بابتسامه عالية: حسام مع الفرقة هو من جاء بهم وهم أصدقاؤه، وهو من فعل كل هذه الضوضاء.

صلاح: هيا بنا يا حسين، ربنا يعدى الليلة على خير.

سامى على منضدة أخرى: المجلس ده بتاعنا، نحن الذين نعرف احتياجات البلد والناس، أهلنا وعائلتنا، ثم إنه كانت النتيجة اكتساح، لم أكن أصدق أن نصل لهذه النسبة أبداً.

ابتسم حسن شقيق صلاح الآخر، وهو يقف بجانب المنضدة، وقال في نفسه بصوت منخفض (هل هناك أحد من هذا الشعب ذهب للانتخابات أصلاً، ارحمونا، لقد رأينا التزوير بأعيننا إنها ليست اكتساح في الانتخابات ولكنها اكتساح في التزوير والخيبة).

ثم سمع مروان وهو ينادى عليه: حسن من فضلك. أين صلاح.

حسن: إنه بالداخل، دخل حالاً للأولاد.

وجلس مروان بجانب سامى بك وبعض رجاله وأحمد بك: إن معى رجل وزارة الصحة الذى حدثتك عنه نحن انتهينا من قصة الانتخابات، نريد أن نرى شغلنا لقد أتممت كل شيء ولم يعد متبقى إلا التوقيع.

أحمد: صلاح هل سيساعدنا.

مروان: صلاح لا نريد أن يعرف أى شىء عن الأمر، ليس له شأن بأعمال المصنع القديم، ولا استيرادنا اجعله في حاله سيقرفنا.

سامى: ممكن تصمت قليلاً، إن عمل صلاح هو الساتر لنا في كل شىء، فعلاقاته ومهارته في إدارة المصنع الجديد والتصدير وعلاقاته في أوروبا والدول الأخرى نفعتنا كثيراً، فلا داعى لهذا الكلام، وأنهى الأمر كما تعودت، ودون أن تخبره بشىء.

وانطلق الحفل وسط صخب الجميع، وابن مروان الكبير أمجد ينادى على فتاه جميلة ممشوقة القوام لا يتعدى عمرها الثمانية عشر عام: سارة أبحث عنك أريد أن أرقص معك.

سارة (الصغيرة)بضيق: أنت تعرف إن أبى يتضايق من هذا الأمر.

أمجد بلهجة سوقية: أبوك ده هيفضل غلس كده على طول (فلاح مفيش فايده).

سارة (الصغيرة) غيرت وجهها بشكل سيئ في وجهه: ليس لك شأن ونادت على شاب آخر.. حسام تعالى هنا بابا يبحث عنك.

فأقبل شاب وسيم وطويل وسلم على أمجد ببرود وقال له: أهلاً يا أمجد كيف حالك؟

أمجد: كيف حالك أنا بخير.

حسام: لماذا لا أراك على الفيس بوك.

أمجد بلهجة تهكم : لا . . تركته لكم صفاحتكم كلها غريبة ليس لى شأن بها . . وتتحدثون عن السياسة ووجع الدماغ أنتم أدمغتكم خربت . أنا مثل أبى أين المكسب والعمل فابحث عنه .

ابتسم حسام له ببرود ، وسحب سارة (الصغيرة)بعيداً وهمس في أذنها : هيا ياسارة لا أريد أن يراك أبى تجلسى معه ، ويغضب مرة أخرى ثم إننا لا نريد أن نغضب طنط عبير ، مضطرين نتحمل غلاسته التى لا تطاق .

ومر الحفل والشباب يلهون ويضحكون حتى انتهى الحفل .

*****

(١٤)
انهيار جدار الصمت

دخلت سارة إلى منزلها في العاصمة الألمانية تنادى وهى تخلع حذاءها وتخلع المعطف وتعلقة: آدم.

ويرد عليها صوت من داخل المطبخ: ماما أنا هنا.

سارة دخلت إليه بابتسامة: السلام عليكم؟ ماذا تفعل؟ وأين (هيلين)المربية.

آدم ذلك الشاب الطويل الوسيم، يرتدى مريلة ويمسك بطاسة ويقلب الطعام في المطبخ: تعالى تعالى أصنع لك أحلى فراخ في التاريخ.

سارة مبتسمة: ربنا يستر، لماذا لم تنتظرنى؟

آدم بصوت عالٍ جئت من التدريب جائعاً وعندى مذاكرة كثيرة جداً.

سارة: حبيبى هيا سأساعدك.

ودخلت عليهم المربية الألمانية: سيدتى لم يتركنى أصنع الطعام، وطلب منى أن أذهب أغسل الملابس الخاصة بالتدريب، وأن يجهز هو الطعام.

سارة بابتسامة: لا شيء هيلين أكملى عملك.

آدم: إنها تغار منى لأن طعامى أحلى من طعامها.

سارة بضحك: طبعاً يا بنى.

وجلسا يتناولان الطعام سويًّا وبدأت سارة الحديث: متى عدت من التدريب؟

آدم: لم اتعدى الساعة.

سارة: البطولة الأسبوع القادم أليس كذلك؟

آدم: نعم أدعى لى.

سارة حاضر أنا متأكدة أنك ستحصل على الميدالية كما وعدتنى.

آدم بلهجة تحدى ضاحكة: ابنك بطل سباحة طوال عمره، وسيظل بطل سباحة وسترين.

سارة بضحك عالٍ: ابنى أحلى ابن في الدنيا بس درجات الجامعة مسخرة!!

آدم بضحكة أعلى: دخلت الجامعة، وكلية الصيدلة، كما ترغبين فلا تخافى من شيء بعد ذلك.

ونظرت إليه سارة وهى مبتسمة تتذكر ذلك الطفل الصغير الممسك بها ويبكى وتقول في قلبها الحمد لله، كيف كانت ستكون حياتى بدونك؟ فقد أنرتها وملأتها بالبهجة والأمل والسعادة.

****

ومرت الأيام لم تكن كأى أيام لتزلزل الأرض بأصوات الشعب، وينهار جدار الصمت وتتفجر ثورة ٢٥ يناير، ويفجرها شباب من كل طيف،

وكل مستوى، ولم تبعد سارة عينيها عن أخبار مصر، بل كانت كأنها تعيش في القاهرة.

ولم تكن سارة الصغيرة ابنة صلاح وحسام شقيقها وحسن وحسين بعيدين عن الميدان، بل كانوا من أوائل الشباب الذين نادوا بالحقوق (عيش – حرية ـ عدالة اجتماعية) ورغم أنهم لم يكونوا جائعين ولا يعانون الاضطهاد ولكنهم كانوا من شباب ووقود الثورة المخلصين والذين بأتوا منذ الليلة الأولى للثورة في الميدان، ومما أثار حفيظة أبيهم وجدهم وثاروا ثورة من نوع آخر على ابنته وصلاح.

سامى بعصبية في مكتبه في الفيلا وأمامه صلاح وشيرين: ولادك واشقائك أين يا صلاح بك؟

صلاح ببرود: اهدأ يا سامى بك أنا أيضاً لا يعجبنى تصرفهم، ولكن لا أستطيع الوصول إليهم بعد قطع الاتصالات.

سامى: ابحث عنهم، إنهم أغبياء.. البلد ستخرب.

شيرين: اهدأ يا أبى إن الموقف سيتم السيطرة عليه أن شاء الله

سامى وهو يضع رأسه بين يديه ومنكسها على المكتب: ربنا يستر.

ليجد نفسه ولأول مرة منذ سنوات لا يجلس على كرسيه الصلب بل أصبح كرسى هواء مخيفاً طاح به في مهب الريح.

*****

(١٥)
أيام جديدة

ومرت الأيام سريعاً لينتصف شهر فبراير، وتنتهى أسطورة سامى مدكور إلى الأمر بحبسه على زمة قضايا قتل المتظاهرين، ولم يمر ٢٤ ساعة ليتم القبض على مروان وأحمد وخالد ورفعت وأيضاً صلاح بتهمة الفساد والإضرار بالبلد، وأهمها قضية (أجهزة نقل الدم الملوث الغير مطابقة، و أدوية المنشطات الغير مصرح بها، وإنتاج أدوية الأعصاب الممنوعة، والتى غالباً تصرف بشكل غير رسمى) والتى كان سامى يغطى عليها بكل قوته وقدرته.

وليفاجأ الجميع بأكبر قضية فساد من ضمن مئات القضايا التى زلزلت المجتمع بعد الثورة.

وبناء على بلاغٍ من مباحث الأموال العامة والمتضمن بلاغ بعض موظفي وزارة الصحة عن ارتكاب مخالفات في توريد أجهزة نقل الدم من شركة "مدكور" إلى إدارة شؤون الدم ومشتقاته بوزارة الصحة، قامت النيابة العامة المصرية بعد توافر عناصر الجدية في التحريات باتخاذ الإجراءات القانونية، وتم إحالة المتهمين للمحاكمة بعد أن كشفت تحقيقات النيابة عن وجود ميكروبات و فطروعفن أدكن داخَل "أكياس الدم" وانبعاث رائحة من بعضها؛ مما يؤدي إلى تسمم دم المريض وقد يؤدي للوفاة.

وأشارت النيابة العامة المصرية إلى أن اللجانَ الفنية المختصة أعدت تقريراً كشفت فيه عن وجود عيوب فنية في الأكياس والأجهزة الموردة؛ مما يؤدي إلى تعرُّض المتبرعين للإغماءً لزيادة معدل تدفق الدم عن المعدل الطبيعي، وحدوث تجلطات بالدم، وتعرُّض أكياس الدم للانفجار أثناء فصل مكونات الدم، وزيادة تركيز الكلوراید عن الحدّ المسموح به، وزيادة نسبة القلوية الكلية عن المعدل القياسي؛ مما يؤدي إلى تكسير كرات الدم وفقدان الدم لخواصه.

ونوّهت النيابةُ إلى أن إرساء مناقصة وزارة الصحة في صنف "أكياس الدم" على شركة "مدكور" خرجت عن القواعد الصحيحة التي نصّت عليها أحكام القانون والمزايدات، وأن الشركةَ لم تراعِ الاشتراطات الفنية لإنتاجها من قربِ الدم قبل عرضها في السوق المحلي.

وجاء في قرار الإحالة أن المتهمين "حمدى صلاح ومحمد وهدان" في الفترة من ٣ سبتمبر ٢٠٠٥ حتى ٢٧ ديسمبر ٢٠١٠ بصفتهما موظفين عموميين بوزارة الصحة، حصلا على منفعة وحاولا الحصول على ربح لغيرهما بدون وجه حق من عمل من أعمال وظيفتهما، ومكنا المتهمين "مروان محمد وسامى مدكور" من الحصول على منفعة بدون وجه حق، عن طريق قيام المتهمين الأولين بإتمام إجراءات ترسية مناقصة توريد قرب الدم لوزارة الصحة، التي أجريت في ٣ سبتمبر ٢٠٠٥ على شركة "مدكور" بزعم مطابقتها للمواصفات على خلاف الحقيقة، وحجبا الشكاوى الواردة بكتاب المركز القومى لنقل الدم والمقدمة من مديرى بنكى الدم بمستشفى فاقوس ومنشية البكرى حول ما بقرب الدم، موضوع

المناقصة، من عيوب تمثلت في زيادة درجة استطالة المادة المصنع منها قرب الدم، مما يؤدى إلى تعرض المتبرعين للإغماء لزيادة معدل تدفق الدم، وتؤدى إلى حدوث تجلطات.

كاد الجنون يصيب الكل، شيرين وقافلة من المحامين وأخوتها البنات يطوفون للبحث عن مخرج لأبيهم ورجالهم.

وحسن وحسين الذين كانا من شباب الثورة المقيمن في الميدان لا يصدقون أنفسهم هل أصبح صلاح شقيقهم رمزاً من رموز الفساد أم أن الطوفان عالى لدرجة أنه لم يعد يرى من ظالم ومن مظلوم.

ومن بين قافلة المحامين وجد حسن وحسين المحامى (عادل المر) يحضر مع شقيقهم ويطلب منهم أوراق قضاياه، ليس هذا فقط، بل وبدأ في تجهيز مزكرات خاصة له هو فقط دوناً عن باقى أطراف القضية فظنوا أن صلاح من أحضره من طرفه، وبالفعل وقبل كل أطراف القضية كان صلاح خارجاً من الحبس على زمة قضية الفساد، وليس له شأن بقضية قتل المتظاهرين.

وهناك عبر البحار كانت سارة لا يعرف الهدوء والنوم طريقه إلى عينيها، بل كانت تتابع كل شىء يحدث في مصر عن كثب وترقب، وكأنها تعيش على أطراف ميدان التحرير.

آدم: ماما لا أعرف ما رأيك فيما يحدث في القاهرة؟

سارة: هذا أمر كان متوقعاً فمن يتعامل مع الشعب على أنه كم مهمل مأمون عواقبة واهم.

آدم: لم أتخيل أن يكون الشباب بهذا الوعى، لقد دخلت على صفحات الفيس الخاصة بالشباب الثورى في مصر فأبهرت بطريقة تفكيرهم وثقافتهم.

سارة: هذا الشباب أنت واحد منهم، ولولا الظروف كنت ستعيش هناك وربما كنت واحداً منهم.

آدم: حقيقى انا سعيد.

سارة: ولكنى خائفة، الأمر ليس بهذه السهولة، فمصر دولة كبيرة وشعبها تعدادة أكثر من ٩٠ مليوناً، التحكم بهم صعب، وأهم شيء ألا تسرق الثورة أو توءد أو تظهر ثورة مضادة تقضى عليها هذا هو الخوف، أنا كسيدة أعمال أنظر إلى الأمر بترقف وخوف أكثر من الفرحة التى تحيط بالشباب الآن.

آدم: أنا متفائل.

سارة: ربنا يستر.

خرج صلاح وأحاط بشقيقيه وأسرته الصغيرة، وفى أول ليلة له بعد الحبس جلس معهم على مائدة العشاء وأحاطوا به في غرفة الصالون بعد ذلك.

شيرين : الحمد لله ربنا يكمل فرحنا بخروج بابا .

عمرو : شوفتى يا سارة هذه هى نتيجة تهوركم والثورة بتاعتكم .

حسين : الأمر ليس كذلك يا عمرو ، كل ثورة لها قضاياها ومشاكلها وضحاياها أيضاً .

سارة الصغيرة : وهل أصبح أبى من ضحاياها .

شيرين بعصبية موجهه حديثها لحسين وحسن : وهل أبى من الفاسدين في البلد خلاص .

حسن بارتباك : لم نقصد ذلك ، ولكن القضاء سيكون في صالح الجميع إن شاء الله .

صلاح : الحمد لله وربنا أكرمنا بهذا المحامى ، أليس هذا المحامى الذى اشترى الأرض ، متى تعاقدتم معه؟ إنه هايل يا شيرين ، ولماذا لم تجعليه يمسك قضية سامى بك أيضاً .

شيرين : أنا لا أعرف عن من تتكلم؟

صلاح موجهاً حديثه لأشقائه : هل أنتم من أوكلتموه .

حسين : لقد ظننت أنك أنت من أحضره .

صلاح : غريبة لقد حضر لى ومعه أوراق التوكيل لى ، وحضر معى كل الإجراءات ، هل طلب منكم أتعاباً؟

حسن : لا أعرف لم يطلب شيئاً منى .

صلاح ارتسمت علامات الاندهاش على وجهه: أحدكم يذهب إلى مكتبه في الغد ويسأله ما الأمر؟

مرت الأحداث سريعة، وتنهار البورصة، وتنهار أسهم شركة مدكور، وتنزل قيمة أسهمه لأقل من خُمس ثمنها، بل ويتم إلغاء الكثير من التعاقدات التى كانت متعاقد عليها من مصانع المجموعة لعدة دول ، وينهار سوق التصدير للمصانع، ولم يعد يمسك العمل للشركة والمصنع الجديد سوى صلاح، وتوقف العمل نهائياً في المصنع القديم، وبدأ العمال في رفع قضايا لتأخر رواتبهم على المصانع، واضطربت المجموعة في خلال شهور حتى كادت تعلن إفلاسها.

وصلاح ما بين المحامين والماللين ولا يجد مخرجاً لهذا النفق المظلم.

لم تغمض سارة عينيها عن موقف مصانع وشركة سامى مدكور، وأصبح ملفهم الذى تتعامل معه سارة هو ما تطلبه يوميًا للوقوف على آخر مستجداتهم، واتصالتها بمدير أعمالها في مصر لا يتوقف يوماً.

لم يلبس حسن وحسين من معاونة أخيهم وخاصة أن مستقبلهم وعملهم معه حتى توصلوا معه ومع مديرى الشؤون القانونية إلى حتمية دمج المصنع والشركة الأم إلى شركة عالمية ليلتحما ماليًا بضمان أصول وأراضى مجموعة المدكور، ولم يتوقف صلاح عن العمل وأجرى اتصالاته

بالشركة البريطانية التى يتعاملون معها، ولكنها رفضت تمامًا، وبدأ اتصالاته مع الشركة الفرنسة ورفضت الدمج هى الأخرى، وبعد دراسة ومراسلات فوجئت سارة بطلب من شركات مدكور ودراسة عن إمكانية دمج المصنع والشركة الأم إلى شركة سارة.

وبالطبع لم تصدق سارة نفسها حينما وقع الملف على مكتبها موقعاً من مديرعام الشركة بتفويضها كمسؤولة عن فروع الشرق الأوسط بالدراسة وإبداء الرأى.

ارسلت الشركة الألمانية الموافقة المبدئية على التفاوض، وطلب اجتماع بالسادة المسؤولين من شركة مدكور مع مسؤولى الشركة الألمانية وحددوا الموعد في ألمانيا بعد عدة أيام.

لم تتوقف سارة عن التفكير والعزلة في حجرتها أو مكتبها ودراسة الأمر من كل جوانبه والتساؤلات تذهب وتعود ككرة بينج بونج في رأسها.

- صلاح معرض للإفلاس أوالسجن على حسب رأى المحامى رغم خروجه من الشق الجنائى في قضية الفساد.
- سامى وفريقه ربما يخرجون ولكن بالتأكيد سيواجهون أحكام بالسجن في عدة أمور أخرى.
- موافقتى على الاندماج ستزيل الشرنقة التى اختبأ خلفها ولا يعرفنى وهنا سأضطر إلى مقابلته، هل أنا على استعداد للمواجه.
- هل أتطيع أن أقابله؟

- هل أعرض كل ثروتى ومكاسبى وكفاح السنوات السابقة إلى الخطر من أجله؟
- هل يستحق؟
- أم أنه القدر ساقه إلى طريق الانتقام.
- الأن أصبح سامى وفريقه وإمبراطوريتهم ومعهم صلاح تحت قدمى.
- بيدى إنقاذة أو سحقه.
- أيهما أختار الانتقام، أم المسامحة والنجاة بهم، أم المشاهدة من بعيد والتخلى عن ابن خالى لأرى انتقام الزمن منه.
- أم هل أخرجه هو وحده من كل هذا؟

تساؤلات عديدة والإجابات مشوشة، ولكن بالتأكيد سأهتدى إلى ما فيه الخير.

اتخذت القرار بالتفاوض مع أعضاء مجلس الإدارة والمديرين على مقابلتهم، وجاء اليوم الموعود، وشاهدت صلاحاً وثلاثة من أعضاء شركته يصلون إلى مقر الشركة ووصلوا إلى قاعة الاجتماعات منتظرين ووصول الفريق الألمانى.

وبدأ في تبادل أطراف الحديث.

طارق المحامى: أعتقد أنك متعود على المكان، فانت دائم الحضور هنا.

صلاح: أنا هنا لقاءاتى محدودة ما بين المسؤولين الذين أتفاوض معهم ومسؤول العلاقات العامة فقط.

رامز : لقد أجريت اتصالاتى ، وعرفت أن من سيتفاوض معنا اثنان ألمان ، وعرفت أن معهم مصريه أتمنى أن نستطيع أن نأخذها في صفنا .

صلاح : لم أقابل مصريين هنا من قبل .

رامز : كيف هذا يا صلاح بك انها من توقع لك على الاعتمادات .

صلاح : شئ غريب لم أراها من قبل .

رامز : على العموم ركز معها في الحوار ، فهى لها نصيب كبير في الأسهم وأهم شخصية في المجموعة .

ومر اللقاء سريعًا ليجد صلاح نفسه في الطائرة عائدًا إلى مصر ومعه سارة ، ولكن ليست حبيبته ولا ابنه عمه ولا زوجته بل مدير أكبر شركة يتعامل معها .

أفاق صلاح من غفوته الكبيرة ، وعاد إلى أرض الحاضر ليهبط سلم الطائرة إلى واقع جديد يعيش فيه .

عادت سارة إلى أرضها وبلدها وسلاح الانتقام في يدها فهل سيكون سوط جلاد الانتقام ، أم مشرط جراح التطهير والعلاج كان هذا هو السؤال؟

*****

(١٦)
العودة

وبعد وصولهم كان صلاح قد قام بتجهيز رجاله لينتهوا من كل شيء سريعًا.

سكرتير صلاح: أهلاً حمدًا لله على سلامتكم.

صلاح: الله يسلمك.

السكرتير: السيارات بالخارج، وحجز الفندق للسادة الضيوف ثلاث غرف في أفخم الفنادق جاهز.

صلاح: حسنًا هيا بنا.

سارة باقتضاب: أنا لن أقيم في الفندق، أريد سيارة توصلنى لشقتى.

رامز: آه... حسانًا... لم نعلم أن لديك سكنًا هنا... نعتذر. سنجهز سيارة لسيادتك... أين تقيمين؟

سارة: ٦ أكتوبر.

تعجب صلاح كيف يكون لها سكن هنا، ولم تحاول أن تقابلنى ولو مرة واحدة.

عاد صلاح لبيته وشيرين فرحة باستقباله والأولاد يستقبلونه بحفاوة.

شيرين : حمداً لله على السلامة يا حبيبى .

حسام : كيف أخبار ألمانيا ، لم أذهب للتدريب اليوم لكى أراك ، اشتقت إليك .

صلاح وهو متعب وابتسامة باهتة : بخير كيف حالكم؟ أين حسن قال إنه سيحضر هو وحسين .

شيرين : في الطريق .

هيا لترتاح وتأكل وتحكى لى ونحن على الغداء .

وصلت سارة إلى مبنى عمارة فاخرة في أجمل أحياء ٦ أكتوبر لتجد من ينتظرها في سيارة فاخرة على مدخل العمارة ، مدير أعمالها .

المديربابتسامة عريضة وصوت قوى : نورتى مصر يا دكتورة .

نزلت سارة من سيارة صلاح التى أوصلت فريقها الألمانى إلى الفندق ثم توجهت بها إلى ٦ أكتوبر ، ونزل منها السائق ليخرج حقائبها ويفتح الباب لها .

سارة : الله يسلمك .

المدير : لقد جهزت لك كل شيء كما طلبتى ، أتمنى أن تكون الرحلة سعيده .

سارة بابتسامه باهتة : الحمد لله ولكنى متعبة هيا لندخل .

صعدا الاثنان وخلفهما السائق بالحقائب، ونظر السائق في وجه المدير وقال في نفسه . . آه لقد رأيت هذا الرجل من قبل، من هو يا ترى؟ إنه ليس غريب عنى، لقد رأيته وركب معى السيارة من قبل، هل هو أحد عملاء الشركة؟ ربما .

وصلا في الأسانسير والسائق يفكر في الأمر وسارة والمدير يتحدثون في الأسانسير حتى صعدا إلى باب شقتها وترك الحقائب وهبط .

السائق يهمس في نفسه : لا يمكن لقد رأيته من قبل، سأتذكره بالتأكيد .

دخلت سارة إلى شقتها الفاخرة الممتد مساحتها على مساحة شقتين من العمارة الكبيرة، مجهزة بأفخر وأجمل الأثاث، واستقبلتهم خادمة أسيوية .

المدير : لقد أحضرت لك خادمة أسيوية كما طلبتى، وكل شىء مجهز، سأتركك ترتاحين، وأعود إليك في الغد لنتحدث .

سارة : لا ليس هناك وقت سأرتاح ساعتين أو ثلاثة وأنتظرك مساءً لنتحدث في كل شىء، أشكرك على تعبك .

قاد السائق السيارة وعقله لم يتوقف عن التفكير حتى وصل إلى بيت صلاح وفجأة خبط بقبضة يده على عجلة القيادة، هو هو نعم هو، لابد أن أخبر صلاح بك ربما أن هذا الأمر يهمه .

دخل السائق إلى المنزل، وطلب مقابلة صلاح، ودخل إلى غرفة مكتبه ليجد صلاح وحسن وحسين يجلسون معاً، وكان صلاح يحكى لهم كيف عثر على سارة، وكان يتحدث بهمس حتى لا تسمع شيرين .

صلاح : هل وصلتهم يا محمود .

السائق : نعم يا صلاح بك ، ووصلت سارة هانم إلى بيتها ، ولكن حدث أمر هام أريد إخبارك به .

صلاح : خيراً تحدث .

السائق : لقد كان في انتظارها رجل علمت أنه مدير أعمالها ، ولم يكن شكله غريبًا عليّ وبعد تفكير تذكرته .

صلاح : هل هو أحد أعرفه .

السائق : إنه عادل المر المحامى الذى كان معك في قضيتك يا سيدى .

اندهش الجميع ونطق حسين : شيء غريب ، هل تعلم أننى بعد مقابلتى له لم يذكر لى أبدًا سبب حضوره معك الجلسات ، وقال لى إنها قضية رأى عام وأحببت أن أكون بها ، و لم يقبل منى أى نقود .

حسن : هل تعلم أنه هو نفسه من دفع لصاحب البيت باقى ثمن الشقتين الخاصتين بنا وحينما سألنا الشركة المالكة للعمارة وقتها لم نصل لأى رد أو إجابة مفيدة سوى أن أحد رجال الأعمال سدد باقى أقساط شقتنا ، وأرسل الإيصالات إلى مقر شركتنا ، ولكنى باتصالاتى علمت أنه واحد من مكتب عادل المر .

صلاح : شكراً يا محمود ، ولو علمت أو لاحظت أى شيء أرجو أن تخبرنى به .

السائق : تحت أمرك صلاح بك .

صلاح: هل تعتقدون أنها من أرسل المحامى؟ وهى من سدد باقى أقساط الشقق؟ لا أظن. . . إنها لم تعطنى حتى فرصة لكى أتحدث معها.

حسين: الأمر فعلا غريب، ويحتاج إلى تفكير، ولكن أنا من داخلى في منتهى السعادة أنك قابلتها والود ودى أنطلق إلى بيتها لأسلم عليها.

صلاح: لا لا ربما فيما بعد.

حسن: عندك حق.

لم يكن الصباح ببعيد عن سارة حيث استيقظت فجراً ولم تنسى صلاتها كعادتها، وقرأت القرآن ككل يوم، بل جلست تناجى ربها كثيراً، وكأنها تطلب منه العون في معركتها القادمة، وانطلقت مبكراً إلى الشركة لتصل قبل صلاح أو فريق العمل من شركة سامى مدكور، لتجتمع بفريق عملها الألمانى بمكتبها الفاخر الذى أعده لها صلاح قبل أن يتوزعوا على مكاتب الشركة ويطلبوا ملفات بعينها وحسابات، وقد وضعوا مخططًا زمنيًا للدراسة وإصدار التقرير الذى يرسل مباشراً لألمانيا بتوقيع وقيادة سارة.

انتصف النهار بساعات حتى اقترب المغيب، وسارة وفريقها في العمل، وهى كعادتها تتجنب الحديث مع صلاح ما استطاعت حتى انتهى العمل وذهب كلٌ منهما إلى مكتبه لتبدأ سارة في الاسترخاء قليلاً قبل أن تهم بالانصراف، ليدخل صلاح إلى مكتبها وبالطبع لم تفكر السكيرتيرة في منعه أو حتى استئذان سارة في دخوله.

صلاح بصوت هادى: ممكن أدخل.

سارة وهى واقفة بجوار مكتبها تنظر في بعض الأوراق وحقيبتها بجوارها ومن الواضح أنها تهيئ نفسها للانصراف وببرود شديد: أنت دخلت بالفعل.

تنهد صلاح بصمت: أريد أن أتحدث معك قليلاً.

سارة ترفع يدها وتنظر في ساعة يدها الماسية الباهظة الثمن: أعتقد أن الوقت تأخر وأنا سأنصرف الآن.

صلاح اقترب أكثر حتى أصبح مواجهاً لوجهها: قلت لك أريد أن أتحدث معك قليلاً ولن أعطلك.

سارة: وأنا أبلغتك أنه ممنوع التحدث مع أفراد اللجنة على انفراد.

صلاح: أنا لا أريد أن أتحدث في العمل.

انصرفت سارة بوجهها وهى حاملة حقيبتها في يد والموبايل في اليد الأخرى وهى تحاول التهرب: إذاً لا يوجد سبب أو أى شيء نتحدث فيه.

سحبها صلاح من ذراعها فإذا بها تنتفض كمن مسه كهرباء، وتسحب يدها سريعاً ونهرته بلهجة قاسية: من فضلك أنا لا أسمح لك، اخرج حالاً.

صلاح بصوت هادئ: أرجوكِ أريد أن أتحدث معك قليلاً.

رفعت سارة الموبايل وهى تضغط على أحد الأزرار وبصيغة تهديد: إن لم تنصرف حالًا سأكون متصلة بهير ألبرت وأخبره بفشل الدمج وأستقل أول طائرة لألمانيا غدا... اليوم لو أمكن.

تأثر وجه صلاح بشدة وتراجع للخلف وهو يرى مدى إصرارها على عدم السماح له بالحديث ونكس رأسه وخرج على الفور، والحزن يظهر على وجهه.

يمر الليل على صلاح وكأنه دهر فلا يكاد ينام إلا سويعات قليلة، ولا يتركه التفكير وشرود الذهن، لم تكن مشاكل العمل ولا القضايا وحدها ولكن ظهور سارة في حياته كان يأخذ الجزء الأكبر من عقله، وأمام النافذة في وسط الليل الحالك وقف ينظر إلى السماء، و تدور كل الأحداث والتساؤلات في رأسه.

- لماذا الآن لقد كانت تعرف طريقى وترانى بل ومن السهل جداً أن تقابلنى، ولكنها لم تفعل؟ فلماذا الآن ظهرت في حياتى وأنا في قمة الانهيار، ولم يعد لى قوة ولا سند؟
- لماذا لم ترسل لى، ولم تحدثنى، ولم تصرخ في وجهى؟
- هل ستنتهى الأمور هكذا، القضايا تحت نظر القضاء، وحماى الله أعلم سيأخذ حكمًا ام لا؟
- المحامون يبذلون مجهودات خرافية للخروج الآمن من القضايا بل ويصنعون السحر الأسود وليس المستحيل لكى يخرجوه وعائلته من القضايا ويبدلونهم بصغار الموظفين عبيدهم وخادميهم في الشركة.

ورفع رأسه ونظر إلى السماء وهمس اللهم ساعدنى.. وتخرج تنهيدة ساخنة من قلبه ومعها كلمة الحمد لله.

احمنى يارب وأخرجنى مما أنا فيه على خير، يارب أعلم أنى أخطأت في حقها، أعلم أنى ظلمتها، أعلم أنى لم أحافظ عليها كما يجب، ولكن أنت وحدك الأعلم أنى كنت مرغمًا . . . ، وأنت وحدك مقلب القلوب، وتعلم أنى طوال عمرى لم أحب غيرها، يارب ساعدنى . . .

ولم يجد صلاح بدًّ من أن يطلق عيونه حولها فوظف لها السائق سعيد لكى يكون عينه عليها ويخبره بكل تفاصيل تحركاتها .

مرت أيام قليلة وسارة وفريقها يكادون يأكلون الأوراق أكلًا لا يتركون صغيرة ولا كبيره إلا ويعبثون بها حتى ولو ورقة صغيرة ملقاة في زاوية المكتب يرفعونها ليعرفوا ما بها .

وفى أحد الأيام كانت سارة تستقل الأسانسير للأسفل ففُتح الباب في أحد الأدوار وكان حسين على باب الاسانسير، التقت عينيهم وابتسم حسين وهَم أن يحدثها، ولكنه تراجع وتذكر تحذير صلاح، فانسحب، عرفها على الفور وعرفته هى أيضًا رغم مرور الزمن ورغم رسم فرشاة الأيام ملامح الشباب والرجولة على وجهه إلا أن عينيه الطفولتين وروحه كما هى .

وللحظات تذكر حسين لعبها معه وكم كان يجلس هو وحسن في حجرها لتحكى لهم القصص وينتظرون صينية البسبوسة من يدها، والهدايا مع النجاح والأعياد .

خرجت سارة من الأسانسير ونظرات حسين لا تفارق عينيها، جلست في السيارة ولم تنطق بكلمة لعدة دقائق فبدأ السائق يحدثها .

سعيد السائق : دكتورة هل سنعود للمنزل؟

ساره : نعم سنعود للمنزل .

بدأ السائق في تشغيل السيارة فقاطعته سارة : ولكن ليس ٦ اكتوبر سنذهب إلى كفر أولاد راضى .

تعجب السائق ، ولكنه لم ينطق ، وانطلق بها إلى القرية .

وجهت سارة السائق إلى الطريق وطلبت منه السؤال عن طريق المقابر ورغم بداية دخول الليل إلا أن سارة لم تخشى شيئاً بل صممت أن تذهب إلى هناك .

السائق وهم على مدخل المقابر : دكتوره إنه من الخطر الدخول إلى المقابر وحدك مساءً .

سارة : لا تخف أعرف المقبرة ليست ببعيد .

السائق : إذا كان لابد سأدخل معك .

هزت سارة رأسها بالموافقة : ليس هناك مانع .

ودخلا سويًّا وأمام أحد الأحواش توقفت سارة أمام اللافتة ونادت على الخفير ودخلت إلى المقبرة ، وطلبت منهم أن يتركوها قليلاً .

وقف الخفير في الخارج ، ووقف السائق بالقرب منها قليلاً ، ووقفت سارة أمام شاهد القبر ، وبدأت في بكاء هستيرى تعجب له السائق .

لم تدرك سارة أنه بجوارها ، ويسترق السمع إليها وبدأت في حديث مفتوح مع القبر .

سارة: اشتقتُ إليك أمى.. اشتقت حضنك وحبك وحمايتك.. أبى احتاجك بشدة وكأنى طفلة العاشرة.. أحتاجك أخى.. لماذا رحلتم جميعاً سريعاً هكذا.

توجهت بوجها ناحية لوحة عليها اسم خالها: اشتقت إليك خالى..

تقطع صوتها ببكاء أقوى.. سامحتك يا خالى سامحتك صدقنى لم يعد في قلبى سوى الشوق إليك.

سامحتك يا خالتى سعاد.. أعرف أنه كان رغمًا عنك سامحتك.. سامحونى أنى ابتعدت عنكم، سامحونى أنى لم أخبركم أين أنا.. ولكن كان رغماً عنى لم أستطع التحمل وقتها.

خالى يا أحن خال أحبك.. فأنت من عوضنى عن أبى... سامحتك يا خالتى سعاد كم كنتى خير أم لى.. ولا أعرف كيف بدونك كنت سأعيش.

وفى تنهد قوى: آه لو عادت الأيام...

قل لى يا خالى ماذا أفعل.. دلنى على الطريق يا أبى.. أنا خائفة.. ادعو لى.. وساعدونى.

وأمسكت بالمصحف من حقيبتها وظلت تقرأ العديد من سور القرآن حتى هدأ بكاؤها قليلاً.

ثم استدارت ناحية الخفير وأخرجت مبلغ مالى كبيرًا من حقيبتها وأعطته له وأمرته بتنظيف المكان جيدًا وإحضار الزرع ونباتات جديدة ثم خرجت واستقلت السيارة.

السائق: أى طريق سنسلك للعودة.

سارة: لن أعود الآن سندخل إلى داخل القرية أنا سأرشدك للطريق.

انطلق بها إلى داخل القرية وشوارعها الضيقة حتى وصلا إلى بيت قديم مظلم، وخرجت من السيارة وأخرجت المفتاح من حقيبتها وبدأت في فتح الباب الخارجى.

السائق: سيدتى إن المنزل فارغ ومظلم، هل أدخل معك.

سارة: لا يهم لن أتاخر سألقى نظرة عليه سريعة وأرحل.

ألقى السائق نظرة على اللافتة المعلقة على باب المنزل [منزل الحاج عبد الله راضى]

دخلت سارة وأضاءت الأنوار لتجد نفسها أمام صورته منذ عشرين عاماً الأطفال يجرون وسعاد تشعل الفرن والدخان يملأ المكان حياة... وهى تساعدها في إعداد الطعام... وصلاح يجلس على الأريكه يقرأ... والحاج عبد الله يشاهد التلفزيون.

الدجاج ينادى بعضه في الخارج... والماعز تلعب مع بعضهم في فناء البيت... والقطة تجرى هناك خلف دجاجة.. والأرانب تختبئ في حضن أمهم داخل المخبأ، الحياة تدب في كل ركن بالبيت.

لتفيق من حلمها على سواد الليل ورمادية تراب السنين الذى يغطى كل شبر في البيت، لتستدير سارة في هدوء وتخرج وتغلق الباب خلفها.

وتعود إلى القاهرة كما جاءت في هدوء ودون تخطيط.

وما لبث أن عاد سعيد السائق إلى القاهرة حتى اتصل بصلاح في نفس الليلة ليخبره بكل التفاصيل، التى زادت من قلق صلاح وتوتره.

ومرت عدة أيام أخرى، وفى أحد الايام وسارة تستريح قليلاً في مكتبها بعد يأس صلاح من الحديث معها على انفراد فوجئت بمن تطرق الباب وتدخل.

دخلت الضيفة بابتسامة رقيقة: صباح الخير.

رفعت سارة رأسها واندهشت، ولكن تمالكت نفسها سريعاً: أهلاً وسهلاً.

الضيفة: أحب أعرفك بنفسى أنا شيرين مدكور ابنة سامى مدكور وزوجة الدكتور صلاح.

تمالكت سارة نفسها ورسمت ابتسامه باهتة على وجهها، ورفعت رأسها واستنشقت بعمق لتضع وجه القوة على وجهها ووقفت بشياكة من على مكتبها: أهلاً وسهلاً تفضلى.

شيرين: أنا سمعت عنك كل خير من صلاح ومروان، وكنت أريد أن أقابلك منذ حضورك مصر.

سارة باقتضاب: شكراً.

شيرين: أنا سعيدة أنك مصرية، وعلمت أنك إن شاء الله الخير سيكون على يديك، وأتمنى أن تحظى شركتنا برضاك.

سارة: إن شاء الله.

وبدأت تتجاذب معها أطراف الحديث بشكل راق وسارة ترد باقتضاب مختصر حتى دخلت فتاه ممشوقة القوام هادئة الجمالً وتوجهت إلى شيرين ولم تكن تعرفها سارة.

الفتاة: صباح الخير... أنت هنا يا ماما ولم تقولى!

شيرين: تعالى يا سارة... أحب أعرفك يا مدام سارة، هذه سارة ابنتى.

لمعت عينا سارة عندما رأت ابنة صلاح... ياه كم هى جميلة.. اسماها سارة على اسمى.. وللحظات تذكرت كم قال لها أتمنى ابنة في جمالك وأسميها على اسمك.. وللحظات شرد ذهن سارة وهى تحتضن سارة الصغيرة وتقبلها.

شيرين: ما رأيك بها يا دكتور سارة.

سارة الصغيرة: أنا سعيده أن اسمى على اسم حضرتك.

سارة بابتسامة: أنا أسعد حبيبتى.

شيرين: أنا جئت اليوم لأعزمك على الغداء فلايمكن أن تكونى في مصر دون أن تتغدى معنا، ولن أتحرك من هنا إلا وأنت معى، حتى لو انتظرت لساعات حتى تنهى عملك.

لم تجد سارة التى انتابها خليط من مشاعر الفرح والغبطة بسارة الصغيرة إلا أنها وجدت نفسها توافق على الذهاب معهم لفيلا صلاح.

دخلت سارة فيلا صلاح، ومن أول خطوات بها وهى تتساءل كيف يكون بيت صلاح الذى تمنيت كثيراً أن أهيئه له بنفسى، الحديقة جميلة والفيلا حديثة بديكورات عصرية راقية.

شيرين: تفضلى مدام سارة.

سارة وهى تمر بنظرها على الفيلا من الداخل بنظرة سريعة: بيتك جميل مدام شيرين.

شيرين وكأن فرصة حياتها قد حضرت وبصيغة استعراضية: شكراً.. لقد اخترت كل قطعة بعناية فائقة، صلاح دائماً مشغول وأنا جهزته بكل صغيرة وكبيرة، وكله منقولات جديدة، لقد انتقلنا هنا منذ خمس سنوات، الحى جديد والمنطقة جديدة.

ابتسمت سارة وبدهاء سألتها: ألم تتزوجى هنا.

شيرين: لا أنا تزوجت في شقتى في المعادى ثم انتقلنا هنا بعد افتتاح المصنع الجديد في المدينة.

سارة: إنه بيت جميل فعلاً.

شيرين: سأمر على المطبخ وأعود إليك حالاً.

تجولت سارة في الفيلا لبعض الخطوات وساقتها خطواتها إلى حجرة المكتب لتجد صورة خالها وزوجة خالها معلقة على الحائط، وعلى مكتب صلاح برواز صغير لصورة لهم جميعاً وهى طفلة بضفيرة طويلة وهو بجوارها، ومعهم حسن وحسين لم يتجاوز عمرهما الرابعة، تذكرت

الصورة سريعاً، كانت في أحد الأعياد وتذكرت لحظات السعادة التى غمرتها في هذا الوقت.

وسريعاً وضعت البرواز مكانه وخرجت من المكتب بعد أن قرأت الفاتحة سرًّا بين شفتيها وهى تنظر إلى صورة خالها وزوجته.

وعلى مائدة كبيرة عامرة بكل طعام مصرى أصيل جلست سارة وشيرين بجوارها وأمامهم سارة وبجوارها عمرو.

شيرين: تفضلى أتمنى أن يعجبك الأكل، أعتذر لم أستطع صنع أكثر من ذلك.

سارة وهى تعتدل على الكرسى: واو ما كل هذا، محشى وبط وبامية وملوخية.

شيرين وهى مبتسمة وتعتدل في جلستها: لقد أمرت بصنع كل ما هو مصرى، بالتأكيد تشتاقين إلى هذا الطعام.

سارة: طبعاً.

شيرين: صلاح قادم في الطريق، اندهش ولم يكن يصدق أنى عزمتك على الغداء وأنك بالفعل معى في البيت، وقال لى إنها مسافة الطريق وسيكون هنا، لكننا لن ننتظره سنأكل وهو يحصلنا.

سارة: أشكرك.

ولم تمر دقائق وما أن بدؤوا في تناول الطعام حتى حضر صلاح، وكان واضحاً عليه التوتر والارتباك، ووقف على رأس السفرة بجوار الكرسى الرئيسى: مساء الخير.

شيرين موجة حديثها لصلاح : ها قد وصلت ، لم تتأخر .

استعدل صلاح الكرسى وجلس : أهلاً وسهلاً مدام سارة .

سارة وهى تنظر إلى الطعام وتضحك ولم تحاول أن تلتفت له : الله يسلمك .

شيرين موجة حديثها للخادم الذى يمر بجوار السفرة : قدم المزيد إلى مدام سارة .

سارة ضاحكة : أوه الطعام هايل يا مدام شيرين المحشى يجنن ، هل هذا صنع يدك؟ طبعاً لا!

شيرين ضاحكة : حقيقى هذا صنع الطباخ أنا لا أعرف الطبخ إطلاقاً .

سارة وهى تأكل بنهم : منذ فترة لم أكل مثل هذا الطعام الجميل ولكن أمى وزوجة خالى كانوا يصنعوا طعاماً هائلاً .

لم يضع صلاح لقمة في فمه وينظر إليها في صمت بين الحين والآخر ممسكاً بالشوكة فارغة .

شيرين : طبعاً طبعاً هو في مثل سيدات زمان .

ووجهت حديثها إلى صلاح : لماذا لا تأكل؟

صلاح : معدتى متعبة بعض الشىء .

سارة الصغيرة : بتعرفى تطبخى يا طنط .

سارة ضاحكة : طبعاً أحسن من أمك .

انزعجت شيرين من ردها ونظرت لها بتعجب .

ضحكت سارة الصغيرة : هل أنت سافرتى إلى ألمانيا منذ فـترة بعيـده يـا طنط؟

سارة : حوالى تسع عشرة سنة .

عمرو : عندك أولاد يا مدام سارة؟

سارة : آدم .

اهتز صلاح في كرسيه عندما علم أن لها أولاداً .

شيرين محاولة التودد : تفضلى البامية تجنن .

سارة ضاحكة : كل الطعام يجنن الخادمة التى لديّ لا تطبخ إلا السوشـى والسى فود .

شيرين : ياه حقيقى ، لكنى فوجئت أنك لا تقيمين في الفندق هل تقيمين مع أسرتك ، أم أن أسرتك جميعهم في ألمانيا .

سارة وهى تنظر إليها بعد أن وضعت لقيمة في فمها : أنا ما تبقـى لى مـن أسرتى في مصر .

سارة الصغير : ألم تحضرى إلى هنا منذ زمن؟

سارة : لا . . أنا أحضر كل عدة سنوات حسب الظروف ، لقد حضرت في وفاة خالى منذ عدت سنوات حضرت جنازته وعدت .

وحضـرت في زفـاف أولاد خـالى لعـدة سـاعات حضـرت الفـرح وانصرفت .

ووفاة عمتى . . هكذا زيارات سريعة .

وحضرت العام الماضى وقضيت عطلة طويلة في السياحة والفسحة أنا وآدم .

توتر صلاح وهو يسمع هذا الكلام المفاجئ، ولم يكد ينزل عينيه من عليها .

شيرين بسؤال ينزلق من لسانها دون قصد : وزوجك حضر معك .

سارة وهى تنظر إليها في عينيها : أنا لست متزوجة .

شيرين بنغمة آسفة : آسفة لم أقصد .

سارة الصغيرة بضحك وشقاوة : زوجك كان ألمانيّا بقى؟ ، أصل أنت جميلة قوى يا طنط .

شيرين بنظرة حازمة لابنتها : يا بنت .

سارة وهى تضحك : أنا لم أتزوج أصلا يا سارة .

سارة الصغيرة وضعت الشوكة على حرف الطبق بصوت وشهقت في وجهها : يااااه هى الحياه عندكم سهلة كده يا طنط .

ضحكت سارة بصوت مسموع ، وكاد الطعام يقف في حلقها وفى نفس اللحظة صرخ صلاح بصوت عالٍ : سارة في إيه يا بنت .

شيرين بارتباك : آسفة مدام سارة إنها صغيرة لم تقصد بالتأكيد .

سارة شربت بعض الماء وهى تضحك : لا شىء .

سارة الصغيرة: أنا لم أقصد يا طنط.

سارة وهى تنظر إليها في حب وتتحدث بود وصوت رقيق: لا شيء حبيبتى، الحياه في الغربة مختلفة يا سارة، أحياناً تجدين نفسك تفعلين ما كنت في يوم من الأيام لا تتخيلى أن تفعليه، ويفرض عليك أساليب حياة مختلفة عنك، ولكن بالتأكيد سيكون لديك مبادئك الخاصة و. . . أوه سارة سنحتاج للحديث بشكل مطول. . . ولكن أوعدك عندما يحضر آدم سأعرفك عليه، ستعجبين به جداً إنه شاب وسيم وطويل ورياضى ومتفوق، شيء مثل نجوم السينما.

واتضح الانزعاج على صلاح والاختناق حتى أنه فتح ربطة عنقه، واعتذر: آسف سأسبقكم للصالون.

سارة وهى تنظر إليه بطرف عينيها وكأنها سعيدة بالنار الهادئة التى يشوى عليها: تفضل أنا خلاص لم أعد غريبة، ولا إيه يامدام شيرين.

شيرين: طبعاً طبعاً.

وفى الصالون جلسوا يتناولون الشاى ويتبادلون الحديث، وصلاح جالس على الكرسى الجانبى في صمت.

شيرين: أنا سعيدة بالتعرف عليك، حتى أن وجهك أشعر أنى رأيته من قبل، وكأنى كنت زميلتك في جامعة دراسية أو شيء من هذا القبيل.

سارة بابتسامة ماكرة: يمكن.

شيرين: أتمنى أن تقفى بجانبنا ، أنتى لا تعرفين أن أمر القضية قلب حياتنا رأساً على عقب، ولا أعرف كيف صنعوا كل هذه القضايا لأبى،

فأبى رجل خدوم، وكل أهل دائرته يحبونه وخَيِّر، وصنع لهم مشاريع خيرية كثيرة جداً.

سارة ضحكت بصوت عالٍ جداً حتى دمعت عينيها فانزعجت شيرين من ضحكتها.

وأكملت سارة حديثها وهى تنظر بطرف عينيها إلى صلاح: لا تقلقى أنا أعرف سامى بك جيد جداً، أعرفه أكثر مما تتخيلين، فوالدك لم يكن يقف أمامه شىء، أى شىء يرغب في تنفيذه أو امتلاكه يصنعه، إذا وضع عينيه على أى شىء كأنه أمر، أراضٍ، مشروعات، مصانع أو حتى رجال.

تأثر صلاح بكلماتها بشدة وظهر عليه التأثر فحاول تغيير مجرى الحوار سريعاً: شيرين المدام في بيتنا فلا يصح أن نتحدث في العمل.

سارة اعتدلت في جلستها وأنزلت ساقها من على الساق الأخرى وقالت: أعتقد أنى تأخرت كثيراً، شكراً يا شيرين هانم على العشاء، حقيقى كان رائعاً.

شيرين: العفو أتمنى أن تكرريها.

وأوصلتها شيرين حتى باب البيت وصلاح خلفها بخطوة وخلفهم سارة الصغيرة.

سارة الصغيرة: مع السلامة يا طنط، أتمنى أن أجلس معك كثيراً ونتحدث سويًّا عن ألمانيا كما وعدتينى.

عمرو: هستناكِ في عيد ميلادى.

سارة: متى عيد ميلادك؟

شيرين : عيد ميلاد إيه وإحنا في الظروف دى .

عمرو وهو يثير ضجة بقدمية ، هتعملى عيد ميلادى وهعزم أصحابى مهما كان .

صلاح : بس يا ولد .

شيرين : هو مصمم لكن الظروف طبعاً .

سارة : كل سنة وأنت طيب مقدماً .

سارة الصغيرة : وأنت طيبة .

سارة مدت يدها واحتضنت سارة الصغيرة وألتقت عيناها بعين صلاح من الخلف : أنت أحلى حاجة قابلتها منذ أن حضرت إلى مصر يا سارة .

*****

(١٧)
الملفات السوداء

لم تكتفى سارة بفريقها المكون من اثنين بل استعانت بمكتب عادل المر محاميها ليحضر لها اثنين آخرين تحت مسؤوليته ليكون ضمن فرق العمل الخاص بها وبعلاقاته ودهائه وشبكته التى رباها و استمرت سنين، وببحثه خلف خلفية سامى مدكور منذ سنوات، كما وظفته سارة وكسب من خلفها الكثير، ومع اختفاء مروان وفريقه من أحمد وطارق وخالد وتخبط رجالهم رعباً مما أعطى الفرصة القوية لسارة إلى مد يديها وسط كومة مخلفاتهم وبدأت الصورة تكتمل والملفات السوداء يكتمل سوادها الحالك.

فمن منشطات تدخل بأسعار أقل ما يقال عنها أنها قروش، وتباع بأكثر من ٥٠٠ ضعف إلى أدوية مخدرة تدرخل على أنها مسكنات.

إلى مواد خام تدخل على أنها مواد خام لعقاقير التخدير ولا يستخدم منها في المصنع إلا العُشر، والباقى يحول إلى المجهول، وهو بطبيعة الحال لن يكون إلا بيع المخدرات.

بخلاف تجارة العملة واستبدالها، والذى كون لها عادل المر ملفاً مصوراً دون علمه.

وتجارة الآثار التى كان يعمل بها كوسيط من الباطن تحت حماية غطاء الحصانة البرلمانية.

ولكن متى تكون الضربة القاضية، كل هذه أوراق في يدى، كيفية التعامل معها، كيف تخرجها ومتى، واسم صلاح الموقع على كثير من دفعات المواد الخام الطبية التى دخلت البلاد، ولكنها متأكده من أنه لم يكن على علم بها، وكل هذا رغم حرصه الشديد وتوخيه الحذر في كل تعاملاته.

هل تفجر الأمر وكل الأوراق في نفس اللحظة، وتكون النهاية هى القضاء النهائى على الإمبراطورية بما فيهم صلاح وهى لن تكسب شيئاً أم تكتفى للتلاعب ببعض الأوراق الخاصة بالمصنع وخاصة مصنع كفر راضى و العاشر، أم أنها تأخذ بحقها منهم جميعاً.

أم أن الحب القديم والدم المختلط حبًّا ورحماً وقربه بينها وبين صلاح يمنعها من هذا التشفى.

كل هذا كان يدور بين سارة ونفسها ويشاركها به عادل المر ذلك العقل الفولازى الذى يملأ ثناياه من ثغرات القانون، ويتنفس تراب المحاكم، ويلعب بسجلات الفضائح كأنها أوراق كوتشينة يلهو بها طفل، ومع كل هذه الهالة المحيطة به إلا أنه يقف عند سارة كالحارس الشخصى لما يأخذه من خلفها من مكاسب مادية ممتازة.

وبعد المشاورات وبعد خبرته القانونية التى أعطاها لها كان رأيه أن تتريث قليلاً قبل كشف كل الأوراق حتى تلم باقى الخيوط وخاصة مصنع ٦ أكتوبر، وخاصة أنه يعرف أن سامى سيخرج من قضايا قتل المتظاهرين على زمة القضية أما قضايا التلوث فمازالت قيد التحقيق، وغالباً أيضاً سيجد من يحملها عنه.

وقضايا الإضرار بالمال العام والضرائب والأراضى فستنهى بدفع الملايـن ولكن كل محاولتهم الآن على الفصال حتى يصلوا إلى أقل مبلغ ممكن.

وهكذا انتهى رأى سارة مع عادل المر إلى الاستمرار والصبر والوقت.

سرعان ما خرج سامى ومروان في نفس الأسبوع من القضـايا علـى ذمـة التحقيق بكفالة، لينطلق الجميع بالفرحة وتقيم شيرين حفلاً صغيراً في الفيلا الخاصة بمناسة خـروج والـدها وعيـد مـيلاد عمـرو، وتـدعو كـل إخوتهـا وأسرهم لكى يدخلوا القليل من البهجة والفرح على الجميع.

وبالطبع كانت سارة وفريق العمل الألمانى ضمن الحضور.

فى الحديقة مـع مـدخل الفـيلا كانـت ألـوان الإضـاءة الجميلـة والفرقـة الموسيقية التى يرأسها حسـام، وأولاد أخـت شـيرين مـن الشـباب يملـؤون الحديقة وأخواتها على المقاعد والمناضد أمامهم.

حضرت سارة ببدلة سهرة جميلـة وراقيـة جـدًّا بمفردهـا، وجلسـت مـع زملاء فريقها الألمانى.

وصلاح يرقب في صمت من بعيد وهو جالس في هدوء على غير عادته،

شرين تتجول هنا وهناك وتعطى أوامرها للخدم، وكانت تلاحظ عينيـى صلاح وتذكرت في لحظات كم عدد المرات التى سألته فيها ما بـك، وكيـف حالة التغير التى طرأت عليه في الآونة الأخيرة وخاصة بعد عودته من ألمانيا،

فلم يكن هذه عادته أبداً في الحفلات أو المواقف الخاصة بل كان دائماً شعلة الوقود والمحرك لكل شيء حولة .

وحسن وحسين كعادتهما ظل صلاح حضرا الحفل ولكن ليسا كما كانا تقوقعا في مقاعدهما دون بهجة ، وتقدم حسين إلى ناحية سارة وعيناه التقت بعينى سارة وكأنه يريد أن يرتمى في حضنها كما كان يفعل وهو صغير ومد يده بمنتهى الهدوء : أهلاً مدام سارة .

مدت سارة يدها ناحيته : أهلاً بك أستاذ حسين .

ثم استدار حسين وعاد إلى مقعده وهمس في أذن صلاح : نفسى أتكلم معها .

صلاح : اصبر لا نستطيع أن نفرض عليها شيئاً هى لا ترغب فيه . ولا نعرف بماذا تفكر .

بدا الحفل وسامى ورجاله يجلسون سويًّا على مناضد مجاورة ، ولا يتوقف عن الحديث أو التخطيط لحظة ولاحظ اهتمام سامى بسارة فقد تقدم ناحيتها وعرض عليها العصير بنفسه وبدأ وحاول الحديث معها بدبلوماسية مبالغ فيها غير معهودة .

وفى نفس الوقت وقف مروان إلى جوار سامى وهمس في أذنه : أريد أحدثك على انفراد .

اصطحبه سامى إلى الداخل وجلس على كرسى الصالون بهدوء وبدأ مروان في الحديث معه في أذنه حتى تغير وجه سامى تماماً وقال له بصوت مسموع : ياه لم أكن أتخيل أنه بكل هذا الذكاء .

مروان واضح أن الأمر أكبر بكثير مما كنا نتخيل، والتخطيط والتدبير منذ زمن، ليس هذا فقط ولكن فترة غيابنا كانت فترة مناسبة دا لهم.

سامى بنظر عين خبيثة: ماشى الصبر حلو، هيا بنا نكمل الحفل ولنكمل حديثنا فيما بعد.

أستمر الحفل، وكان صلاح يسترق السمع، ويراقب المواقف بعينيه، وكأنه يرغب في فترة وقت مستقطع يستجمع فيه أنفاسه ليبصر أين الطريق وسط هذا الصخب الذى حوله.

لاحظ بطرف عينيه سارة وهى تضحك وتبتسم مع أصدقائها الألمان.

هل هذه هى سارة التى أعرفها، هل هذه هى الفتاة البريئة التى يتشبع وجهها بالحمرة مع أول كلمات جميلة، والتى لا تستطيع أن تجلس أو تخاطب الرجال، أم أن الغربه فعلاً تغير، لقد تغيرت كثيراً أصبحت أكثر قوة، وكأن ما مرت به وبسببى قد صهرها، لتزداد صلابة.

وبعد لحظات وجد صخب سارة الصغيرة وعمرو.

سارة الصغيرة: هيا يا أبى نطفئ الشمع.

وانطلقت إلى سارة: هيا يا طنط سارة نطفئ الشمع.

تجمع الجميع وبدت سارة مبتسمة برقة وهى ترقب عين صلاح بجوار ابنه وابنته وحسام حوله وشيرين بجانبه، وللحظة شعرت بالغصة في حلقها وبالألم قلبها وقالت في نفسها: هذه أسرتى التى سرقها منى سامى مدكور.

ووسط هذه الإضاءة الخافتة وصوت أصدقاء عمرو التقت عينا صلاح بعين سارة التى تبتعد خطوات قليلة عن الجموع وتنظر إليه لتلتقى عيناهما وكأن صلاح فهم الرسالة، وما يجول بخاطرها.

انسحبت سارة لتجلس على كرسيها، وقطع صلاح طبقاً من التورتة وتوجه به إليها، وهو في الطريق، لم يصل إليها بعد، وجد شاباً وسيماً وطويلاً يصحبه السائق الخاص بسارة ويتوجه ناحيتها، فتقف وتأخذه في أحضانها وتربت على ظهره.

وتجلسه بجوارها، أقبل صلاح ناحيتها فرفعت رأسها قليلاً إليه، ووجد سارة الصغيرة تنطلق خلفه بضحكتها.

صلاح: تفضلى لم أراك أكلتى شيئاً حتى الآن.

سارة الصغيرة: تعالى معى يا طنط نلتقط الصور. أوه من هذا ألن تعرفينى عليه؟

سارة: آدم ابنى.

سارة الصغيرة بشقاوة: واو ده كبير، أنا كنت أظنه طفلاً.

آدم بابتسامة شقية: مش كبير أوى.

سارة الصغيرة: نورت مصر.

آدم: منورة بيكى.

سارة الصغيرة: أنت تتكلم عربى كويس خالص،

آدم بشقاوة أكبر بعد أن ظهرت علامات الإعجاب بسارة الصغيرة على عينيه : أحسن منك .

سارة ضاحكة : سأعود إليك لنتحدث وأعرفك على أصدقائى .

آدم : أوكى .

مد صلاح يده وسلم عليه وشعر بشعور غريب يخترق قلبه حين ملامسة يديه ، وانصرف في هدوء ومعه سارة ، ورغماً عنه سمع كلمة سارة لآدم ،

سارة : ماذا فعلت؟

آدم : ليس هو .

ووجد سارة تلف ذراعها حول عنقه وتحتضنه وسمعها تهمس : ولا يهمك .

ودارت الأسئلة في عقل صلاح ، وكأنه باب آخر من أبواب الجحيم فتح على عقله .

*****

(١٨)
شروخ القلب

لم تمر الليلة إلا والشباب الثلاثة آدم وسارة الصغيرة وحسام تبادلوا أرقام الهواتف المحمولة والعناوين الإلكترونية والفيس، لتبدأ صفحة جديدة من العلاقات الشبابية المعروفة بالسرعة، والانطلاق.

ولم يتغير الأمر مع صلاح فهو دائماً شارد الذهن مهموم، وزاد شروده بعد خروج سامى من السجن وبدأت أفكاره وممارساته.

ويوم الجمعة وصلاح في بيته ينظر من النافذة ويمسك بيده فنجان الشاى وجد سارة ابنته تتعلق به من رقبته كما تعودت لتفاجئه بشقاوتها المعتادة.

سارة الصغيرة: صباح الخير يا حبيبى يا أحلى بابا.

صلاح: صباح النور.

سارة الصغيرة: هيا معى يا أبى أرجوك، نحن ذاهبون للنادى جميعاً.

صلاح: اذهبى أنت ليس لى رغبة، أريد أن أستريح في البيت أنت تعرفين الظروف.

سارة الصغيرة: ولأنى أعرف الظروف أرجوك تعالى معى، منذ فترة لم تحضر معنا ولم تخرج معنا أرجوك سنذهب جميعا.

دخل حسام وخلفه والدته: صباح الخير يا بابا.

صلاح : صباح النور يا حبيبى .

حسام : لا تزعجى بابا يا سارة إن لم يكن له رغبة في الخروج .

شيرين : هيا معنا يا صلاح ، تغير جواً

حسام : أنا تحدثت مع آدم ابن سارة المصرى وسوف يسبقنا إلى هناك ، اتضح أنه مشترك في النادى وسنتقابل هناك .

شيرين : واضح أنها مجهزة نفسها للإقامة في مصر فهى مشتركة بنادٍ ولها منزل ، هل والدته ستأتى ؟

حسام : لا أعرف .

سارة : هيا يا أبى .

سمع صلاح كلمات حسام ووجد أنها فرصة جيدة لكى يراها وبالفعل انطلق معهم إلى النادى .

لم يكمل صلاح لف المدرج سيراً وبجواره شيرين ، حتى شاهد سارة وهى تجرى بمنتهى الرشاقة ويسبقها آدم ، رفعت سارة يدها بالتحية وأكملت جريها ، على حين أشارت إليها شيرين ونادت عليها .

شيرين : سأنتظرك نشرب الشاى سويًّا .

أشارت إليها سارة برأسها بالموافقة .

صلاح : ألم أقل لك لا أريدك أن تتداخلى معها أكثر .

شيرين: كل هذا من أجل العمل لا أكثر ولا أقل، ولا أعرف لماذا حتى الآن لم يتخذوا قراراً لقد مر أكثر من أسبوعين على حضورهم، هل الأمر يحتاج كل هذا الوقت.

صلاح: نعم بل وأكثر، ولكننا كنا نتمنى أن ينتهي الأمر أسرع من ذلك.

جلس صلاح وحسام وآدم على نفس الطاولة يشربون الشاى ويتحدثون، على حين كانت سارة وشيرين تتجولان في معرض النادى.

آدم: حضرت العام الماضى ولكن النادى تغير بعض الشيء.

حسام: قليلاً تم إضافة مبنى وقلل من حجم الحديقة.

آدم: نعم.

صلاح: هل تحضر هنا كل عام، فمن الواضح أنك مرتبط بمصر.

آدم: لا كل عدة أعوام عندما يكون لماما أسباب.

صلاح: هل والدك في مصر.

آدم: لا أعرف، ربما نعم وربما لا.

حسام: كيف لا تعرف؟

آدم مبتسم ابتسامة حزينة: لم أراه من قبل، ولا أتذكر حتى وجهه، وكل ما أتمناه في كل مرة أحضر لمصرأن أراه.

حسام: غريبة هل هما منفصلان.

دبت كلمات آدم في قلب صلاح كالخناجر، ما هذا؟ كيف يكون ابنها لا يعرف والده ولم يره من قبل؟ولكن استجمع نفسه وحاول تحسس بعض الكلمات والمعلومات أكثر.

صلاح: هل أنهيت دراستك يا آدم.

آدم: لا أنا في الصف الثانى من الجامعة.

صلاح: ظننتك أنهيت دراستك، كم عمرك؟

آدم: تسعة عشر عاماً.

صلاح لم يعد يستطيع التفكير... يارب هل ما أفكر فيه صحيح؟ كيف يكون عمره تسعة عشر عاماً؟

وهنا دخلت سارة الصغيرة عليهم: هاى آدم.. صحيح نحن سنسافر جميعاً إلى الغردقة غداً؟ ما رأيك لتأتى معنا؟ سنقضى بعض الوقت ونتنزه هل ستاتى معنا؟

حسام: هيا يا آدم سأقيم حفلة هناك ستحضر معنا أليس كذلك؟

آدم: أوكى أستشير أمى ونذهب معاً. ولكن كم سنبقى هناك؟

حسام: يومين فقط.

وهنا أقبلت عليهم شيرين وخلفها سارة بخطوتين: المعرض جميل وأعجبت به مدام سارة.

أوسعوا الكراسى، وجلست سارة بجوار آدم وشيرين من الناحية الأخرى.

آدم: ماما، حسام وسارة سيسافرون إلى الغردقة ويرغبون أن أذهب معهم ما رأيك؟

تدخلت شيرين سريعاً: إن أبى شريك في إحدى القرى هناك والمكان رائع ما رأيك تعالى معنا، هل ذهبت إلى هناك من قبل؟

نظرت إليها سارة وقالت: نعم عملت هناك فترة.

شيرين بضحك: ياه إنها رائعة، لقد قضيت شهر العسل هناك، هل تذكر يا صلاح.

ضحكت سارة بصوت عالٍ: بالتأكيد يذكر.

وللحظات تذكرت سارة مشهدهم وهم يجلسان سويًّا على شاطئ البحر، وكم الألم الذى كانت تشعر به.

ونظر إليها صلاح وأدار وجهه بعيداً.

وبدأ القلق يقتله وكل همه أن يعرف من هو والد آدم، واستأذن وتركهم يلهون هنا وهناك، واستدار في النادى حتى حصل على بعض أوراق اشتراك لحفل رياضى وجاء مسرعاً إلى المجموعة.

شيرين: ها قد عدت هل أطلب الغداء الآن.

صلاح وهو ممسك الأوراق: لقد وجدت أوراق اشتراك الحفل الرياضى إذا أحب الشباب الاشتراك.

حسام: صحيح أعطينى إياها يا أبى.

سارة الصغيرة: لنشترك بها جميعاً، هل تشترك معنا يا آدم؟

آدم: لا أعرف هل الوقت سيساعدنا يا أمى؟

سارة: ليس هناك مانع، اشترك.

صلاح بدت عليه علامات الرضا وبدأ يتحدث: هيا فيخرج كلٌّ منكم كارنيه العضوية لأصوره له وأقدم لكم الأوراق.

سارة وحسام وآدم أخرجوا كرنيهاتهم، ولاحظت سارة مدى اهتمام صلاح بكرنيه آدم.

أخذهم صلاح وانطلق حتى ابتعد عن أنظارهم ثم قلب في كارنيه آدم ليفاجأ بالاسم: آدم محمد المصرى

وبدأت الدنيا تدور به، إنه على نفس اسم سارة، كيف هذا؟ كيف ليس له اسم أب، يا الله....

لم يتوقف عقل صلاح عن التفكير، ولم ينم ليلته، وفى اليوم التالى ذهب إلى الشركة ليجدها على نفس طريقتها من الجلوس مع مجموعة العمل والتنقل في جميع مكاتب وأقسام الشركة.

أنهى أعماله وهو في منتهى التوتر، حاول الدخول لمكتبها ولكنه فشل كالعادة، ولكنه كان عازماً على أن يتحدث معها مهما كان الأمر.

خرجت سارة بعد انتهاء العمل مستقلة السيارة يقودها سائقها متوجهة إلى بيتها، وانطلق صلاح خلفها، ما لبثت أن دخلت حجرتها حتى أخبرتها الخادمة بوجود ضيف يدعى صلاح راضى.

جلست سارة بملابسها العائدة بها من العمل على حافة السرير، أغمضت عينيها لثوانٍ في حيرة من أمرها.

- لماذا تصمم على المواجة يا صلاح؟
- لقد هربت من المواجة سنوات؟
- كنت أسير أعمالك، وأراك من خلف الحجب، و عازمة على أن أكمل خططتى، لماذا لا تنتظر قليلاً؟
- ماذا أفعل الآن؟

وبعد أكثرمن نصف ساعة ينتظر صلاح على نار هادئة في الصالون وجد الخادمة الأسيوية تقوده إلى السفرة ليمشى خلفها إلى مائدة طويلة ومجهز عليها الطعام، ولا أحد يجلس عليها.

سحبت له الكرسى وأجلسته على الجانب وظل ينتظر.

دخلت سارة بعباءة استقبال فاخرة جدًّا وشعرها مبلل قليلاً، وتمشى كأنها ملكة تدخل إلى صوان عرشها تمشى في خيلاء.

سارة: أهلاً أهلاً صلاح بك، أعتذر كان لابد أن آخذ حمامى.

وجلست على رأس السفرة، وبدأت الخادمة في تقديم الطعام.

سارة: ضعى لصلاح بك لحوماً وسلطة فهويحبها.

صلاح : شكراً .

سارة : تفضل ، بالتأكيد لم تتناول غداءك وهذا ميعاد غدائى ، أنا حياتى منظمة بالدقيقة ، وموعد غدائى في الخامسة ، ولابد أن أنام حتى السادسة والنصف ، ومنذ أن جئت مصر والطرق عندكم صعبة جداً ، لم أصل يوماً في ميعادى .

وبدأت في تناول طعامها ، وكأنه ليس موجوداً ثم أكملت حديثها : لماذا لم تبدأ في الأكل ؟ الطعام سيبرد .

صلاح : لقد جئت لكى أتحدث معك .

سارة : قلت لك عندما أتخذ قراراً ستكون أول من يعرفه .

صلاح : لا أتحدث عن العمل .

سارة بحزم وهى تنظر إليه : ولكن ليس بيننا إلا العمل .

صلاح بعصبية : سارة لا ينفع هذا ، أريد أن أتحدث عنى وعنك وعن الماضى ، لا يمكن أن تتركينى هكذا لا أعرف عنك شيئاً .

سارة دقت الجرس الخاص بالخادمة فأقبلت مسرعة إليها : خيراً يا مدام .

سارة ببرود شديد كأنها لم تسمع شيئاً من صلاح : ألم أقل لك أنى لا أريد توابل في الطعام لأنها تسبب لى المتاعب ، لقد صددتنى عن الأكل ، وأنا كنت جائعة جداً ، من فضلك أحضرى لى بعض الفاكهة في حجرتى ، أريد أن ارتاح قليلاً .

وأحضرى طبقاً لصلاح بك .

ونهضت من الكرسى، وسارت بخطوات نحو باب الحجرة.

صلاح نهض خلفها وأمسك بذراعها وبصوت عالٍ: سارة من هو والد آدم؟

توقفت سارة ورن السؤال في أذنيها واستدارت إليه وبمنتهى البرود: وما هو شأنك؟

صلاح: هل هو ابنى؟

ضحكت سارة ضحكة عالية: ياه هل هذا هو ما يقلقك؟ لماذا لم تسأل كيف عشت حياتك؟ أو كيف كونت هذه الثروة؟ أو لماذا لم تعودى لى؟ أو تجلس على ركبتيك وتقول لى سامحينى! ماذا؟هل تريد أن يكون آدم ابنك لكى تضمن ثروتى، أم تريد أن تطمئن ألا تعرف أسرتك عنى شيئاً، على العموم ليس لك شأن بمن يكون آدم.

صلاح بصوت عالٍ: أنت من خرجت من حياتى، أنت من قرر الهروب.

سارة بصوت بدأت الدموع تخرج معه: أى إنسانة لديها كرامة في هذه اللحظة كان لابد أن تخرج وتترك لك الاختيار، أى فتاه في نفس موقفى ستذهب عند أهلها حتى يعود إليها زوجها، ويقول لها أنا اشتريتك أنت، واخترتك أنت، ولكن الفارق أننى لم يكن لى حتى أهل أذهب إليهم فأنت كنت كل أهلى.

حينما أخبرتنى زوجة خالى والتى كنت أعتبرها أمى، بأنك اتخذت قرارك، ولكن تخجل من مواجهتى كان لابد أن أنسحب، ولكن لم يكن

عليك أن تتركنى أذهب للأبد، لو اخترتنى أنا كنت سأعرف، وكنت سأعود، ولكنك وفى غضون أسبوعين كنت متزوج من شيرين، وكأننى لم يكن لى وجود في حياتك، رغم أنك كنت أنت أسرتى وحياتى كلها.

صلاح بتوتر: أنت أكثر إنسانة تعرف الظروف... وتعرف أنى أجبرت على هذا، أنا بحثت عنك في كل مكان، أنا لم أتخَّل عنك.

سارة والدموع تملأ خديها، وبدأ يعلو صوتها: أياك أن تقول أجبرت، أنت اخترت بكامل إرادتك اخترت إمبراطورية سامى مدكور، اخترت الراحة المبكرة، فقد سئمت العمل في الصيدليات والتعب، وما المشكلة سأدوس على ابنة عمتى وزوجتى، لا يهم فهى طيبة ستتفهم الظروف، ولكن لم تكن تعرف أنه سياتى اليوم التى تكون إمبراطورية سامى بك هى التى تحت قدمى، بأموالى تلاعبت بأسهمكم بالبورصة، بعلاقاتى جعلت الشركات العالمية الأخرى تدير ظهرها لكم، كى تأتوا تحت قدمى صاغرين، حتى أدوس عليكم بقدمى هكذا.

ومدت قدمها وأخرجتها من تحت ثوبها الفاخر وضغطت على الأرض كأنها تدوس على شيء وصرخت به: هيا قبلها، قبل حذائى إن أردت النجاة أنت وإمبراطورية نسيبك.

صلاح بأسى: ياه لهذه الدرجة، أنت لست سارة التى أعرفها، أنت بالتأكيد جننت.

سارة وهى تبتلع دموعها وتحاول أن تخرج صوتها : آه . . ماذا؟ انه غالى جداً ليس مثل (الشباشب) التى كان يصنعها خالى، قبلهُ، وأوعدك أنى سأوقع على تقرير الاندماج غداً وأنقذ حماك فوراً .

صلاح : أنت لست طبيعية .

سارة بصراخ : لماذا جئت الآن؟ لماذا أتيت؟ لماذا تريد أن تتحدث معى؟ هل ارتحت الآن بعد أن فتحت كل الجروح؟ لم أكن أريد أن أتحدث في شىء، أكثر من عشر سنوات وأنا أراك في الشركة وأراقبك وأسمع اجتماعتك لحظة بلحظة ونفس بنفس، ولم أخبرك بأمرى مرة، لأنه لم يكن قد حان الوقت بعد، لماذا إذاً تريد أن تتحدث معى؟ هل قلقت أن يكون آدم ابنك؟ ولماذا لم تقلق وقتها؟ لماذا لم تسأل وقتها؟ لماذا ذهبت وحدها بعيداً؟ لماذا لم تذهب لعمها أو عمتها؟ ألم تسأل نفسك : ماذا ستفعل هذه الفتاه الوحيدة في الحياة؟ ولماذا هربت بعيداً؟ وعندما علمت أنى سافرت ألمانيا لماذا لم تحضر إلى وتبحث عنى؟ لماذا لم تسأل نفسك هل سيحالفها الحظ؟ هل ستنجح؟ ام ستعود مثل المئات الذين يعودون في تابوت، أو يكون مصيرهم السجن؟أو تبيع جسدها لكى تعيش؟ يااااااااه هل كنت رخيصة إلى هذه الدرجة؟ أم قلت أحسن إنها بعدت حتى لا تعكر صفو حياتى .

وازداد صراخها والدموع تنهال من عينيها : عن ماذا تسأل؟ لو لديك بعض الشجاعة اذهب إلى سامى بك وقل له إنى ابنة عمتك، زوجتك السابقة التى أجبرك على طلاقها، الفتاه اليتيمة التى داس عليها وألقى بها بالأمس، قل لسامى بك الذى يلهث خلفى كالكلب أننى أنا من ألقى بها

من قبل وستلقى به إلى السجن الآن، ولكنك لن تفعل هذا، اتعرف لماذا لأنك أنانى.

تسمر الاثنان مكانهما وظل صلاح يسمع حديثها، ويتقبل صب لهيب هذا البركان المكتوم سنين فوق رأسه دون أن ينطق.

واستدارت سارة لخارج الغرفة وهى تنادى على الخادمة: أوصلى البك للخارج وأغلقى الباب جيداً.

توقف صلاح عن التنفس وأغمض عينيه وصرخ بها، وكان الصوت يخرج مع روحه: إلا أولادى يا سارة... أرجوك ليس أولادى... لا تنتقمى من أولادى يا سارة ليس لهم ذنب.

استدارت سارة ونظرت إليه في صمت وهى على أول الغرفة وردت بصعوبة: لماذا تقول هذا الكلام؟

صلاح ينطق بصعوبة: أرجوك إلا أولادى لقد تحملت من أجلهم الكثير، وفرحت بابنتى وأسميتها على اسمك حتى تذكرنى بك في كل لحظة بحياتى، إلا أولادى أرجوك لا تأخذى حققك منهم.

سارة بعصبية: وما شأنى بهم؟

صلاح: ابعدى آدم عن سارة ابنتى.

سارة با بتسامة استهزاء: فلتبعدها أنت عنه.

صلاح بعصبية: البنت بدأت تعجب به ومن الممكن أن تحبه.

سارة بضحكة استهزاء: طبيعى أن تحبه...

صلاح والدموع تنبت في مقلتيه: أرجوك يا سارة كونى صادقة معى لا تتركينى هكذا أتعذب، تذكرى شيئاً حلواً بيننا تذكرى أنى ابن خالك، تذكرى حبى لك.. أعرف أنى أخطأت.. ضعفت.. الظروف كانت أقوى.. أنت تركتينى ولم تكونى شراع روحى، كما كنتى لترسينى على ميناء حياتى، أنت من تركنى للأمواج قبل أن تجبرنى الأمواج على الغرق، لماذا بعدت وتركتينى وحدى؟

توقف صلاح عن التنفس وأغمض عينيه ثم سحب قدميه إلى الباب.

وقبل الباب وعند الممر الموزع للغرف وقفت سارة مستندة بظهرها إلى الحائط ترقبه دون أن يراها وتختلط عليها المشاعر أهى مشفقة عليه أم أنها سعيدة لكل هذا الألم والحيرة التى يشعر بها وتهمس في نفسها: ذق قليلاً مما عشت به سنوات، وأصبر حتى تأتيك الحقيقة.

*****

(١٩)
نبتة الحب التى لا تموت

لم ينتصف النهار إلا وحسام وسارة وآدم وعمرو ومعهم شيرين وشقيقتها عبير وابنها أمجد يتناولون غداءهم في مطعم القرية السياحية بالغردقة. ولتبدأ جولاتهم حول البحر والمياه وبرنامج جهزه لهم حسام وخاصة أنه حضر لإقامة حفلة في القرية هو وفرقته الموسيقية.

ولتبدأ نبتة حب جميلة بين سارة وآدم فكثر الحديث والحكايات عن ألمانيا والدراسة، وتحكى سارة عن المدرسة والجامعة في مصر، وتحكى أيام الميدان في التحرير والمناقشات حول السياسة، والفن والحياة العملية والرياضة.

وفى ثانى ليلة وحفل حسام وهو يقف على المسرح ممسكاً بالجيتار وخلفه فرقته ومئات الشباب حوله يرقصون وسارة الصغيرة وآدم من أوائل المشجعين الأماميين.

إلى رحلة الجزيرة في الصباح، ورحلة الغواصة عصراً، إلى الجلوس في الكافتريا ومشاهدة الأفلام مساءً، نبتت مشاعر جميلة ورقيقة ونقية، ليجد آدم أنه يفكر فيها في كل لحظة، ولتجد سارة الصغيرة أنها حتى في غرفتها لا تتوقف عن الحديث معه تليفونيًّا.

وكعادة شيرين التى اكتسبتها من والدها، (أين المصلحة فلنبحث عنها) كانت ترى أن صداقة سارة بآدم وإن نمت عن ذلك فهى في مصلحتها فوالدته

ملياردیرة، فلا يهم أصله وعائلته، فنحن لا نعرف عنها شيئاً سوى أنه ابن سارة المصرى الملياردیرة، وهو الوريث الوحيد.

ولكن على القرب منهم كانت هناك عينان ترقبان عن كثب والنار اشتعلت بهم، فكان أمجد يرى أن سارة ابنة خالته هى ملكية خاصة له، وغير مسموح بالاقتراب منها من أحد حتى وإن كان يواجه صداً من ناحيتها دائماً فكان يتوقع أن ينتهى هذا الصد مع الزمن حينما لا تجد أحداً يستطيع الاقتراب منها إلا هو.

فكان أمجد كشخصية والده مروان الأنانية والطمع متجسد في إنسان.

وسارة تجلس على شاطئ البحر قبل الغروب بقليل وعمرو يلعب على القرب منها اقترب أمجد وجلس بجانبها.

أمجد: إيه لماذا تجلسين وحدك؟

سارة: أبداً ماما مع طنط في القرية وعمرو يلعب.

أمجد بلهجة وقحة: أين آدم؟ فقد كان مثل ظلك.

سارة بضيق: يعنى إيه مثل ظلك أنا أجلس معه ومعكم وأمامكم جميعاً.

أمجد: والله! والهمس والضحك والوقوف على الشاطئ والجلوس على انفراد فوق التلة ما هذا؟

سارة: أنا لا أسمح لك.

أمجد : إياك أن تظنى أنى لا آخذ بالى ، أنا فقط تركتك له يتسلى قليلاً لأن لنا مصلحة مع أمه ، ولكن في اللحظة التى ستفكيرين مجرد التفكير فيه عن جد سأهد الدنيا على رأسك .

سارة : إنت إيه يا أخى ! أنا عمرى ما وعدتك بشىء حتى تتصرف معى بهذه الوقاحة .

أمجد : أى وقاحة أنت بتاعتى إياك أن تنسى هذا ، والدك لن يستطيع أن يقف في وجه والدى وأنت ملكى أنا .

وقفت سارة وحاولت أن تنصرف ، فإذا بأمجد يمسك بيدها وذراعها بعنف : أين أنت ذاهبة؟أنا أكلمك .

سارة : إن لم تترك يدى سأنادى على طنط عبير وأقول لها كل مواقفك الغبية معى .

أمجد : لو نداهتى حتى للقرية كلها لو أريد شيئاً سافعله .

فإذا بآدم يقف بجوارها ، وينزل يده مع على ذراعها ، ويتحدث بصوت هادئ وواثق جداً : أعتقد أنه لا يصح أن تمسك بفتاه بهذه الطريقة .

أمجد بعصبية : أنت هتعلمنى أتعامل مع ابنة خالتى كيف؟ ابعد أنت .

ودفع آدم بعيداً عنه فوقع على ظهره ، فضحك أمجد وهو مازال ممسكاً بيد سارة ، فإذا بآدم يقوم وينفض الرمل عنه ويقذفه بضربه قوية في وجهه أصابت أسنانه ، فرد الضربة لآدم ليتشاجرا ، وفى لحظات نادى عمرو على حسام الذى اندفع ناحيتهم لفك الاشتباك وعلم الجميع بالأمر .

حاولت شيرين التهدئة ومصالحة آدم مما آثار غضب وحفيظة أمجد وحقده أكثر على آدم.

لم يغمض عين لسارة في هذه الليلة الصعبة التى مرت بها في مواجهتها مع صلاح، ولكنها قررت أنه لابد من إنهاء الموقف سريعاً وألا تطيل الأمر أكثر من ذلك، فقررت أنه في خلال أيام لابد أن يكون الأمر منتهياً وعائدة إلى ألمانيا.

أما صلاح فلم يكن أسعد حظاً وحمد الله أن شيرين والأولاد ليسوا بالمنزل حتى لا يلاحظوا ما هو به من أسى وضيق واكتئاب.

فلم يكن يتخيل أنها تريد تدميره إلى هذه الدرجة.

طلب صلاح من أشقائة البحث في كل شىء يستطيعونه حول عادل المر، للوقوف على أى مدى هو يحاربهم أم معهم أم على الحياد.

وبعد مرور يومين وسارة ما بين الشركة والمصانع مع فريقها، متجنبة بشتى الطرق اللقاء بصلاح أو الاجتماع به حتى ولو صدفة، وكانت في مصنع ٦ أكتوبر وظلت تعمل مع فريقها إلى ما بعد التاسعة مساءً حتى تنتهى من أمرها كما اتفقت مع الفريق.

ظل صلاح متابعاً لخطواتهم، فلم يكن ليتركهم يعبثوا بشقاء عمره ليضيع هدراً رغم ما هو به من إحباط إلا إنه كان لديه الأمل في الخروج من الخندق.

وبعد انتهاء العمل انصرف الفريق، واتصلت هى بسعيد السائق المخصص لها من قبل الشركة.

سارة: عم سعيد من فضلك جهز السيارة.

السائق: آسف مدام سارة لقد خرجت بها لقضاء أحد الأعمال وتعطلت، لقد وفرنا لك سيارة بديلة تفضلى إنها بمدخل المصنع.

هبطت سارة إلى الأرضى وخرجت تبحث عن هذه السيارة فوجدت صلاح بجوار السائق يتحدث معه.

صلاح: كيف تتصرف دون أن تبلغنى.

السائق: أنا آسف صلاح بك إن مراقب السائقين لم يبلغنى إلا منذ عشر دقائق فقط، ولا يوجد أى سيارات أخرى إلا سيارات نقل الأدوية.

سارة وهى تنظر إلى السائق: ما الأمر؟

السائق محمود: لا شىء مدام سارة، ولكن أبلغونى بعد إذن صلاح بك سأوصلك أنت وصلاح بك بسيارته فأنتم في نفس الطريق.

سارة بضيق: ألا يوجد سيارة أخرى.

محمود: أعتذر ولكن لا يوجد.

صلاح فتح باب السيارة الأمامى وأشار إليها بالجلوس في المقعد الخلفى: تفضلى.

ركبت سارة، وكان واضحاً عليها الضيق بشدة ولكن لم يكن أمامها غير هذا.

محمود السائق : أنتم تأخرتم جداً صلاح بك، الطرق غير آمنة الآن ونحن نمر حتى نخرج من المنطقة الصناعية إلى منطقة الفيلل بمنطقة مقطوعة، ربنا يستر .

صلاح : لا تخف ربنا معنا .

وضعت سارة حقيبتها بجوارها ووضعت وجهها في النافذة لتنظر إلى الطريق المظلم، ولا تريد أن تدخل في حوار من أى نوع معهم، وكل همها هو الوصول لمنزلها بأسرع وقت .

مر الوقت بطيئاً رغم السرعة التى يقود بها محمود، ولكن صمتهم كان مخيفاً حتى حاول السائق كسر ذلك الصمت بتشغيل الإذاعة لتكون صدفة غريبة بإحدى الأغنيات القديمة تشدو كلماتها :

عشان بحبك أنا،

حرمت عينى النوم،

واللى بنيته في سنة راح من إيديا في يوم،

فات اللى فات وانقضى،

معرفش فات إزاى،

مهما ماليت الفضا بشكوتى على الناى،

لا هيعرف اللى مضى، ولا حاجة ماللى جاى،

مكتوب ليا إيه يا ترى بعدك وحعمل إيه،

ليه تبكى على اللى جرى، وأنا اللى أبكى عليه لية تظلم اللى اشترى راحتك بدمع عنيه، وعشان بحبك أنا حرمت عينى النوم، واللى بنيته في سنة راح من إيديا في يوم، حفضل على دمعتى أصحى عليها وأنام، وأقول سبب لوعتى لا انت ولا الأيام.

ضحيت أنا بفرحتى، واتبدلت بآلام، وعشان بحبك أنا حرمت عينى النوم، واللى بنيته في سنة راح من إيديا في يوم، راح من إيديا في يوم.

لتجد سارة نفسها في عالم آخر تسبح روحها مع تلك الكلمات، وتسافر بها عبر السنوات، وتنبت في عينيها نقطة دموع، سندت رأسها على زجاج النافذة، فلمح صلاح عينيها في المرآة، ولكنها اعتدلت سريعاً، وابتعلت دمعتها وبصوت قوى للسائق: من فضلك أغلق الكاسيت.

و لم تمر عدة أمتار بعد الخروج من المنطقة الصناعية وعند منتصف طريق مظلم فوجئ السائق بدراجة بخارية، تلحق بهم، عليها فردان، تحيط بهم مرة من الأمام وأخرى يمينهم، وتارة شمالهم، فلم يعط الأمر أهمية في البداية، ولكن بعد عدة أمتار وعند منحنى وجد واحدة تعترض طريقه مما دعاه إلى تهدئة السرعة، والأخرى كانت بجانبه، وفى لحظات وجد رشاشاً آليًّا يدخل إليه من فتحة النافذة ويهدده بالوقوف.

صرخ صلاح به: لا تقف لا تقف.

وصرخت سارة: في إيه في إيه؟

لم يتوقف محمود السائق بل زاد في السرعة ليتفادهم، ولكن في لحظات أطلق الرصاص فتوقف بالسيارة وكادت تنقلب.

وبصوت جهورى مخيف : انزل .

ارتعدت سارة وصلاح وأخفضت رأسها في الكرسى ، ونزل السائق من السيارة ، ووقف بجانبها ، فأطلق الرجل الأول رصاصة على ساقة فسقط على الأرض وصرخت سارة ، ونزل الرجلان من الدراجة سريعاً وجرى ناحية الباب والآخر دخل إلى السيارة .

وبصوت مخيف : انزلوا .

نزلت سارة وهى ممسكة بحقيبتها ، وترتعد ، ونزل صلاح وهو رافع يده ، وعاد خطوة إلى الخلف بالقرب من سارة فوقفت هى خلفه .

الرجل بأمر قوى وهو موجه البندقية ناحيتهم : هاتى الشنطة دى والموبايل ، طلع ما معك وأنت اخلعى هذا الخاتم .

خلعت سارة ساعتها وخاتمها والقلادة ، وخلع صلاح الساعة وأخرج ما معه من نقود .

نظر الرجل إلى سارة نظرة غريبة ووجه عينيه إلى سيقانها و صدرها وبحركة عين جائعة : اركبى معنا هيا .

وجدت سارة نفسها وبدون إدراك تشبثت أصابع يدها في جاكيت صلاح وتختبئ خلفه : ماذا تريد؟

صلاح بقوة : ماذا تريد؟ أخذت ما معنا وها هى السيارة ليس لك شأن بها .

الرجل الثانى من داخل السيارة : هيا اركب اخلص بسرعة .

الرجل الواقف وموجه البندقية إليهم : قلت لك اركبى ستأتى معنا .

الرجل الأول بصوت جهورى : اتركها يا بـن . . . خلينـا نخلـص طـول عمرك طفس .

صلاح أمسك بها خلفه ورفع يديه في مواجهته : مش هتقرب لها .

الرجـل الأول أطلـق دفعـة رصـاص في الهـواء ، وهـو يصـرخ ويمسـك بذراعها : اركبى يا بنت . .

صرخت سارة ، وإذا بصـلاح يهجـم عليـه ويخطـف البندقيـة مـن يديـه فيقاومه ويطلق دفعة رصاص اخترقت إحداها صدر صلاح والأخرى كتـف سارة ، ولكن تشبث صلاح أكثر بالسلاح حتى أطلق دفعة في اتجـاه السـارق فوقع الاثنان على الأرض .

نزلت سارة على ركبتيها وهى تضع كفها على كتفها المصاب وتنزف دماً وأمسكت بيدها الملطخة بالدماء يد صلاح .

سارة وهى تصرخ : صلاح صلاح .

فتح عينيه وهو ينظر إليها والتقت عيناه بعينيها وضغط بكـف يـده علـى يدها .

هزت سارة صدر صلاح بقوة وهى تصرخ : أفق يا صلاح ، فوق أوعـى تموت يا صلاح حتى غارت عينا صلاح وفقد الوعى ، ووضعت هى رأسـها تبكى على صدره ، وهى تنادى بصوت متقطع حتى انطفئ صوتها : صـلاح أوعى تموت يا صلاح أوعى تموت . . حتى فقدت الوعى هى الأخرى .

*****

(٢٠)
بداية جديدة

فتحت عينيها . . تنفست بصعوبة . . الاضاءة ضعيفة . . ألم يخترق صدرها . . هناك أربطة قوية حول كتفها . . وشخص نائم على الكرسى بجوار السرير . . وفى لحظة بدأت الصور تتلاحق السيارة . السارق . . الرشاش . . انطفضت صارخة صرخة مدوية . . صلاح .

انتفض آدم من كرسيه : ماما ماما هل أفقت؟ لا تتحركى يا أمى .

فتحت عينيها وحملقت بقوة ووجها في وجه آدم ، وابتلعت ريقها الجاف جداً : صلاح . . صلاح . . أين صلاح؟

آدم : بخير حبيبتى . . بخير . . ولكنه في العناية المركزة .

سارة بصوت متقطع من جفاف حلقها وشفتيها الصفراء : هو بخير؟

آدم : نعم يا أمى ولكن حالته لم تستقر بعد .

سارة : أريد أن أشرب؟

ارتوت سارة ببعض رشفات الماء ، وانطلق آدم إلى الطبيب يناديه ليعتنى بها .

وبعد دقائق دق الباب ودخلت شيرين : مساء الخير . . حمداً لله على سلامتك .

سارة بصعوبة : الله يسلمك .

آدم : تفضلى يا طنط .

شيرين : كيف حالك الآن؟

سارة بصوت متقطع : الحمد لله . . كيف حال صلاح بك؟

شيرين غلبتها دموعها : مازال في غيبوبة .

آدم : سيكون بخير إن شاء الله .

شيرين : يارب .

وبدأ آدم يسرد لها كيف عثرت عليهم الدورية الشرطية الراكبة ، وأن السارق انطلق بالسيارة وترك زميله أيضاً ، وهو تحت الحراسة الآن ، وحكى لها كيف أبلغوهم في الغردقة بأمر الحادث فانطلقوا جميعاً عائدين إليهم .

سارة : منذ متى وأنا في غيبوبة؟

آدم : لقد مر عليكم يومان .

سارة : والسائق؟

آدم : إنه في غرفة مجاورة وقد تم استجوابه ، صحيح أحد الضباط طلب أن نبلغه فور إفاقتك يريد أن يتحدث معك .

سارة : فيما بعد ليس باستطاعتى الحديث مع أحد ، هيا اذهب للبيت وجهك متعب جداً ، اذهب واسترح ثم عد إليّ في الصباح .

آدم : لا سأنام بجوارك على الأريكة لا داعى لأن أذهب .

سارة : اسمع الكلام . . واذهب . . هيا أنا بخير ، ولو احتجت لأحد فالممرضة بجوارى .

آدم بعد إلحاح منها سلم عليها وقبل رأسها وانصرف على وعد بالعودة في الصباح الباكر .

لم يخطو آدم خارج باب المستشفى حتى رنت سارة الجرس للممرضة وطلبت منها معاونتها في الوصول إلى العناية المركزة .

وبالفعل اصطحبتها إلى غرفة صلاح وأيقنت سارة من عدم وجود أحد معه من أسرته ودخلت إلى غرفته مستندة على ذراع الممرضة .

سارة : من فضلك انتظرينا بالخارج دقائق وسأكون عندك .

الممرضة : سريعاً فأنت لا يجب عليك الحركة كثيراً وهو أيضاً مازال في حالة حرجة .

سارة هزت رأسها بالإيجاب .

اقتربت سارة من سريره وسحبت الكرسى بهدوء وجلست في صمت وهى تنظر إليه وهو نائم والخراطيم موصلة بكل جسده ، لتمر في مخيلتها كل الأحداث في لحظة ، وهو يمسك بيدها ويخفيها خلفه ويصيح بالمجرم : ليس لك شأن بها ويتلقى الضربه عنها ، ويدافع عنها حتى يصاب لتنساب دمعة ، رقيقة من عينيها ، وهى تنظر إلى هذا الوجه الذى طالما عشقته عمرها كله ولم تنساه يوماً ولم تتوقف عن التفكير به في كل ليلة .

لتجد يدها تمتد إلى كف يده وتحتضنه بهدوء وتنحنى عليه وتضع قبلة رقيقة على كفه وظلت منحنية لدقائق مستندة برأسها على السرير، وكفه في كفها ملامس وجهها وأغمضت عينيها وبدون إرادة لتستشعر دفء كف يده من سنوات تبعث الحياة لوجهها، وتلامس أنفاسها كفه وكأنها سحر الشفاء.

دقائق وكأنها ليالى وهى على هذا الوضع، وكأن كف يده الملامس لوجهها يشفى سنوات الفراق، ويمحو كل الآلالم، ويداوى جروح الماضى، وكأن دموعها الملامسة لكفه تسقى روحه سر الشفاء لتجد أناملة تتحرك وتلامس وجهها، وتسمع صوتاً خافتاً يخرج من بين شفاهه: أنت بخير؟

رفعت سارة رأسها سريعاً: هل أفقت؟

صلاح هز رأسه بضعف وصعوبة: أنت بخير؟

سارة: الحمد لله.

صلاح: لماذا تبكين؟

سارة: لا شيء أنا بخير، لا تتحدث كثير سأنادى على الطبيب ليطمئن عليك.

وسرعان ما دخلت الممرضة والطبيب لتنسحب سارة بهدوء وتخرج وهى عيناها في عينيى صلاح حتى أغلق الباب بينهما.

وفى صباح اليوم التالى وجدت سارة من يطرق بابها ويدخل حاملاً طاقة زهور رقيقة .

سارة : من بالخارج؟ تفضل .

حسين أقبل إليها بابتسامة جميلة : ممكن أدخل .

سارة : يا حبيبى .

أقبل حسين إليها سريعاً ووضع الزهور واحتضنها وقبّل رأسها ، فكم كان يتمنى هذا الحضن منذ أن رآها أول مرة

حسين : سلامتك يا أبلة سارة ، أم أقول سارة هانم .

سارة بضحك : بل سارة وسوسو كما كنت تنادينى قديماً .

حسين : كم كنت أتمنى أن أقبل إليك وأحتضنك وأتحدث معك منذ رأيتك أول مرة ولكن منعنى صلاح .

سارة : أعلم .

وأخذهم الحديث والابتسامة وهو جالس أمامها على حرف السرير ممسكاً بكفيها ، ويتحدث بود كبير معها ، ولم تلحظ سارة عين المتلصص الذى كان خلف حسين في طريقه لغرفتها للسلام عليها ليرى مشهد احتضان سارة لحسين بهذا الود والحديث معه ، فانسحب للخارج بهدوء دون أن يشعر به أحد ووقف بجانب الحجرة مسنداً ظهره إلى الحائط ، وعيناه تقول الكثير .

لم يمر اليوم إلا وعادل المر المحامى عندها في المستشفى، بعد مقابلته للسائق وحضوره التحقيق مع المجرم المصاب وبطرقه المعروفة ورجاله في كل مكان لم تكن عينا عادل ولا عقله المزعج يتوقف عن التفكير، وفى حجرتها في المستشفى كان لقاؤه معها.

عادل: ألف سلام يا سارة هانم.

سارة: شكراً.

عادل: باختصار شديد أنا قابلت المجرم، وحضرت التحقيق معه، وأنا أشك في أن الأمر لم يكن مجرد سرقة بالإكراه.

سارة: ماذا تظن؟

عادل: لا أعرف بالتفصيل ولكن سأتيك بالرد سريعا.

سارة: أتمنى.

لم يضيع عادل المر وقتاً حتى بدأ يعبث بأصابعه وعيونه في الأمر وخيوطه العنكبوتية حتى توصل قبل رجال المباحث إلى الأماكن التى تخبئ بها السيارات المسروقة ورجالها، ومن يوزعونها ويتصرفون بها، وقبل أن ينتهى من أوامر لرجاله كان هناك في شقته في أحد أطراف القاهرة الصحراوية المعزولة رجل ملثم ومكتف بين رجلين من رجاله يصعدون به إليه.

وفى حجرته جلس عاد المر على كرسيه وألقى الرجال بالرجل الملثم على الأرض أمامه .

الرجل الأول : تفضل يا عادل بيك .

الرجل الثانى : المعلم الكبير بيترجاك لا تأتى باسمه ، وهو تحت أمرك في أى شىء وسلمنا الرجل ، وقال إنه أخطأ وبيطلب عفوك ، ولن يفعل شيئاً آخر إلا بعد إذنك .

عادل بمنتهى الكبرياء رفع رأسه بشموخ : بلغ المعلم تحياتى وقله لينا كلام مع بعض فيما بعد ، فك الرباط عن فمه .

الرجل الأول : اعتدل أمام البك يالا .

عادل : بهدوء عليه ، باين عليه ولد جدع ومش هيتعبنا .

المجرم الجالس على الأرض : أبوس إيدك يا بيك أنا غلبان ، أنا تحت أمرك ، عاوز أسلم نفسى حاضر ، بس أنا عندى عيال يا بك ، أنا لم أكن أعرف أنها تبعك يا بك .

عادل : أحكى بقى يا جميل من الأول ، مين دلك على عربية سارة هانم .

المجرم : يا باشا مفيش ده رزق كنا طلعين ندور على رزقنا .

أشار عادل بعينه للرجلين ولم ينته حتى أوسعوه ضرباً ، حتى أشار عادل إليهم : أنا قلت عليك راجل طيب وبعدين المعلم قالى كلام آخر .

المجرم : هيموتونى يا باشا .

عادل: وأنا كمان هموتك لو لم تنطق، لكن لو ساعدتنى هسأعدك وهاراضيك بفلوس كمان.

المجرم: خلاص ياباشا هقول هقول، ياباشا كان فيه بك كبير طلب إننا نعترض طريق السيارة، نعمل شغلنا عادى كأنها سرقة عادى ونخلص على البك اللى في السيارة.

لكن الواد (سوكة) ابن... هو اللى بوظ الدنيا وطمع في الهانم.. طول عمره دنى من ناحية الستات يا باشا، وكان ضارب برشام كتير عشان قلبه يجمد، خاب خالص ومركزش أننا نخلص شغلنا، كان عاوز يخطف الهانم يا باشا، أمّا البيك اللى معاها طلع راجل ودافع عنها وجاب الواد أرض.

أغلق عادل مسجل الصوت الذى كان قد فتحه في الموبايل وضحك وأكمل حديثه.

ما اسم هذا البيك؟

الرجل: مش متأكد يا باشا.

أشار عادل إلى الرجلين فأكملوا ضربه.

المجرم: خلاص يا باشا خلاص اسمه مروان يابك، أنا غلبان يا باشا... إحنا معلمنا من رجال مروان بك.... نسد معاه في طلب أرض... نخوف حد علشان يسبها، شقة طمعان يجبها أرخص ثمن... الانتخابات، بك كبير ويريد أن ينتقم منه... إحنا بتوع الشغل المستخبى اللى يمشى الشغل الكبير، بس أنا أول مرة يبقى لى في الدم إحنا ملناش في الدم ياباشا دى أول مرة.

ضحك عادل وأكمل حديثه: رجعوه لمعلمه، وقل له لا يتحرك هذا الرجل من مكانه حتى أبلغه بنفسى.

انطلق مروان إلى سامى مدكور في الفيلا ليجده في غرفة مكتبه كجلسته المعتادة على المقعد الوثير ويشعل النور الخافت.

مروان: مساء الخير يا سامى بك.

سامى بصوته الجهورى: أين أنت؟ منذ طلوعك من السجن وأنا لا أراك إلا إذا طلبتك.

مروان: عندى أخبار ساخنة.

سامى بضحكة مجلجة: خير من زمن لم أرى حماستك هذه.

مروان بنظرته الخبيثة: حسين كان عند سارة في المستشفى.

ضحك سامى بصوت عال: دا أنت أخبارك قديمة قوى يا مروان، واضح إنك كبرت يا واد وعجزت، وعقليتك الذرية هدتها الثورة.

مروان بتعجب: هل كنت تعلم؟

سامى: أعلم حاجات كتير أنت لا تعلم عنها شيئاً!

مروان: طب قولى ماذا سنفعل في الولد الذى أفسد الخطة.

سامى : كلب مش هنتعب نفسنا معاه، وما يعـرفش حاجـة معلمـه هـو اللى مشغله، إيه مش دى الثورة بتاعتهم، انفلات أمنى وسـرقة سـيارات، هنعمل إيه؟

مروان : طب قولى ماذا سنفعل؟

سامى : قريباً جداً، بس الدنيا تهدأ قليلاً وستعرف، آه على فكرة رتـب لاجتماع عائلى بدون أن تخبر أحداً من البنات حتـى عـبير مراتـك، آه ربنـا يفك سجنك يا رفعت كنت محتاجلك الأيام دى.

مروان باندهاش ملحوظ: حاضر ياسامى بك.

*****

(٢١)
الشيطان لا يتوب

بدأ صلاح صفحة جديدة مع الحياة ليستيقظ ليجد سارة تلقى برأسها في حضنه مرة أخرى وتسقى دموعها راحة يده لتدب الحياه إلى روحه مرة أخرى، وكأنها قطرات الندى تسقى الحب الميت لتخرج به الحياه الجديدة بإذن الله.

ورغم خروجها من غرفة العناية المركزة وتبعتها عيونه ولكن كانت بداية أخرى له.

مرت عدت أيام حتى استقرت حالة صلاح، وتحسنت حالة سارة وخرجت من المستشفى، وخرج صلاح أيضاً ليكمل علاجة في البيت.

وعادت سارة لبيتها لتجد عادل المر يذهب إليها في أول يوم بعد ساعات من عودتها ويطلب رؤيتها، وفى الصالون جلسا وجهاً لوجه وسارة معلقة ذراعها حول عنقها وبدأ الحديث.

عادل المر: سارة هانم عندى أخبار ليست جيدة.

سارة بتنهد: خيراً.

عادل المر: إن حادث السيارة لم يكن صدفة.

سارة: كنت أشك في ذلك.

عادل المر: إن سامى مدكور هو من طلب منهم ذلك.

سارة بانزعاج : لماذا؟

عادل : لقد عرف بأمر قرابتك من صلاح بك .

سارة : وما المقصود من الخطة؟

عادل : كان المفروض أنهم يقتلون صلاح ، وتظهر على أنها سرقة بالإكراه فقاومهم فقتلوه .

سارة : ياه لهذه الدرجة ، يقتل زوج ابنته ، ولماذا؟

عادل : إن سامى يحتاج إلى كبش فداء ، وكان يجهز صلاح بأن يكون هو هذا الكبش ، ويحملون اسمه كل المخالفات ويتخلصون منه .

سارة : وما العمل إن صلاح في خطر .

عادل : وأنت أيضاً في خطر .

سارة : ماذا أفعل برأيك؟

عادل : نعجل بأمر الموافقة على الشراكة وتضعى أمر إنقاذهم مقابل حياة صلاح ، أما أمر القضايا ، وكيف سأجعل سامى يدفع ثمنها غالياً ، فأقسم بشرفى أنى سأدخله السجن بيدى .

سارة : موافقة .

لم تلبث سارة أن تنتهى من حديثها معه لتجد مكالمة من رئيس مجلس إدارة الشركة الأم في ألمانيا ليخبرها بأمر رفض الشراكة مع شركات مدكور

وأن الحادث كان له مردود قوى على أعضاء المجلس والمساهمين، واعتبروا أن البلد تفتقر إلى الأمن، ولابد من البعد عن هذا البلد حتى تستقر الأمور السياسية.

لم تصدق سارة نفسها، ماذا تفعل وكيف تساوم على صلاح وكيف تنقذه؟

مر يوم ليجد صلاح حركة غير طبيعية حوله، وعلم بأمر اجتماع عائلى في منزله وحضور سامى مدكور ومروان وباقى أفراد الأسرة أحمد وخالد واتصل أيضاً بحسن وحسين وطلب حضورهما.

ارتبكت شيرين لهذه الزيارة المفاجئة، ولكنها استقبلتهم بالترحاب.

شيرين: أهلاً يا أبى.

سامى: أهلاً حبيبتى، خرجتى الأولاد من البيت كما قلت لك.

شيرين بارتباك: نعم ولكن ما الأمر، لقد ازداد قلقى من طلبك هذا.

سامى بصوت جهورى: اسمعى ما أقوله ونفذيه.

شيرين: حاضر حاضر.

هبط صلاح درجات السلم بصعوبة وجلس على الكرسى وبجواره شقيقاه، واستدار الجميع في الجلسة كأنهم قضاة ويحاكمون متهماً.

سامى بصوت جهورى ووجه غاضب: أخبارك إيه؟

صلاح : الحمد لله .

سامى : وأخبار سارة هانم إيه؟

صلاح باقتضاب : لا أعرف عنها شيئاً منذ الحادث .

سامى : في حد يسيب بنت عمته كده بردو بدون ما يسأل عنها !

اندهشت شيرين من كلمة والدها وانزعج صلاح ولكن بدأ متماسكاً ولم يهتم .

شيرين : من هى ابنة عمته؟

سامى : إيه؟ هو البيه لم يقل لك؟

شيرين موجهة حديثها لصلاح : هى سارة تبقى بنت عمتك؟

مروان : وطليقته .

شيرين خرت جالسة على المقعد المجاور ولم تستطع الرد .

سامى : لم أكن أتخيل بأنك بهذا الدهاء ، تبيعنى ليها ، سنين وأنت بتروح ليها ألمانيا وأنا لا أعرف شيئاً عن علاقتكم .

أحمد : ويمكن يكون اتجوزها هناك بدون علمنا .

خالد : هذا الكلام ليس له داعٍ ، إحنا عاوزين المهم ، هى وافقت على الدمج أم لا .

سامى : اسكت أنت .

سامى متابعاً حديثه : لعبتها صح يا صلاح بس خانك أنى هعرف علاقتكم .

مروان : وهى علاقتهم فقط لقد كبرها عليك يا سامى بك ، كان يريد أن يجعل رأسها برأسك ، الجمعية والمشغل والخدمات التى تقدمها في البلد وبكره تأخد مكانك في المجلس يا سامى بك .

صلاح مستهتراً : ما تقول إن أنا اللى قمت بالثورة أيضاً!

حسن وحسين في نفس اللحظة : أ خى لم يكن يعلم عنها شيئاً ، أخى لم يعرف مكانها منذ سنين .

سامى : اسكتوا أنتم حسابكم بعدين ، لو كان كما تقول لماذا لم تخبرنى عند عودتك من ألمانيا أنها قريبتك ، ولماذا لم تقل أى شىء عنها لى؟ هذا ليس له مبرر سوى أنك تدبر أمراً ما؟

صلاح بعصبية : لقد كنت في السجن كيف كنت سأخبرك؟

سامى : والمحامى بتاعها أليس هو من أخرجك من القضية؟

فوجئ الجميع بجرس الباب يدق ليفتح الخادم وفوجئ الجميع بسارة تدخل معلقة ذراعها على صدرها وبجوارها عادل المر .

وتقدمت إلى الصالون المجتمعين به بخطوات ثابتة وقوية رافعة رأسها وألقت التحية .

سامى بضحكة صفراء : أهلاً أهلاً إيه هو صلاح بك اتصل بكِ .

شيرين وهى تنظر إليها في تعجب : لا يا أبى بل أنا الغبية التى اتصلت بها ، وظننت أنى أدعوها للاجتماع معكم لمصلحة العمل .

صلاح : ما الذى أتى بك الآن؟

عادل المر وهو يجلس على أقرب كرسى وبجواره سارة : عاوزين ندخل في الكلام المفيد على طول إحنا عاوزين المصلحة يا سامى بك .

وأخرج من جيبه الموبايل وأدار التسجيل الصوتى لاعتراف المجرم بمحاولة قتل صلاح .

مروان بارتباك : أنت كذاب وما عندك دليل .

عادل بتحدى : يا باشا الولد عندى وتحت إيدي .

اما هذه الأوراق فخاصة بالبضاعة التى اشتريتها من سنغافورة ودخلت على أنها مواد خام ومعى التحاليل والإثباتات التى تؤكد أنها مخدرات ، أما الرجل الذى حملته قضية وزارة الصحة اعترف وجاهز للشهادة .

سامى بانفعال : ماذا تريد؟ وعن ماذا تبحث خلفى؟

عادل بتحدى أكبر : البلاغات التى أنت مجهزها لتحملها لصلاح والتى كنت تريد قتله لتتخلص منه ، ويكون كبش الفدا الخاص بك ، والتى سيقدمها محاميك غداً صباحاً تسحب فوراً .

خالد : لهذه الدرجة خائفة عليه وكل هذا لكى تحميه .

عادل : ليس لك دخل بهذا ، عندما يتحدث الكبار يصمت الجميع .

سامى : والمقابل؟

عادل: هذا جميل، نحن غيرنا الخطة.

فلم يعد لك حاجة بالشراكة مع الشركة الألمانية، نحن سنشترى مصنع ٦أكتوبر، ومشروعات التجمع، وفلوسنا حاضرة، وأنت بأموالها تستطيع أن تضبط أحوالك وتغير النشاط والاسم التجارى وتنظف قذارتك براحتك.

شيرين انفجرت باكية: ياه، بهذه البساطة، رتبتى وجهزتى، وتريدين أخذ مصنعى وزوجى وكل شىء.

سارة وهى تنظر إليها بإشفاق: أنت لا تفهمين شيئاً وليس لديّ القدرة للشرح لك، ربما يشرح لك صلاح لاحقاً أما الأن أريد أن أعرف ردك يا سامى بك.

سامى: وإن رفضت.

عادل المر: بلاغاتك أمام بلاغاتى، وشهودك أمام شهودى، أنا القانون لعبتى يا حبيبى، أنا اسمى المر هل تعرف لماذا أطلقوا عليّ هذا الاسم؟

لأنى العدالة المريرة، العدالة التى تأخذ بالدم والروح، لأنى آخذ حق موكلينى ورجالى من دم أعدائى.

وأقسم لك لن يكون لك قائمة مرة أخرى يا سامى بك، وسينتهى أمرك.. وما أكثرك يا فضائح.

سامى وضح عليه الارتباك والحسرة وقبض بيديه على مقبض الكرسى.

وشيرين وضعت رأسها بين يديها وانحنت إلى الأمام وهى تبكى : كنت تريد قتل زوجى يا أبى؟

انتهت الجلسة على أن يعاودوا اللقاء في الغد لتوقيع العقود .

ومر ليل طويل على شيرين وصلاح ، لم يصدق صلاح ما كان يحاك من قبل حماه ، ولم تصدق شيرين كل هذه الأحداث ، وليجلس صلاح مع شيرين في غرفتها ويشرح لها كل شيء .

فى يوم الاجتماع الموعود ، وعلى طاولة الاجتماعات ومع وجود صلاح وعادل المر و مروان برفقة سارة وسامى مدكور و مروان من جه أخرى حتى انتهوا من كل شيء ، وإذا بمحامى سامى يقول :

خلاص ألف مبروك يا جماعة لم يتبقى سوى زيارة السجل المدنى وكل شيء تمام .

عادل المر : ألف مبروك يا جماعة وإن شاء الله خير .

نظرت سارة نظرة عابرة إلى كل من حولها على الطاولة ، وكأنها تريد أن ترى ردة فعل كل وجه على حدة ، ثم استأذنتهم .

سارة : من فضلكم أريد أن أتحدث مع سامى بك على انفراد .

نظر إليها عادل وصلاح باستغراب ، ولكن الكل انصاع إلى رغبتها وخرجوا جميعاً ، فوقفت هى من على كرسيها وسامى جالس على رأس

المائدة ونظرت إليه بنظرة تستجمع وتلخص كل كره السنوات الماضية واحتقار جيل بأكمله له.

سارة: مبروك، ربما خرجت منها بسلام، وستحصل على مبالغ طائلة تنظف بها الكثير من مخلفاتك، وتستطيع أن تنظم الفوضى التى خلفك، ولكن لن تستطيع أن تمحو اسمك من التاريخ الملوث بدماء المصرين.

لن تستطيع أن تنظف اسمك وتاريخك، ربما نجوت منها بقوة نفوذك وسحر محاميك الأسود، ولكن لن تستطيع أن تنجو من حكم الناس والشعب الذى شربت دمعه، وأكلت لحمه، وطحنت عظامه سنوات، الشعب الذى أطعمته السرطان في لقمة عيشه وألبسته السرطان في نسيج يستره، وطحنت أحلامه مع كل لقمة أخذتها رغماً عنه ظلماً وطمعاً لك ولرجالك.

يكفينى نظرة احتقار ابنتك وأحفادك لك الذين عرفوا أخيراً من أنت، وإنه لم يكن يفرق معك دم أبيهم واسمهم أن يكون ثمناً لتنظيف وحماية اسمك.

نظر سامى إليها والنار تنطلق من عينيه وهم أن يقوم: ليس هناك ما يجبرنى أن أسمع هذا الهراء.

سارة تمسك برصغه وتنظر إلى عينيه: انتظر سامى بك لا تتعجل ولا تهرب من عينى، انظر إلي جيداً، يكفينى أنى أرى ذلك ومهانتك أمام عينيى الآن، أمام الفتاة اليتيمة التى دست عليها في الماضى وأخذت رجلها

لتشترى رجلاً لابنتك، يكفينى أن أعطانى الله اليوم الذى أراك فيه تحت قدمى.

سامى بضحكة استهزاء: هل هذا ما يهمك، فليكن أنت الآن أقوى، ولكن أنا سأبقى وسأتحكم طوال عمرى في هذه البلد، ولن يهزمنى أحد، والأمر ما هو إلا سحابة سوداء وستمر وسأعود كما كنت.

سارة: ربما أموالك ومحاميك والظروف ساعدتك للنجاة الآن، ولكنك لن تنجو من محكمة الناس، ولن تكون أبداً كما كنت، ستكون في صفحات التاريخ السوداء، ولكن اسمى أنا اسم سارة المصرى هو من سيبقى في النور.

اسم المصرى سيظل يحمل الخير دون منّ، وفرص العمل بإخلاص وأمان، والتعليم والتدريب دون أذى، سيقدم لهم الحضارة مع العلم، العلاج مع الآدمية، والإنسانية مع الحب، وليس مجرد لقمة خبز مع الذل والجهل، أنا من سأبقى يا سامى بك. . . .

*****

(٢٢)
الحرية

لم يكن أمام سارة بعد رفض شركتها للمشاركة مع مدكور إلا أن تقرر المغامرة بكل ما تملك من أموال، بل وتبيع بعض أملاكها لتشترى حرية صلاح، فلم يكن أمامها إلا اتمام الصفقة.

ففى لحظة أنقذ حياتها في الصحراء واقترابها من لحظات الموت لم تجد للحياه معنى إلا أن تقف بجانب صلاح.

كان قرارها صعب ولكنها لم تجد إلا أن تنظف صلاح من قذارة سامى وتنقذ حياته من يديه.

أتمت سارة الصفقة في لحظات، وكتبت العقود باسمها، وجاء موعد اللقاء بصلاح.

وفى مكتبها بمصنع أكتوبر دخل صلاح مكتبها ووقف أمامها والتفت لتخرج من خلف المكتب لتواجهه.

صلاح: لقد أبلغتنى السكرتيرة أنك تطلبى رؤيتى.

سارة وهى تعتدل على الكرسى: نعم أريد أن أتحدث معك اجلس.

جلس صلاح أمامها: خيراً.

قدمت هى بعض الأوراق في ملف : انظر يا صلاح هذه هى العقود الخاصة بالمصنع ، هذا قرار منى بتوليك المصنع والمشروعات التى اشتريناها ومع الاحتفاظ بنسبتك التى كنت تأخذها من سامى .

أما مشروعات الكفر فستكون تحت إشرافك أنت مع عادل المر .

صلاح بصوت خافت : لماذا فعلت كل هذا؟

سارة وقد تغير صوتها ونظرت عيناها : كنت أريد أن أنقذ ابن خالى من مستنقع سامى مدكور ، كنت أريد أن أرد الجميل لخالى الذى ربانى ، كنت أريد أن أحمى رجلى الذى أحبه طوال عمرى ، ولم أحب غيره .

صلاح والدموع تلمع في عينيه : لماذا تركتينى ، لم يكن ليحدث أى شىء لو كنت بجانبي لم أكن لأتركك ، كنت سأقوى بك .

سارة : وربما كنت تضعف أكثر ، وربما كان الجرح أكبر ، في الأول والآخر نصيب .

صلاح : هناك كلمة كنت أريد أن أقولها لك منذ زمن وجاء وقتها .

سارة : ما هى؟

صلاح : سامحينى .

سارة وهى تبتسم والدموع تلمع في عينيها : لقد سامحتك من زمان يا صلاح .

صلاح وهو يخرج الكلمات من فمه بصعوبة : أريد أن أسألك عن آدم؟

سارة وهى ضاحكة وتنظر في عينيه : كم تمنيت أن يكون آدم ابنك .

صلاح أدار رأسه للناحية الأخرى وتغير وجهه: هل عرفت رجلاً آخر؟

سارة وهى تضحك: آدم ليس ابنى ولا ابنك، آدم طفل مصرى توفيت والدته ولم أستطع العثور على عائلته ولكنه أصبح ابنى وأكثر.

ربما لو لم يكن آدم في حياتى لما استطعت الاستمرار في الحياة.

صلاح ضاحكاً: لقد لعبتى بى كل هذا.

سارة وهى ضاحكة: كنت أريد أن أربيك.

صلاح: إذاً لماذا ستعودين إلى ألمانيا؟ استمرى هنا وابقى معنا.

سارة: الأمر ليس بهذه السهولة، فعملى وأموالى وحياتى هناك لا يمكن أن أتخلى عن كل هذا. وأيضًا دراسة آدم.

صلاح: لا أستطيع أن أفقدكى مرة أخرى.

سارة: سنتقابل كل فترة لن أراك من وراء الحجب مرة أخرى.

عاد صلاح إلى بيته ليجد شيرين تجلس في غرفتها صامتة ولم تخرج منها طوال اليوم.

صلاح وهو يدخل إليها: مساء الخير.

شيرين واقفة تنظر عبر النافذة التفتت إليه في هدوء والهالات السوداء تغطى وجهها، يظهر عليها علامات عدم النوم: مساء النور.

صلاح : أبلغونى أنك لم تخرجى من الغرفة طوال اليوم، ما الأمر؟ ألم نتحدث في الأيام الماضية بما فيه الكفاية .

شيرين وهى تخرج الكلمات بصعوبة : كنت أريد أن أكون وحدى .

صلاح وهو يخلع الجاكيت بصعوبة مع ضمادات جرحه : هل جلوسك وحدك سيغير من الأمر شيئاً؟

شيرين تقدمت إليه لتساعده في خلع الجاكيت : هل قابلت سارة؟

صلاح : نعم .

شيرين علقت الجاكيت وجلست على حافة الكرسى وبدأت تتحدث بصعوبة : اجلس يا صلاح أريد أن أتحدث معك .

جلس صلاح وبدأ يسمع لها .

شيرين : أنا ربما لم أكن أعرف قدر حبك لسارة، ولا ما عانيتماه بسبب ظهورى في حياتك، ولا تدخل أبى في حياتكم، لكى يشترى لى حياة سعيدة على أنقاض حياة إنسانة أخرى .

صلاح مقاطع لها : لقد تحدثنا في هذا وقلت لك الأمر ليس ذنبك .

شيرين : لا تقاطعنى أرجوك ربما لن يكون لى الشجاعة لأتحدث مرة أخرى، أنا الأيام الماضية كانت بالنسبة لى كشهور كنت أتعلم كل يوم ما لم أكن أتخيل أن أمر به طوال حياتى .

طوال عمرى وأنا الحمدلله الفتاة الجميلة المجاب طلباتها، لم أتعلم تحمل مسؤولية بيت ولا أن أكون زوجة وأم إلا معك، وكانت دائماً طلباتى مجابة

وما أطلبه أجده، لم أعرف يوماً تعثراً مادياً أو مشاكل صعبة، حملت عنى عبء مشكلات كثيرة وربيت لى ابنى كأنه ابنك، لم يشعر حسام يوم أنك لست أبيه، مرت الحياة معى بهدوء حتى تجربة زواجى الفاشلة، كنت أجرى لأبى أقول له لا أريده، فيقول سمعاً وطاعة.

وقفت وهى تدور فى جنبات الغرفة وتكمل حديثها: حياتى كلها قضيتها أرتدى أفخر الثياب، وأجمل الفسح، وأشهى الطعام، لا تعب ولاخوف من مجهول، حتى علاقاتنا الخاصة الباردة التى كنت تؤديها كواجب عليك، تعودت عليها وقلت هذا هو طبعه، كنت دائماً فخورة بك وفخورة بحب أبى لك، ولكن استيقظت على كابوس.

لم أتخيل أن وراء هذا الثراء كانت كوارث لأبى، ولا أن دم زوجى وأبو أولادى رخيص عليه لهذه الدرجة، ولا أن كلمة أرملة لابنته كانت لا تعنى له شيئاً في مقابل أن يكون دم زوج ابنته ثمناً لطوق نجاته.

ولم أتخيل أن هناك إنسانه عبر البحار عاشت وتجرعت الوحدة بسببى، ولا كيف واجهت الغربة وحيدة حتى أصبحت بهذه الصلابة.

كيف حضرت معى لبيتى، وكيف رأتنا سويًّا في شهر العسل، ولم تقتلنى، وأنا التى أخذت رجلها منها.

حاول صلاح مقاطعتها: أرجوكِ خففى عنك قلت لك ليس لك ذنب.

شيرين وهى تشير إليه: أرجوك دعنى أكمل لا تقاطعنى.

واكملت حديثها والدموع بدأت تخرج على استحياء من عينيها: صلاح لابد أن أدفع ضريبتى، لابد أن أتحمل ذنب أبى، لابد أن أدفع ثمن استقرار

حياتى العشرين سنة الماضية، صلاح لقد أخذت شبابك، وأخذت اسمك وحملت أولادك، وعشت بسلام، يكفينى أنها حمتك من أبى، وحمت أولادى من الفضائح التى كانوا سيحملونها مع اسمك لو لطخه أبى كما كان يخطط. يكفينى أنى الآن أستطيع رفع رأسى أمام الناس بشرف وكرامة، صلاح اذهب إليها... عد إليها... لن أقول لك إنى أريد الطلاق... ولكن حقيقة.. لن أستطيع أن أستمر معك.. لن أستطيع أن أضع عينى في عينك.. اذهب إليها.. عد إليها.. عوضها بعضاً مما فات.. وعش معها باقى أيامها، وأنا سيكفينى أنى ما زلت أعيش باسمك وبكرامة.

لم يصدق صلاح كلمات شيرين وهى تتساقط على أذنيه ولكن لم يستطع أن يعلق.

مرت أيام، وجاء موعد سفر سارة وآدم، وفى صالة المطار وهم يجلسون بجوار بعضهم ومعهم السكرتير الخاص بهم وجدت سارة من ينادى عليهم، نظرت لتجد صلاح وسارة الصغيرة وخلفهم حسن وحسين يمشون بخطى سريعة.

وقفت سارة وآدم وهم يتعجبون من رؤيتهم جميعاً رغم أنها كانت حريصة ألا تبلغ أحداً بموعد سفرها.

صلاح وهو ينهج من الجرى: لماذا لا تردى على الهاتف.

سارة الصغيرة وهى تنظر إلى آدم: لماذا لم تخبرنى بأنك مسافر.

حسن : هل كنت ستسافرين بدون أن تسلمى علينا مثل كل مرة .

حسين : ألا نستحق أن نطمئن عليك .

سارة وهى تبتسم بارتباك : لا ليس الأمر هكذا ، ولكن لا أحب الوداع .

سارة الصغيرة أقبلت إليها واحتضنتها : متى ستعودين؟

سارة الكبيرة أخذتها في حضنها بقوة : بل قولى متى ستحضرين إليّ أنت؟

صلاح : سأنظم أمور العمل وسأحضر إليك ، هل سأجد مكاناً لى في بيتك؟

سارة وهى تبتسم : دائماً لك مكان في بيتى .

صلاح اقترب منها سريعاً وهمس في أذنها : بل أريده مكاناً في قلبك .

سارة ضاحكة : مكانك في قلبى ابن خالى وأخى وآخر من تبقى لى من عائلة ، سأنتظركم جميعاً .

تغير وجه صلاح وبدأ يكمل حديثه بهمس : ولكنى أحتاج إليك

أشارت سارة إلى آدم وسارة الصغيرة وهم يتبادلون الحديث بهمس بجوارهم : هم يحتاجون إلينا أكثر ، ويحتاجون أن نسمح لهم ولمشاعرهم بالنمو أكثر .

صلاح : سأحضر إليك قريباً ونتحدث أكثر .

سارة مبتسمة : وأنا في انتظاركم .

حسن وحسين : لا تقلقى على العمل نحن ذراعاك .

سارة : أنا مطمئنة .

آدم وهو ينظر إلى سارة : أنا سأنتظرك ، جهزى أوراقك وتعالى لتكملى دراستك في ألمانيا معى .

صلاح وهو ينظر إلى سارة وقد أمسك بيديها : سأرتب كل شىء وألحق بك سريعاً .

سارة وهى تبتسم : وأنا في انتظاركم .

*****

فهرس المحتويات

(١) عطر الشتاء ٣

(٢) كفر أولاد راضى ١٣

(٣) سارة ١٩

(٤) أيام الحب والأمل ٢٦

(٥) الجامعة ٣٨

(٦) سباق الكفاح والحب ٧١

(٧) الإمبراطور ٧٩

(٨) الخروج من الشرنقة ٩٧

(٩) قوانين الاستسلام ١٢٤

(١٠) عالم أوربا الجديد ١٥٣

(١١) الجانب الخفى من الإمبراطورية ١٦٢

(١٢) وميض السنين ١٦٨

(١٣) الكرسى الصلب ١٧٧
(١٤) انهيار جدار الصمت ١٨٨
(١٥) أيام جديدة ١٩١
(١٦) العودة ٢٠٠
(١٧) الملفات السوداء ٢٢١
(١٨) شروخ القلب ٢٢٨
(١٩) نبتة الحب التى لا تموت ٢٤١
(٢٠) بداية جديدة ٢٥٠
(٢١) الشيطان لا يتوب ٢٥٩
(٢٢) الحرية ٢٧٠